عبد الحميد وشفون

الديدان

رواية

الجزائر تقرأ

الديدان
وشفون عبد الحميد
ردمك: 978-9931-00-759-3
الإيداع القانوني: السداسي الثاني 2019

الجزائر تقرأ
8 شارع حساني يسعد، الجزائر الوسطى
مدير النشر: عبد الرزاق بوكبة
إيميل: nashr@dzreads.com
/dzreads @dz_reads dzreads.com

جميع الحقوق محفوظة ©

وشفون عبد الحميد

الديدان

رواية

الإهداء:

إلى من كتبت لأجلهم..

إلى كل شخص قرأها وشعر أنه فقد شيئا...

-1-

شيء واحد كانا لا يكفان عن تداوله بعد مرور كل تلك السنين التي جمعت بينهما، فلم يزل الأكبر سنا والمتفوق بأربعين سنة كاملة يطرح سؤاله ذلك بشيء ما يبدو كخليط من الصمت والجوع والحيرة، لا شيء يبدو واضحا في كلامه حين يكون الموضوع موضوع الرحيل عن هذا العالم، كأن مجرد التفكير في الأمر يحدث عاصفة خوف بداخله فلا يملك سبيلا للسيطرة عليها، ثم ما يلبث أن يأخذه بصره نحو مقدمة الطريق عبر الزجاج الأمامي للسيارة، لأن رفيقه اللائذ إلى الصمت سيكون حتما قد أخذ بوجهه بعيدا عبر النافذة المفتوحة بجانبه دون أن يعطيه أي جواب عن سؤاله ذاك ليحط بنظره على الأنوار المنبعثة من باخرة كبيرة تبعد كيلومترين عن حواف الميناء وتتوسط المياه في ثبات كعروس مزينة، ومن ثم فإن موضوع الرحيل هذا وخلال أربع سنوات كان يمكن فتحه في الأسبوع مرة. أثناء المرور من هنا، ليعاد غلقه بنفس الطريقة، دون البحث في الأمر أكثر ودون تبذير كلام أكثر مما تتطلبه الإجابة عن سؤال يشبه «هل يا ترى

سنموت في يوم واحد!»

عندما توقفت عجلات السيارة عن الدوران تماما، كان عدد من المركبات تصطف ساكنة في الأمام أيضا، على امتداد كيلو متر كامل، وقد بدا واضحا أن حادثا ليليا قد وقع هناك في المقدمة.

كانت أنوار الأعمدة على الطريق تشع بثبات ودون توقف، والأضواء الخلفية للمركبات تبعث أشعة نجمية للواقفين خلفها، وعلى الجهة اليسرى للطريق وقفت نافورة ماء جميلة راحت تتدلى منها خيوط ماء لطيفة ترتفع وتنزل في انحناءة نحو الأسفل مرة أخرى، بعض القطرات كانت تهب مع الريح وتلتصق بوجوه أصحاب المركبات القريبة، فكان العجوز يخرج منديلا من صدرتيه ويمسح على وجهه قائلا كم يحب لو يستمر الزحام أكثر قليلا ما دام أن حظه قد وقف به عند مكان كهذا.

بعد لحظات بدأت مزامير المركبات ترتفع قدوما من الخلف حتى صار العجوز يجد في ذلك متعة غريبة فجعل ينظم لزمرة الغاضبين تلقائيا وانتقلت موجة المزمار مرورا نحو المركبات في المقدمة، فكان ذلك الصوت عاملا إضافيا قد احتاجه شاب في الثالثة والعشرين من عمره يرى الجميع بأن قلبه ليس إلا عبارة عن جلد ماعز منفوخ بداخله بعض اللبن والكثير من الهواء العفن، حتى لقد مال برأسه إلى الخلف على رأس المقعد من أثر الضجيج في الخارج والنعاس الذي أصابه، ونزلت رموش عينيه على بعضها في سلام بالغ.

عاد علاء بذاكرته ليتذكر هذا فجأة:

_إذن أنت الآن تريد أن تخبرني بما يجب علي أن أو ألا أفعله !

_أجل

_ هاهاهاها.. أنت الذي جريت وراء ذوات القوائم الأربعة في صغرك هناك خلف الجبل من أين لك أن تعرف بشأن الحب يا هذا.. كالعادة لا فائدة، إنني لو وقفت انتظرك هنا لأربع ساعات متتالية لما نطقت بكلمة واحدة لتجيبني.. أعتقد أن علاقات الحب محجوزة لبعض الأشخاص في هذا العالم، فيما ليست محجوزة للبعض الآخر.. هل أنت فاهم.

خلال اللحظات التالية، كان جميع من في الحفل وبعد أن استرعى هذا الصراخ اهتمامهم يحدقون إلى الشاب المتحجر يتفرسون ملابسه التي لا تتلاءم مع الحفل ولا حتى مع أي مناسبة أخرى، معطف أسود طويل وقبعة ذات انحناءة أمامية وسروال بني ذلك الذي كان كان يرتديه الفتى.

وما كان لأكرم والذي يشكل في هذه الحكاية دور صديق الفتاة الجميلة إحدى أبطال قصتنا أن يقف هناك مزيدا من الوقوف المخزي، لقد جذب يد الفتاة التي كانت وطوال الفترة السابقة تحدق إلى علاء ودون أن ترمش لها عين حتى، لقد جذبها إليه قائلا وحديثه موجه صوب الفتى الواقف أمامهما «لست أدري لما يعاملك والدي هكذا.. أعني بكل هذا التودد المصبوغ الذي لا أدري من أين ظهر عليه فجأة ... لكنني أعلم أنها إحدى الأخطاء التي ما كان ليرتكب أكبر منها في مثل هذا السن الذي هو واقع فيها.. وإلا فما كنت

لأسمح لأمر حضورك إلى هنا بأن يضاف إلى قائمة الأشياء المشينة التي لا أفتخر بحصولها..» قال ذلك بوجه مجعد ، حتى لقد أخذ وقتا ليعيد تجميع ملامح وجهه المبعثرة، ويسترجع وأنفاسه، ويعيد إنزال يده حيث يفترض أن تتواجد أي يد هادئة، وإنما قال أكرم هذا الكلام لأن الحفل لم يكن قد أقيم إلا احتفاء بعيد مولده الخامس والعشرين، إذ وجد أن في الأمر خصوصية بالغة، بحيث يكون من حقه تحديد أسماء المدعوين سلفا وبكل أريحية.

لكن هذا الفتى والذي لم يبدو عليه أي تأثر بما يحصل حوله كان قد سبق له وأن دخل هذا البيت عديد المرات قبلا، ولم يكن لأكرم وهو يشاهده ينزل السلالم المؤدية لأعلى _ خلال المرات السابقة _ نحو مكتب والده إلا ليرمقه بنظرات حقد وتضايق شديدين ومن ثم الاكتفاء بتشييعه نحو الخارج دون أن تكون له القدرة على إبداء تضايقه.

لقد كان علاء وبجسده المعتدل المغطى بالوبر الأسود والقبعة المعكوفة وهو يحدق ببرود إليهما غير آبه بما يوجهانه إليه، وإذ أنه لم يكن قد نزع يديه من جيبيه العميقين فإن ذلك لم يزده إلا هيبة وتحديا لنظيره صاحب الحفل أنيق المظهر أناقة مبالغا فيها.

بعد ذلك جرجر أكرم حبيبته إلى غرفة أخرى بعيدا عن هذا الورم الذي دخل بيته وراح ينخر حفله بتلك الطريقة عندما حاول أن ينصح الفتاة بأن تجد لنفسها شخصا آخر تأوي إليه دون أكرم.

كذلك أعاد صوت مزمار عال ارتفع فجأة من سيارة قريبة علاء إلى وعيه، أيقضه من أضواء الباخرة التي جعلت عينيه تغرقان في النعاس ومن ثم الوقوع في مرحلة ما بين الحلم واليقظة، لقد كان واثقا من أن أكرم على سطح تلك الباخرة، يقيم حفلا ليليا مع أصدقائه ومنهمكا في قصف أموال والده ومتنقلا من شفاه فتاة إلى شفاه أخرى.

بدأت ذيول المزامير تخبو شيئا فشيئا مع تحرك قطيع المركبات، فيما راحت الألوان الضبابية تنقشع هي الأخرى. بعد مسافة قطعتها السيارة أخيرا تمكن فيها علاء من الإفاقة جيدا، وحين رفع رأسه عن النافذة حرك مقبض الباب وجعل يقف خارجها بطريقة بدت آلية.

« لا تنس أن تحضر معك الأدوية غدا صباحا، سنحتاجها كما أنني قمت بالتوصية على أربعة أكياس من السماد الأبيض، سيكون عليك أن تمر وتحضرها أيضا.. أنا سوف أتمشى قليلا نحو البيت، عمت صباحا» قال علاء وهو يعيد الباب إلى مكانها، ثم عدل ياقة معطفه لتمنع عنه برد الليل ودس يديه ومضى يمشي بعيدا بكل ذلك الهدوء الذي يميزه، فيما ظل الشيخ إبراهيم بداخل السيارة ينتظر فرصة لدحرجة مركبته بعيدا عن الزحام البغيض الذي هو واقع فيه.

وقف علاء على الرصيف يراقب أنوار الباخرة، وكان هواء الليل لا يتوقف عن حمل رذاذ مياه النافورة إلى وجهه، ولم يكن ذلك يشكل إزعاجا، إنما كان فكره عالقا بما يدور على ظهر الباخرة مجددا، أو ببعض من يحظرون ذلك الحفل تحديدا.

«هذا ليس من شأنك.. ولن يقدر له أن يكون كذلك في أي يوم من الأيام أبدا..» الإجابة التي كانت تدفعه بها وتصده كلما حاول إرشادها إلى مدى الحماقة التي تقوم بها بتمضية وقتها مع شخص يقضي معظم وقته غائبا عن هذا العالم.

بضع لحظات أخرى وتفتحت أول زهرة فوق سماء الباخرة، لقد كانت تلك أول ضربة من ضربات الألعاب النارية يتم إطلاقها تلك الليلة، إيذانا ببدء حفل ما، علاء ويشاهد ذلك من على الرصيف في الأعلى، فإنه لم يكن ليتحمل أكثر من ذلك، فهنالك اشمئزاز كبير بات يدور في خلده من أمور كهذه، ولقد أوشك في إحدى المرات أن يرد على أكرم بطريقة عشوائية تنافي تماما طبعه البارد الشارلوكهولموزي عندما أهانه أمامها بقوله أنه وإياها يعيشان في عالم يتكون من أربعة أبعاد أو خمسة إن تطلب الأمر حتى، وهو عالم يختلف تمام الاختلاف عن العالم ثلاثي الأبعاد المكون من النوم والطعام والعمل والذي يفترض أن علاء يعيش فيه منذ ولادته ، فلا يمكن لعالم كهذا أن يحوي بعدا كبعد الحب أو بطاقة دعوة، أو جواز سفر، أو بطاقة ائتمان أو غيرها..

لقد رفض علاء حينها أن يخرج قبضته من جيبه لمجرد أنه لم يسبق له أن حصل على دعوة لحضور حفل يتكون من أبعاد كثيرة، «فقير أنت يا فتى.. فقير وسوف تبقى فقيرا» وحتى حين تلقى منه هذا الكلام أيضا فإنه لم يبد رد فعل ملموس تجاهه، بل لقد نظر إليهما

مطولا، ثم رآهما بعد ذلك وهما يركبان سيارة مكشوفة ويختفيان بعيدا.

بعد عشرين دقيقة من السير الشارد المتأني، انساب خلالها علاء عبر عدة شوارع واسعة وأزقة ضيقة، تحت أضواء المصابيح المعلقة أعلى الأعمدة الكهربائية، وعبر الأدخنة المنبعثة من موائد الشواء المقامة على الأرصفة، وعلى أنغام ضحكات العاشقين المنحدرين نحو حديقة صوفيا الباردة.

وكان قد دخل أحد الحوانيت القريبة من نوافذ بيوت القصبة حين سأله شيخ من خلف دكانه قائلا «هل ما زال ذلك العجوز الأخرق قادرا على قضاء حاجته بنفسه، هل هو بخير ؟»

«أجل. لا يزال قادرا على فعلها لوحده...» كذلك أجاب علاء وهو يدس بعض الأوراق النقدية في يد العجوز فيما يأخذ عنه كيسا من الحاجيات المنزلية، واستدار يمشي خارجا.

بعد ذلك كان عليه أن يقف أمام باب البيت قليلا، كأنما ليمنح جهاز الاستشعار المثبت على الجدار وقتا ليفحص وجهه ويتأكد من هويته قبل أن يسمح له بالدخول، وإنما كان عليه أن يحشر سبابته داخل شق صغير محفور في الباب الخشبية حيث يفترض أن يتواجد قفل الباب عادة لو كان لها قفل يحميها، ثم إنه قام بتحريك سلك صغير مثبت في الجهة الأخرى ورفعه قليلا نحو الأعلى، وبعد معالجة

سريعة كان يقف في الجهة الأخرى يعيد الباب إلى مكانها.

الآن وقد انحنى لينزع جزمته السميكة، كانت عجوز هزيلة تلف شعرها فوق رأسها بقطعة قماش مزركشة، وتربط خصرها النحيف بخيط أزرق اللون ليمنع ثدييها الذابلين من السقوط أكثر، بعباءتها الحمراء تقدمت تجرجر قدميها اليابستين وعيناها الغائرتين نحوه، ويدها على الجدار بسرعة تشبه أن تكون أنها لا تريد الوصول إليه أبدا.

وإن كانت قد تركت فراشها في هذا الوقت من الليل فلأنها سمعت صوت الصرير الذي أحدثته الباب الخشبية وهي تعاد إلى مكانها، ولأنها فقدت القدرة على النوم ليلا منذ سنوات لم تعد تذكرها، قالت وهي تبتسم بفم فارغ «لم يكن عليك أن تحضر كل هذا... عشاءك معد في الغرفة»، ذلك أن مطبخ البيت لم يكن يشبه أي شيء ولا قريبا من أي شيء إلا من غرفة تملأ زوايا سقفها شباك العناكب والدخان الأسود المنبعث من الفرن الصغير في الزواية، وثلاجة قديمة وبعض الكراسي الخشبية العتيقة ومائدة خفيضة.

قال وهو يسلمها الكيس الأسود «أعدي بعض الطعام للهرة إذن.. هل نام لؤي».

« أجل» ردت المرأة بصوت غائم «لقد انتظرك طويلا لكي تساعده في حل واجباته.. لكنه لم يستطع. لقد غلبه النعاس على الطاولة»

فقط بعض ضوء يرسله القمر ذلك الذي كان يتحدثان تحته ويرى أحدهما وجه الآخر عليه ، وراح يصعد أدراج السلام نحو الأعلى بعدما عادت العجوز إلى مخدعها، وكان ثمة بداخل الغرفة حين أطل برأسه طفل ينام على فراش وسط أرضية الغرفة المظلمة، وظل علاء يلمحه طويلا يتفقد عينيه المغمضتين ويديه المدسوستين تحت رأسه المتوهج بضوء القمر المنسل عبر النافذة المفتوحة.

تقدم علاء نحو النافذة وأطل نحو الأسفل، حيث تقف نافورة مياه متيبسة وسط ساحة البيت المربعة ذات الأرضية الأسمنتية الباردة، ومما كان يقدر على رؤيته أيضا محض دلاء من الورود والنباتات التي عكفت العجوز على تعليقها على جدران البيت وتربيتها، بعض العوارض الخشبية التي تشد البيت كانت تبدوا في حالة يرثى لها، حتى الطين على الجدران راحت تتآكل شيئا فشيئا وتسقط لأسفل، كذلك نقل بصره يمنة ويسرة يطوف به أركان البيت من الأعلى، ثم وجد بعض الوقت لمشاهدة القمر طويلا، قبل أن يستدير نحو علاقة مثبتة بجانب النافذة فركب معطفه وقبعته عليها، ثم جلس إلى طاولة شقيقه الصغير وجعل ينهي ما بقي من واجباته المدرسية، وكان من العجوز أن دخلت الغرفة قبل ذلك فوجدت رأس الصغير محطوطا على الطاولة ويديه مجموعتيه على أحد الدفاتر، فحملته برفق إلى فراشه وهي تغمغم قائلة «فليسامحني الله إن لم يكن الطعام الذي أعده يشبه الذي كانت تعده والدتك يا صغيري.. إنني لا أعرف كيف كان مذاقه حتى.. كيف لي أن أعرف ذلك ،إنني لا اعرف..»

قالت ذلك وكانت دمعة تسقط من عينيها وتنزل متعرجة على وجهها العجائزي البارد.

لم يستغرق أمر إنهاء تلك المسائل الصبيانية على الطاولة سوى دقيقتين صغيرتين من الزمن، حتى كان علاء يرفع رأسه عنها، ثم وقف يبادل القمر النظرات مجددا، ويسترجع أفكاره الهاربة، ثمة شيء واحد يشغل باله أكثر من أي شيء آخر، شيء يشبه الاكتفاء بمعالجة موعد الرحيل عن هذا العالم وطريقته، في سرية تامة، ثم ما لبث أن عاد وطبع قبلة على جبين شقيقه ثم دس نفسه في الفراش إلى جانبه وأغمض عينيه نحو سقف الغرفة.

بحلول الصباح كان سرب من الطيور الزرقاء يتساقط على الحجارة المرصوفة على أرضية ساحة الشهداء يتراقص ويدور حول نفسه كرشة من فرشاة رسام مجنون متهور على لوحة مرسومة سلفا، فيما جلس علاء على أحد الكراسي العامة يراقبها كان ثمة شيخ يجلس إلى جانبه وقد راح ينثر فتات العجين عند قدميه بينما يتقافز الحمام نحوها لالتقاطها من بين أقدام العابرين دون الاكتراث لأمرهم.

«هل ستتحسن أوضاع العالم إذا واصلت فعل هذا..» قال الشيخ ملقيا ببصره نحو الأسفل يحدق في الفراغ شاردا.

فرد علاء «ما أعرفه أنها لن تشعر بالجوع إن توقفت عن إطعامها..»

«الأمر محض مسخرة.. مسخرة كبيرة»

واكتفى علاء من كل ذلك فرجع واقفا ومشي نحو سيارة سوداء ثقيلة كانت قد توقفت على مقربة من الحمام على الجهة الأخرى.

وكان صمتا بالغا ذاك الذي اقتحم به علاء المقعد الأمامي للسيارة، وهو الشيء الذي لم يكن له أن فشل في القيام به سابقا، بوجود تلكما العينين الأثويتين اللتان تراقبانه باشمئزاز من الخلف فإن الركوب بتلك الطريقة الآلية هو كل ما كان يستطيع الإتيان به بعدها.

بعد عشرين دقيقة كان على السيارة أن تتوقف مرة أخرى أمام بوابة الجامعة، هناك حيث كان لإحدى أميراتها أن تضع قدمها خارج العربة بكل ذلك الدلال والجمال الذي يسقطان عليها سقوطا واقعيا و يلائمانها، بعد أن تودع والدها الشيخ إبراهيم بفتور بالغ. كان لها دوما أن تجد فيها فرصة لشحذ عينيها الفاتنتين بكمية من الاشمئزاز تكفي دستة من الناس الغير مطاق رؤيتهم. لكن علاء وحده كان يتلقى كل ذلك دفعة واحدة.

قال الشيخ إبراهيم ضاحكا بعد مغادرتها «إن جلسة رعاة البقر التي تجلسها وأنت تضع يديك خلف رأسك على رأس المقعد بتلك الطريقة ليس الشيء الوحيد الذي يدفعها إلى معاملتك هكذا، لكن قيامك بغلق عينك كلما همت بتقبيلي له تأثير أيضا، هاهاها.. أم أنك تعتقد أنني لم ألاحظ ما الذي يحدث بينكما، ناهيك عن أنك استوليت على مكانها في المقدمة، إنها لم تسامحك على ذلك حتى

هذا الوقت، لكن لا تقلق، نسمة فتاة جيدة وسوف تعتاد على هذه الجلسة، طبعا إلى أن تخترع جلسة أخرى هاهاها..»

لم يكن علاء قد سمع شيئا، إنما كان شاردا في مراقبة شعرها المتموج. حالك السواد وهي تمشي صوب صديقاتها عبر المرآة الجانبية.

«ألن يكون من الجيد أن تجعل هذا الشيء يتحرك بعيدا عن هنا..» رد عليه وهو يغلق عينه فيما أسند رأسه إلى رأس المقعد ليغرق في ظلام الطريق على وقع أنغام قيثارة عاصمية راحت تنبعث من مذياع السيارة، ولمدة أربعين دقيقة ظل على حاله لم يفتح عينيه إلا لأخذ كوب شاي عن يد أحد الباعة المتجولين في الطريق القادمين من جنوب البلد، ولقد التقطه بتلك الطريقة عديمة الاكتراث ثم سلمه إلى الشيخ إبراهيم وعاد إلى عالمه المظلم يدس عينيه داخل رأسه.

وفيما كان يجيد الهروب إلى النوم، كان الشيخ إبراهيم يفضل القيادة بعينين مفتوحتين لا تزيغان عن الزجاج الأمامي لحظة واحدة، كذلك وكل صباح كانت سهول متيجة الفسيحة تستقبلهما وهما يدخلان أرض الخضار والفاكهة.

بعد موجة من الاهتزازات على الطرق الترابية استيقظ علاء من نومته، ركن الشيخ إبراهيم مركبته بجانب سور من القصب اليابس يحيط بأحد أفضل بساتين الفاكهة التي يملكها، وترجل عن السيارة

بذلك الوقار الذي يستحقه، بذلة زرقاء أنيقة وربطة عنق حمراء تنزل على صدره وحذاء من الجلد الأسود الفاخر، كل ذلك وقف بداخله أحد أسياد أراضي الفاكهة في المنطقة، بلحيته البيضاء القصيرة وشواربه ونظرته العفوية قال وهو يعيد غلق باب السيارة حتى لقد أحدثت صوتا يمكن لكلب نائم تحت ظل القصب أن يبدي منه انزعاجه وأن يغادر المكان هاربا، لقد قال الشيخ إبراهيم مشيرا بيده «اثنان منكم يقومان بإنزال علب الدواء من صندوق السيارة، فيما ينصرف الآخرون لمواصلة العمل..» وما كاد ينهي جملته إلا وسارع اثنان من العمال إلى تنفيذ أوامره. فيما عاد سبعة آخرون بوجوه متذمرة صوب الشجر.

«يمكنكم أن تتأخروا أكثر من هذا عندما تعملون مع الحاج أحمد.. هل يمكنكم ذلك ؟» صاح خلفهم. ولم يكن أحد ليرد جوابا، فلقد كان مجرد ذكر اسم هذا الرجل يعد دافعا جيدا ليتوقفوا عن التحديق نحو بعضهم، بل وإن كل الصناديق التي كانت ساقطة راحت ترتفع عن الأرض ثم إذ بها تتوجه نحو الأشجار ومن ثم كان بإمكان الشيخ إبراهيم أن يشاهدها وهي تمتلئ بأجود أنواع الخوخ الأحمر.

أما علاء فوقف أمام غرفة مبنية بناء سريعا وغير مسؤول أبدا. كانت تقف على مقربة من السيارة ودفع بابها الحديدية الثقيلة وأطل برأسه نحو الداخل. ولم يكن من شيء غير أفرشة العمال التي ينامون عليها مطروحة على الأرض وفرن متسخ مربوط إلى قارورة غاز في الزاوية،

وعدد من أزواج الأحذية المتروكة على الأرض بتخاذل وبعض من قطع اللباس المعلقة على الجدران فوق الوسائد، ولا شيء آخر سوى الكثير من الظلام كان في استقباله، بعد ذلك التفت نحو ثلاثة رجال يقف كل واحد منهم على طاولة يقوم بترتيب الفاكهة في صناديق أصغر مخصصة بغية شحنها بعد ذلك إلى السوق مباشرة، فنظر إليهم قليلا وصاح فيهم «أين هو السلوقي، هل رآه أحدكم ؟»

« أجل.. لا... ربما» قال واحد منهم.

«لقد ارتدى ملابس أنيقة قبل قليل ثم غادر» وقال الثاني.

«كان يبدو عليه أثر المرض حين طلب منا أن لا نخبرك عن مكانه» وقال الثالث دون أن يقدر الواحد منهم على أن يأتي بإجابة مقنعة.

رد علاء الباب الحديدية الباب إلى مكانها وقفل راجعا نحو صندوق السيارة، أخرج قارورتين باللون الأبيض وجعل يخلطهما داخل وعاء بلاستيكي من سعة خمس رتلات تكفيهما معا، ثم حمل الخليط نحو صهريج ضخم مقام على قواعد خشبية بجانب الغرفة وجعل يصبه بداخله على مراحل متفرقة، كل ذلك والشيخ إبراهيم واقف على رأسه يراقب حركاته باهتمام بالغ يحاول التقاط أي شيء مما يفعله علاء ويكون بالإمكان التقاطه.

لقد كان علاء ولا يزال يعد جوهرة لهذا العمل التي ما كان أي مالك من ملاك أراضي الفاكهة ليتردد لحظة واحد في دس يده في جيبه

وتحرير شيك بمبلغ يفوق قيمة المركبة رباعية الدفع الواقفة بجانب سور القصب في الخلف في سبيل الحصول عليها.

5000 دينار مقابل جولة تدوم عشرة دقائق لا أكثر. كانت هذه إحدى أصغر المساومات التي أجراها علاء لقاء ما يشبه أن يتفقد شجرة واحدة من أشجار بستان مالك آخر، ذلك أن اكتشاف مرض الشجرة أو علتها وتسميته بشكل صحيح سوف قد يجنب صاحبها خسائر فادحة يمكن أن تلامس المليار سنتيم، أو حتى قلب الطاولة وكسب نصف هذا المبلغ، بشكل سيصيب هذا الأخير بنوبة فرح تفقده القدرة على تذكر أنه قام بدفع مبلغ 5000 دينار مقابل جولة من عشر دقائق يقوم بها فتى في الثالثة والعشرين في بستانه يوما.

بحلول منتصف النهار كان العمل قد انتهى تقريبا، إلا من بضع صناديق إضافية كان على الرجال الثلاثة الواقفين على طاولاتهم أن يعملوا وقتا إضافيا لإتمام ترتيبها، فيما جلس باقي العمال تحت ظلال الأشجار يسترجعون أنفاسهم من شدة التعب والإعياء بعد أن أتموا استخراج الكميات المطلوبة من الفاكهة، وكان علاء قد أنهى مداواة البستان بالتوازي مع انتهاء العمل إجمالا حينما أوقف الجرار بجانب الغرفة ثم ترجل عنه هو والشيخ إبراهيم وقد وافق هذا ظهور السلوقي الذي كان علاء قد سأل عنه صباحا يرافقه كلباه وهما يتمشيان خلفه خافضان رأسيهما في إذعان بالغ، كذلك راح يمر عليهما متوجها إلى الغرفة دون أن يلتفت إليهما وقد بدا وجهه شاحبا على غير العادة،

ولو أن رأسه الأصلع الشبيه بالإجاصة يبدو على هذه الهيئة دوما ، إنما جسده الهزيل والمحني قليلا نحو الأمام لم يكن ليساعده على إخفاء وجه المغطى بضمادات يخفي بها الندبات الجديدة التي حصل عليها مؤخرا.

فخاطبه الشيخ إبراهيم بعد أن تجاوزهما بعدة خطوات إلى الأمام «ما بك أيها السلوقي.. هل حصلت على هزيمة جديدة هاهاها..» ولما أنهى ضحكته أردف قائلا بينما ظل السلوقي واقفا في مكانه يستمع الكلام غاضبا، أردف قائلا «انتظر لا تقل شيئا.. أمممم لقد تتبعت الكلاب رائحته مجددا _ غير أنها ما كانت لتتبع غير ذلك في العادة_ ثم إنك لحقت بها ولم تجد شيئا غير شجرة عليق لتسقط بداخلها وتعلق بداخلها هاهاها.. أخبرني أن شيئا غير هذا قد حدث» هكذا راح الشيخ إبراهيم يمازح حارس بساتينه المخلص والمرهف الحس جدا، ولقد كان يمكن لاسمه هذا أن يحتفظ بكامل زينته وهيبته لولا ظهور هذا التحدي الجديد في عمله والذي تمثل في لص شديد الحيلة استطاع أن يسلبه أرطالا من الفاكهة دون أن يقدر على اصطياده بعدها، وقد أزعج هذا الأمر مضجعه كثيرا وبات يهدد لقبه الذي يميزه.

أما مناسبة حصوله على أسم السلوقي فتيمنا بكلب الصيد المعروف جدا. الشيخ إبراهيم لم يجد شيئا أكثر ملائمة له من هذا لوصفه، بجسده الهزيل المتيبس نحو الأعلى وصلعته البيضاء المفلطحة

وأنفه الطويل والتصرفات التي يؤديها أثناء قيامه بمطاردة اللصوص حين يربض بين الحشائش مترقبا حتى تحين لحظة الانقضاض على الفريسة التي لا يمكنها الهروب بعد رؤية عينيه الغائرتين إلى أبعد مما قد يسمح لها به بعد ذلك، إن كلبيه اللذان يرافقانه قد يغاران منه حتى.

إذن لقد وقف في مكانه ساكنا، وذلك حال كلبيه من خلفه، وبعد نظرة تفحص ألقاها حوله وقف ناحية علاء وسأله قائلا «هل رأيته..»

فرد علاء «لا..» فالتفت إلى طريقه وقبل أن يواصل المشي نحو الغرفة قال ووجهه ليس موجها إلى أي شخص من اللذين يقفون حوله «هذا لن يستمر طويلا... أعدك بذلك» ثم دخل الغرفة المظلمة وغاب داخلها فيما ظل كلباه واقفين عند الباب لا يدريان ماذا بعد ذلك.

«لقد أثر عليه الأمر كثيرا..لقد تدمر عن آخره.. لم يعد ذلك السلوقي الذي كنا نعرفه» كذلك غمغم الشيخ إبراهيم قائلا والتفت إلى مدخل البستان حيث كانت أربع عجلات ضخمة من المطاط الأسود تتقدم إلى الداخل عبر البوابة.

ونزل منها، من المركبة رجل ستيني ذو بشرة بيضاء ناصعة، يضع نظارة سوداء ويغلف رأسه شعر أشيب من كل الجهات، ويرتدي حلة زرقاء تناسب وقفة رجال الأعمال التي وقف بها ينظر إلى البستان

يتطلع في ثماره الوافرة.

«إذن كيف حال صديقي العزيز.. هل اشتقت إلي» كذلك قال بابتسامة عريضة حوت _ كما يبدو _ كثيرا من توابل الصدق والمحبة بعد أن اكتفى عما كان يفعله قبل ذلك، وراح يمد إحدى يديه للمصافحة فيما بقيت يده الأخرى معلقة على سترته ممسكة بها، فكان أن تلقفها الشيخ بإبراهيم بابتسامة مماثلة، تمتد من أقصى يمين وجهه إلى أقصى شماله «الحاج أحمد..» وكذلك رد سعيدا فرحا ممسكا بيد صديقه «هل أعتبرها زيارة خاصة أخرى، أم أن الأمر سيستغرق أكثر من مجرد البحث في مسألة دواء ما» هي طريقة أخرى من بين الطرق الكثيرة التي يمكن لعجوزين مقبلان على الموت _ كما قد أقرا بذلك نحو بعضهما _ أن يستقبل بها أحدهما الآخر.

فرك الحاج أحمد لحيته قليلا، مظهرا بعض الحزن المفتعل على وجهه، ولما انفلت من ذلك جعل عينيه تذبلان ورد قائلا «ها أنت ذا تحتقر مجيئي إليك مرة أخرى.. يا صديقي..أليس كذلك » وإنما كان هذا لأن قدوم الحاج أحمد إلى بساتين الشيخ إبراهيم يكون عادة طمعا في مقابلة علاء، لاستشارته في أمور العمل، فيما يتعلق بأسرار الاهتمام بالفاكهة، والسؤال عن بعض أنواع الأدوية أيضا، «حسنا أنا لم آت إلى هنا إلا لأنني قد اشتقت إلى رؤيتك، لكن إذا كنت قد وصلت إلى هنا سالما _ والحمد لله أنني لم أصل على غير هذه الحال _ فإنه وكما أحسب فلا ضير في أن أتحدث إلى فرخك الصغير

ذاك.. طبعا لا أعتقد أن هناك ضيرا، ذلك أنني قد هممت بالفعل في فعل ذلك» قال ذلك وهو يدس عينيه في الفتى الماكث غير بعيد عنهما، أما علاء فلم يكن قد أظهر أي اهتمام بما قد تحدثا به منذ مدا يديهما نحو بعضهما، فكان منكبا يداعب شعر رأس الكلبة المنصاعة عند قدميه في استمتاع بالغ، فيما كان الكلب يرقد بعيدا تحت ظل شجرة خفيضة، غير آبه بكل العالم.

وحين نطق علاء قائلا «هل سيستغرق الأمر أكثر من دقيقتين» فإنه لم يكن قد رفع رأسه وهو ينطق بها ، ذلك أنه يؤمن إيمانا كثيرا أن حيوانا ما يستحق أن نوجه له اهتماما أكبر مما يستحقه رجل ثري كسب ثراءه من أكل شحوم العمال الذين يعملون لحسابه واستحقارهم.

إن هذا الرجل الذي هو الآن يقف منتظرا مساعدة فتى في الثالثة والعشرين من عمره واستشارته في عدد من كراتين الدواء التي تملأ صندوق سيارته، قد سبق له وأن أدى رحلتين إلى بيت الله، بغية غسل عظامه وتطهيرها، ناهيك عن روحه، إلا أن ذلك يجد معه نفعا فيما يتعلق بمسألة تغيير عاداته على هذه الأرض، إن ذلك لم يساعده _ كحال العديد من الذاهبين _ على التخلص من جشعه، وطمعه وجوعه، وممارسة هوايته في جمع المال على حساب أجساد عماله، من خلال استغلالهم أقصى استغلال ممكن، وإتعابهم، وعدم ادخار أي جهد في فعل ذلك، ولا التخلص من تبجحه وغروره بالثراء، ولا حتى النزول إلى مكان خفيض بحيث أنه قد يدع شفتيه تتسعان

أفقيا في وجه أحد عماله البؤساء المتسخين بالطين والتراب، في أي ساعة من ساعات العمل الثمينة، لقد كان يصيح فيهم قائلا «لا تقم بالعطاس أثناء العمل.. وإن فعلت فلا تضع يدك على وجهك لتتلقف اللعاب ودعها تعمل طوال الوقت. طوال الست ساعات التي يجب عليها أن تعمل فيها»

تبعت الكلبة وأذنيها نازلتين، قدمي علاء نحو صندوق السيارة، ثم وجدت لنفسها مكانا لتنام فيه هناك بالأسفل، هروبا من أشعة الشمس الحارقة، وخلال دقيقة كامل ظلت وقائمتيها الأماميتين متصالبتين على التراب، تراقب بعينيها الكلبيتين نملة تحاول تحريك جثة دبور كبير وجرجرته بعيدا نحو مكان آخر، ولم يكن أحد _ أو كما يبدو_ قد انتبه لها، بعد أن أنهى علاء عمله بسرعة بحيث قدم إلى الحاج أحمد ما أراد سماعه وارتد عائدا. إلا لما أطلقت عواء مكتوما مغمورا بالألم تقطع مع تحرك عجلة السيارة عن ساقها.ألم سيتوجب عليها أن تتحمله لبضعة أيام قادمة، وهي تعرج على قوائمها الثلاثة السليمة.

وإن الحاج أحمد لو كان قرر المكوث أكثر من ذلك، إذن لكان عليه أن يسمع كل أنواع الشتائم الجديدة في هذا العالم، والتي لم تكن قد مضت سبعة ثوان على اختراعها، سبعة ثوان تلك التي استغرقها السلوقي للخروج من فراشه ثم الخروج من الغرفة ثم الوقف خلف الكلبة والانفجار صياحا بكل تلك الشتائم نحو المركبة المغادرة، فيما

هرع الكلب إلى زوجته وجعل يلعق ساقها وإن كان لا يملك أن يفعل غير ذلك.

منتصف النهار مع وقوف الشمس في الأعلى، قرر الصديقان أن يمنحا بعضهما حديثا قصيرا بداخل المركبة.

قال الشيخ إبراهيم بينما يعمل على جعل المركبة تلتفت حول منعطف حاد أزاحه قليلا عن مقعده أثناء طريق العودة «أتدري لم أتحمل الحاج أحمد حتى هذه اللحظة»

فرد علاء وعيناه مثبتتان على الفراغ أمامه «ربما لأنك لم ترغب في أن تتوقف عن تحمله حتى هذه اللحظة»

« لا» رد العجوز شاردا «لا.. الأمر لا يتعلق بتلك الديون يا علاء، حتى لقد قمت بالفعل بتسويتها معه منذ فترة قصيرة.. الأمر أصغر من ذلك، بل وبالغ الصغر.. بل وبحجم الفراغ الذي بين إصبعي هاذين.. هكذا» قال ذلك وهو يضيق بين سبابته وإبهامه فوق مقود السيارة، «الأمر يتعلق بطبق الحلزون الترابي المعد على موقد الحطب، والذي لم أكن لأجد شخصا غيره يمكن أن يشاركني ويستمتع به مثلي غيره.. أترى الآن إذن، الأمر لا يتعلق بكمية الأوراق النقدية التي يمكن فرشها في صندوق السيارة، بل يتعلق بهذا الكائن الصغير الذي يمكنه أن يملأ الفراغ بين أصبعي هاذين، وهو يتوجه هناك لأعلى، حيث يحدث كل شيء، قبل أن يصير إلى معدتي في الأسفل «

للحظات ظل علاء صامتا، دون أن يرد جوابا، لأن تلك الكائنات ليست شيئا من الطعام يمكن استظرافه، بالنسبة إليه أبدا، وظل مائلا على مقعد السيارة، على طريقته، لكنه حين تحدث بعد ذلك غمغم قائلا «إذن هل أخبرك بالمشكلة التي يواجهها !»

لطالما منحته المكانة التي حصل عليها لدى الشيخ إبراهيم القدرة على إنهاء أو خلق أي حديث في أي وقت وبالطريقة التي يريدها، حتى وقد باتت علاقتهما تماثل علاقة الأب والابن نحو بعضهما، الأب و الابن الغير مثاليين أبدا. ومع أن لكل واحد منهما طريقته في نقل أفكاره إلى الآخر إلا أنه لم يسبق وأن حدث بينهما خلال السنوات الأربع الفائتة التي ترافقا فيها داخل السيارة، منذ لقائهما الأول قبل أربع سنوات خلت ، أن تشاجرا حول شيء ما، ذلك أن الشيخ إبراهيم ما كان ليذهب ب «نعم و لا» خاصته في اتجاه يعاكس ذلك الذي ذهبت نحوه «نعم أولا» التي تخص علاء، وتلك إحدى المزايا التي يحصل عليها علاء كونه الساعد الأيمن الذي يتكأ عليه الشيخ إبراهيم ويستشيره في كل كبيرة وصغيرة قد تتعلق بالعمل.

إذن لقد أبدى العجوز اهتماما لهذا السؤال، حين ثبت أصابع يديه على المقود وراح ويتمايل معه يمنة ويسرة، قائلا «لا.. لم يخبرني.. إذن هل هي الفراشات مجددا !»

« أجل» رد علاء وهو ينزع قبعته عن رأسه ويطرحها أمامه على حجره «أعتقد أنه يواجه مشكلة حقيقية هذه المرة»

« لهذا طلب منك رؤية الأدوية ؟»

«أجل»

«وهل كانت جيدة !»

«ليس بما يكفي»

«أممم يتطلب الأمر صرف المزيد من النقود ليس إلا..»

«وكسر ساق كلبة..»

«تلك حماقة..»

«أجل..حماقة بالغة..»

إن ما حدث للكلبة في البستان قبل ذلك، لهو أذى متعمد أوقعه الحاج أحمد على ساقها مع سابق إصرار وترصد، فيرجع أصل الحكاية إلى يوم منعت فيه الكلبة الحاج أحمد عن النزول عن سيارته حين جاء لاستشارة علاء في أمر مماثل، قبل ثلاثة شهور مضت، يوم تحول فيه العجوز إلى أضحوكة بين عمال الشيخ إبراهيم الفقراء الأراذل الغارقين في الوسخ والتراب والعرق المتصبب من وجوههم، فكان أن وجدوا تلك فرصة ليس من الحكمة تفويتها لرد بعض اعتبار أصدقائهم والسخرية منه قليلا حين وقفوا ينظرون إليه وغارقين فالضحكات أيما غرق، ولقد كان لمشهد كلبة من العمر بحيث تعطلت أجهزة الإنجاب لديها وهي تجلس على قائمتيها الخلفيتين أمام باب السيارة ومنع رجل يمتلك عُشر أراضي متيجة الفلاحية ، سواء ملكية خاصة أو عن طريق عقود كراء سنوية، من فتح باب مركبته والترجل عنها، مشهدا

يبعث على الانفجار بكل تلك الضحكات بحق، ولأنه لم يكن قد تلقى إهانة شخصية منذ سنوات عديدة مضت، من أي مخلوق آخر، فإنه وحتى حينما آنسته أخيرا ومكنته من التجول على قائمتيه في البستان بحرية، دون أن تهتز عيناه لرؤيتها، فلم يكن قد سامحها على تلك الإهانة التي نالها منها، وظل يتحين الفرصة المناسبة للقيام بما ظل يؤمن بأنه التصرف الصحيح تجاه كائن لم تضع الطبيعة عقلا بداخل رأسه منذ الأزل.

إذن لقد وقف الحاج أحمد بزياراته الاثنتين إلى بيت الله، ينظر إلى الكلبة شزرا في انتظار أن تقتنع بأن حفرة بارة تقع خلف عجلة سيارة ستكون المكان الأنسب لأخذ قيلولة كلبية وتوفق إلى النوم فيها.

كانت هذه المرة الثانية التي يحضر فيها الحاج أحمد لاستشارة علاء هذه السنة، وتجدر الإشارة إلى أن المرة الثانية تعد رقما مهولا بالنظر إلى أن لا أحد من الملاك الآخرين قد يحصلون على مرة أولى، وبغيته من ذلك أن يشكو له ظهور اليرقانات اللعينة على جذوع أشجار التفاح خاصته، بعد أن تلقف خبر نجاة أشجار الشيخ إبراهيم دون البساتين الأخرى، وكان علاء قبل حادثة الكلبة، قد احتاج فقط لأربعة ثواني كانت كافية ليقلب إحدى علب الدواء الجديدة بين يديه ويتفحصها حين رفع رأسه بعدها قائلا «أجل يمكنك استعمالها..» دون الذهاب إلى أبعد من ذلك، وكان ذلك مجديا ليتخلص منه بسرعة ويعود إلى أشغاله.

كان ظهور مواد ذات دلالة كنشارة الخشب على الأشجار هو الشيء الذي قد يود علاء إيجاده بداية كل شباط، إذ أنه يعرف جيدا أنما هي إلا براز هذه الحشرات ومخلفات حفرها للأفرع اليابسة، حيث ترتكز خطورة اليرقانات في كونها قد تؤدي بأفعالها تلك إلى موت الشجرة موتا نهائيا، ناهيك عن إفساد ثمارها، لذا فإنه يسارع لفعل مثل ذلك ثم حرق كل الأطراف والأغصان التي يقوم بجمعها، ومن ثم سد الثقوب الباقية لمنع الفراشات من الخروج منها، أما ما يفقس منها فيقوم برشها بالمبيدات الحشرية حسب المنطقة، فإن كان في موضع عال من الشجرة ففي تموز، وإن كان منخفضا ففي حزيران، وبهذا سيكون قد أوقف المشكلة قبل حدوثها، على عكس باقي الملاك العديمي الخبرة والذين يكتفون بإيصال الماء إلى جذوع الأشجار حتى تظهر الثمار ويطيب لونها، ولا يهرعون لشراء المبيدات إلى عندما تطغى الفراشات على البساتين ويظهر أمرها للعيان واضحا جليا.

إذن الأمر ليس أمر مبيدات جيدة أو أقل جودة فقط، إنما أمر معرفة بأصل المشكلة ومن ثم كيفية الوقاية منها قبل حدوثها، وهذا الذي جعل الشيخ إبراهيم يدس هذه السنة والتي قبلها، كمية من النقود في خزانته لم يكن قد دس مثلها طول سنوات عديدة، على عكس الكثير من الملاك اللذين تجرعوا خسائر مرهقة، دفعت ببعضهم إلى بيع مركباتهم الفلاحية بغية تسديد ديونهم.. إذن فليس للشيخ إبراهيم أن يقول «لا أو نعم» ويقرر أمرا دون الرجوع إلى الفتى، في مثل هذه السن الصغيرة وبمعرفته الكبيرة بالعمل، فإن شهرته بين الملاك باتت

شيئا يمكن للحاج أحمد أن يستغله في جلساته مع أقرانه في العمل، إن هو وجد أنها فرصة مناسبة للحديث والتبجح بكونه قد حصل على مساعدة من هذا الفتى دون أن يضطر لدفع أي مبلغ لقاء ذلك، وإنما باستعمال قوة الحب والصداقة التي بينهما، فقط ليس إلا.

وإن كان علاء قد انتهى بالفعل من معالجة بساتين التفاح منذ فترة، فإن هذا اليوم قد يكون اليوم الأول الذي يبادر فيه الملاك الآخرون أمثال الحاج أحمد لفعل ذلك، وهو توقيت سيء بحيث سوف يؤدي بهم لاحقا إلى سب الطبيعة وتحميلها مسؤولية فساد محصولهم واتهامها بأنها تكرههم.

بالعودة إلى السيارة، كان الشيخ إبراهيم قد وجد أن قليلا من الضحك لن يتسبب في إيقاف قلبه بعد الانتهاء من الحديث عن الحقد الذي ظل صديقه يكنزه في قلبه تجاه الكلبة كل هذه المدة ، ولما انتهى من ذلك وتوقف جسده الرخو عن الاهتزاز خلف المقود، مال على المقعد ومكنه ذلك من أن يقود بأريحية أكثر وأن يغوص في أفكاره بعمق أكبر، كان قد ألقى بيده خارج النافذة حين غمغم قائلا «لقد كان يوما متعبا يا علاء.. ألا توافقني..» لكن الفتى كان قد دس عينيه داخل رأسه وانسجم مع كل ذلك الظلام الذي قد يراه أي شخص نائم. رأى العجوز ذلك حين التفت إليه ولم يكن قد تلقى جوابا.

كان يمكن دائما لنسمة أن تعتبر تلك المكانة التي حصل عليها علاء

عند والدها أمر يرجع إلى فشل والدتها المرحومة في إنجاب شيء آخر بعدها يمكنه أن يقوم على أعباء العائلة ومشاغلها خارج البيت بعد والدها، لكن بعض الأشياء التي أمكنها رؤيتها تحدث بينهما، قد تخطت _ كما أقرت هي لنفسها بذلك في عدة مناسبات مضت _ حدود ما يفترض أن يكون بين فتى يتيم ووالد لم ينجب ذكرا، حتى لقد كان يذهب الانزعاج بالشيخ إبراهيم أحيانا حين تهم بتوبيخ الفتى إلى إيقافها عن فعل ذلك بصيحة أبوية فيها من اللطافة ما يكفي، فتجد نفسها مضطرة إلى الاعتذار من والدها، فقط من أجل فتى غريب المظهر والتصرفات، وكثيرا ما يبدو غير مكترث لما يجري حوله، كأنما طلب الإذن للتحدث إليها شيء يجوز تجاوزه بتلك السهولة، وكأنما ارتداء ملابس مناسبة لكل فصل لا يعنيه من أي جانب، وكأنما الجلوس إلى أكثر من شخص واحد والقيام بحديث طويل متشعب ليس أمرا جائزا لديه، هذا الذي دخل حياة والدها فجأة فانقلبت رأسا على عقب، حتى أنها وأحيانا كثيرة ما تجدها تشعر بالغيرة اتجاهه بسبب سرقته لوالدها حين تراهما يغادران البيت معا، فلا تملك إلا أن تضرب الأرض بلطف وأن تغمغم بحنق قائلة «إن هذا المعتوه المتعجرف الأحمق لا يمكن أن يغدر بوالدي فيقتله ويسرقه جيبه على أية حال... لا محال أن يفعل هذا..»

والآن حين راحت عجلات السيارة تستقر على الأرضية المزفلتة أمام بوابة الجامعة، قال لها وهو يطل برأسه من النافذة «إذن كيف هي الجامعة هذا اليوم !»

«كالعادة.. الكثير من اللاشيء» ردت وهي تدخل السيارة ومالت برأسها على رأس المقعد الخلفي بكل ذلك اليأس البادي على وجهها.

فقال الشيخ إبراهيم مرة أخرى، محدقا عبر المرآة العلوية «وأنت لم تعودي تحبينها أيضا.. هذا أمر بات واضحا أكثر مما ينبغي..»

لم ترد كلاما، وأبعدت إحدى عينيها نحو الأخرى تماما حيث يحجب الزجاج عددا من الشباب الواقفين على مدخل الجامعة.

ونطق علاء موجها كلامه لقائد المركبة «أعتقد أن الوجه الشاحب الذي عليها لم يكن هو نفسه الذي استيقظ هذا الصباح وجاء معنا... هلا سألتها» قال ذلك وهو يبعد عينيه عن المرآة العلوية ليأخذ بهما نحو مكان غير ذلك، إذ أن المكان أصبح مزدحما في الأعلى حين نقلت عينيها الكبيرتين إلى هناك لما سمعت كلامه فجأة، وراحت تحدجه بتلك النظرة الأنثوية المتوعدة، بعينيها الجميلتين، وشفتيها الدقيقتين وغمازتيها المتباعدتين على طرفي وجهها .

إلى أن تنصلت من كل ذلك وقالت بشيء من الاختناق في داخلها «أخبر شارلوك هولمز خاصتك أن شيئا مما يخصني لا يعنيه إطلاقا.. وأن أفضل شيء يمكن أن يؤديه هذا اليوم هو أن يهتم بشؤون الخاصة، وبحشراته ال...» لكنها كفت عن ذلك، وعادت لتتهالك على المقعد مجددا، فنظر الوالد يمنة ويسرة، محتارا، فلم يجد شيئا

يمكن أن يقوم به ويكون أكثر حكمة من استعمال كلا ذراعيه في تدوير المقود و الضغط على دواسة الوقود لدفع هذا الوحش الأسود بعيدا عن مدخل الجامعة «إن شجاركما هذا لن ينتهي أبدا.. لن ينتهي.. سأغدو جرعة بترول تحت التراب ولن يكون قد انتهى..» قال العجوز تاركا ورائه حفنة من الدخان تبعثرت في الهواء بعدها.

عبرت السيارة بوابة خضراء ضخمة تقف وسط جدارين يمتدان عن يمين وشمال ويحيطان بمنزل أبيض فاخر. وسكنت عجلاتها على تراب ساحة البيت الواسعة، وفيما نزل الشيخ إبراهيم نحو إحدى عجلاتها التي فقدت شيئا من هوائها، كان علاء لا يزال شاردا في الفتاة يراقبها، وقد لاحظ مدى تعجلها في الخروج من علبة الصفيح هذه كما تحب أن تسميها، وأنها ليس بخير تماما كذاك الذي أخبرت به والدها، إذ أنها قد شدت وجه حقيبتها وجذبتها إليها وهي تخرج من السيارة بعنف واضطراب زاد الأمر توكيدا، فكتم الأمر في نفسه ولم يشأ أن يحدث والدها عن ذلك.

حين اتضح أن السيارة لن تساعدهم على النزول إلى الحقول صباح الغد بساق متورمة، ضغط علاء زرا على الجدار فارتفعت بوابة المراب بتلقائية. دخل بعدها ليأخذ عدة تساعده في تبديل العجلة، لكنه وقف في مكانه ساكنا حين رفع صندوقا ثقيلا من الصفيح كان على الأرض في الزاوية وراح يحدق إلى لحاف أبيض كبير يخفي شيئا ما تحته.. للحظات ظل على حاله واقفا يحدق فيه، ثم دنى منه خطوتين

وحمل يده حتى وضعها عليه وسكن هادئا. كأنما يتلقى من ذلك الشيء المخبئ تحت اللحاف طاقة روحية وهو يتأملها.

فيما ظل الشيخ إبراهيم بدوره وهو يقف عند السيارة في الخارج يراقب كل ذلك في نظرة وصمت كالذي كان واقعا بالفتى.

ولقد كانت نسمة تعلم أنما تلك _ وحتى لو أنه لم يكن يسمح لها بالاقتراب منها _ هي السيارة التي تحطمت في ذلك الحادث الذي أرقد والدها على سرير المستشفى، طوال ثلاثة أيام بكامل صباحاتها ومسائاتها ولياليها، قبل أن تتمكن من الدخول إليه ومعانقته عناقا مبكيا بما يكفي لتهدأ نفسها شيئا يسيرا، كان ذلك قبل أربع سنوات مضت، ولم تكن وهي تبكي على صدر والدها الجريح وخلال عشر دقائق كاملة أن لاحظت أن شخصا آخر كان يشاركه الغرفة.

ولو أنها قد رفعت بصرها نحوه والتفتت إليه في لحظة ما رافقت شرودها وحزنها، إذن لما استطاعت أن تميز وجهه أيضا، بسبب من الضمادات البيضاء التي كانت تغطي وجهه. وكان قد مر ثلاثة أسابيع على وقوع الحادث حين دلف الشيخ إبراهيم ذات صباح إلى البيت يقود سيارة أخرى، أكبر وأجمل وأكثر تحملا للصدمات فيما يبدو، ليتمكن من الدخول إلى حقول متيجة والخروج منها، وقد وافق انضمام السيارة الجديدة إلى العائلة، ظهور هذا الفتى الغريب معها، والذي لم تكن نسمة قد استساغت رؤيته بعد ذلك، ولم تكد تصدق أنها تراه يدخل البيت للمرة الرابعة، حتى وجدت أن تسأل والدها

وبحضور الفتى، إن كان لا يزال محتفظا بعنوان الشخص الذي ابتاع منه السيارة، كي يعيد له هذه التميمة التي جاءت معها وباتت ترافق والدها أينما يذهب وتدخل البيت في حرية تشبه أن تكون تلك التي يتمتع بها أصحاب البيت أنفسهم.. ولم يكن علاء ليرد على كلامها، إنما ظل واقفا عند الباب يحدق فيها ببرود كاد يفقدها أعصابها، فكان أن ركلت أرضية الرواق وراحت تصعد السلم في سخط بالغ، أما الشيخ إبراهيم ووسط ذلك النزاع فقط وضع يده على جبينه فيما حرك رأسه من الصداع ولم يذهب إلى أبعد من ذلك.

بعد ذلك رأتهما يدخلان سيارة محطمة إلى المراب فلم تستسغ التحديق فيها، كانت آثار الدماء لا تزال عليها، بزجاجها المفروم وهيكلها الغريب الذي تشوه عن آخره، قامت مركبة القطر بتركها هناك وغادرت بسرعة، وجاء الشيخ إبراهيم بعد ذلك بلحاف أبيض من الداخل فأخذه علاء عن يده بينما وقف ينظر إلى كتلة الصفيح المتروكة أمامه، بكل الحطام والزجاج والدماء التي عليها، وضع اللحاف عليها برمية تشبه أن تكون رمية صياد يلقي شباكه في البحر و غطاها بالكامل.

بعد ذلك رأتهما يركبان السيارة الجديدة ويغادران فناء البيت في صمت بالغ.. حينها أدركت يقينا أن هذا الفتى سيمكث طويلا في حياتها، وأنها فقدت مكانها على المقعد الأمامي للسيارة.

وها هو علاء يقف الآن عندها مجددا يتفرسها بتلك النظرات

الساقطة التي اعتادها دوما، كشجرة أرز باردة وقف ينظر إليها للحظات مرت بطيئة، لكنه فطن بعد ذلك وخرج من المرآب يحمل عدته وانحنى إلى عجلة السيارة وأخذ يعالجها لنصف ساعة، فيما وقف الشيخ إبراهيم على رأسه _ وما كان له أن يفعل غير ذلك إذ أن مداواة ساق مطاطية لم يعد من الصلاحيات التي بات جسده المريض قادرا عليها _ شارد الذهن كأن طيرا حطت على رأسه، وفي الحقيقة لم يكن شيء قد أخذ بفكره غير أمر تلك السيارة المحطمة والأفكار التي تبعت ذلك وتبودرت إلى ذهنهما.

ذلك وارتمت نسمة على سريرها المفروش بالبياض حين دخلت غرفتها مباشرة وغطت في نوم عميق بعد أن بللت وسادتها بعبرات ساخنة تألمت وهي تطرحها.

-2-

بينما كانت السحب في الأعلى تميل في بطئ شديد إلى الجهة الأخرى، راحت شمسنا في هدوء مماثل تميل إلى مغربها، تاركة ورائها بقايا حمراء مرشوشة على السقف المائل للسواد في بديع رسمة إلاهية.

بعد كل ساعات النوم تلك، وبعد أن غسلت نسمة وجهها لتستيقظ ما استطاعت، وقفت على الشرفة تطل بصدرها الطري ووجها اللبني الأبيض، كمزهرية مال وردها نحو الأسفل، هناك إلى الحديقة، حيث كانت امرأة مدورة، ترتدي عباءة حمراء نظيفة تربطها بخيط عند خصرها فيما تتحرك جيئة وذهابا خلف أوراق شجرة التوت وهي تغني غناء لذيذا وشاردة الذهن في ما لا يمكن لأحد من الخلق الذهاب إليه ولو صدفة.

« بل هي عذراء... عذراء جدا... إلى حد بعيد لا يمكن تصوره» كذلك رد الشيخ إبراهيم على سؤال طرحه علاء في أحد الأيام عنها،

ذلك أنها ومع وقوفها على أربعين خريفا من خريفات هذا العالم، لم تكن يديها السمينتين لامستا أيدي رجال أكثر من عدد ساقيها السمينتين اللتان تستعملها اللحظة في مجاراة أوراق شجرة التوت الهاربة على أرضية الحديقة.

كانت المرة الأولى التي لامست فيها يدها يد رجل _ كما لا يمكن أن تنسى _ حين شدت يدها الرقيقة يد رجل عجوز وهو يقوم بجرها خلف بوابة الميتم، هناك حيث كانت مركبة بهية تقف على الرصيف في انتظارها، وحيث تم تحميلها عليها والذهاب بها بعيدا إلى وجهة لا تعلمها، ودون أن يكون لها رأي في الأمر ،وهي التي لم تكن قد بلغت سن الخامسة عشرة من عمرها حين تمت إحالتها إلى مدبرة منزل يافعة.

وحتى بعد مضي ثلاثة أشهر في بيتها الجديد، لم تكن قد نسيت ذلك العجوز الذي تربت علي يديه في الميتم كما أراد لها سيدها الجديد أن تنساه، لكن عندما جاء هذا السيد في يوم قريب من تلك الأيام وأخبرها أن روح العجوز قد مالت إلى الجهة الأخرى، فإنها لم تؤدي عملا غير الذي كان متوقعا منها، لقد حدقت إليه للحظات قليلة جدا، قبل أن تخفض رأسها وتعود لجمع الصحون من على طاولة الطعام .

وأما اليد الثانية فإنها لا تزال _ حتى هذه اللحظة _ على قيد الحياة، حتى أنها تقوم موازاة مع تحريك المرأة للمكنسة بتحريك

قطع الداما _ أو الجراء كما يفضل أن تسمى _ فوق الطاولة على بعد أمتار قليلة بداخل إحدى غرف البيت الذي تقوم على تنظيف حديقته. وكان ذلك إحدى الأخطاء التي صمم الشيخ إبراهيم على عدم تكرارها فيما بقي من حياته _ إن كان سيبقى فيها _ منذ شهد تلك النظرة التي اعترت وجه خادمته نحوه حين اخطأ في تسليمها مفتاح غرفتها، ودون أن يبحث في الأمر أكثر قال لها «آمل أن نشكل معا عائلة طيبة..» واستدار هاربا إلى شؤونه الخاصة، وكان الجزء الثاني من الجواب الذي رد به على علاء حين سأله عنها يحتوي على «لا بد وأنها تعاني من وسواس تجاه جلد الرجل.. لا بد من ذلك.. وإلا لقد كادت أن تهم بتحويط رقبتي بيديها وخنقي ، لو لم أهرب منها في تلك اللحظة».

تركت نسمة الشرفة وعادت لتقف أمام المرآة، حدقت إليها طويلا، إلى أن انتهت من معاينة عينيها الباكيتين، ثم غطت بعض وجهها بشيء من البودرة الضبابية، ومررت أحمر الشفاه تمريرا خفيفا على شفتيها، ثم مسدت شعرها قليلا وأطلقته حرا على كتفيها.

دفعت الدرج إلى مكانه وقامت تخرج من الغرفة، وكان بها شيء من التوتر والانزعاج حاولت إخفاءه مع كل خطوة كانت تخطوها نزولا على الأدراج نحو الأسفل، لكن علاء كان قادرا على رؤيتها، وهو يقف هناك في الأسفل يتطلع إليها، إلى كل الجمال والبهاء الذي عليها، مرتدية سروالا أبيضا محكما وقميصا فضفاضا بلون الزهور الوردية،

نزلت ويدها تنزلق على درابزون السلم دون أن ترفع رأسها، لقد كان قادرا على رؤية التوتر الذي استطاعت إخفاءه مع آخر خطوة خطتها حين وقفت أمامه تحدق إليه مدهوشة.

« لماذا تحدق فيا هكذا..» قالت وهي تبعد بعضا من خصلات شعرها عن عينيها.

لكنه ظل صامتا يحدق فيها، متخشبا، إلى أن قال فجأة ودون أن تتحرك في وجهه عظمة واحدة «هل يمكن لأنني معجب بك مثلا.. «، و ظلا بعد ذلك يحدقان إلى بعضهما لفترة من الزمن انتهت بظهور الشيخ إبراهيم في الوسط، حين صاح فيهما قائلا» أووووه هل عدنا مجددا .. أرى غمامة سوداء وبرقا أبيضا يتطاير هناك في الأعلى فوقكما..» قال ذلك وهو يتقدم نحوهما مشيرا بإصبعه في الموضع، كأنما ليقطع شرارة كهرباء كانت توصل بين عيونهما المتصلبة «هيا بنا.. هيا لقد تأخرنا بما يكفي» كذلك تم فض هذا اللقاء بسرعة بالغة.

كان هذا مساء الخميس كما يبدو، وهو يوم اعتاد فيه الشيخ إبراهيم أن يأخذ صغاره الثلاثة لقضاء المساء في أحد أجمل المنتزهات الليلية بالعاصمة، للحديث والترويح عن النفس بعيدا عن أيام الأسبوع المتعبة.

في الطريق نحو القصبة، بدا الشيخ إبراهيم مبتهجا فرحا وهو يتمايل

مع مقود السيارة في انسيابية بالغة، حتى لقد كان يدندن أغنيات قديمة ولدت قبل أكبر صغاره بزمن، وكذلك بدت الأمور جيدة على المقعد الذي بجواره، إذ أن علاء وبما كان يفعله بين يديه، قد بدا أن لا شيء سوف يمكن أن يفسد مساءه في هذه الدنيا.

أما في المقاعد الخلفية، حيث كانت نسمة قد فقدت قدرتها على التحمل أكثر، و توقفت عن الكتابة على شاشة هاتفها، فقد نقلت بصرها إلى المرآة العلوية فيما علت وجهها سحنة غضب لطيفة جدا وقالت «هلا أخبرت تميمتك يا أبي أن صوتا مزعجا يصدر منها.. ليس بمقدوري تحمله»، هنا التفت الشيخ إبراهيم إليها، والتقت نظراتهما على المرآة منذ غادرا البيت لأول مرة، راقبها قليلا ثم نقل بصره إلى يمينه مرة أخرى، وكان علاء غارقا فيما يفعله، غير مبال بكلامها، وقد اشتغلت إحدى يديه بالتنقل من حجره إلى فمه ومن فمه إلى حجره جيئة وذهابا دون توقف، محملة بحبة فصفص سليمة تارة نحو الأعلى، وعائدة بقشورها المكسورة نحو الأسفل تارة أخرى، لاحظ الشيخ إبراهيم كم أن علاء مستمع بما يفعل، فكتم ضحكته وحال دون انفجارها، وقال له «هل سمعت ما قالته الآنسة.. تقول أنها تشعر بالانزعاج مما تفعله»

فرد علاء قائلا «أجل..»

«أجل طبعا.. وهذا ما خلته أنا أيضا» غمم العجوز وهو يعيد عينيه إلى الطريق مجددا.

« أخبرها أن هذا لا يزعجني..» ردد علاء من خلفه.

هنا نظر الشيخ إبراهيم إلى المرآة في الأعلى مرة أخرى، فرأى عيني ابنته الجميلتين تحدقان بغضب إلى الموضع عن يمينه «يقول هذا الشاب الوسيم بجانبي أن...» لكنه توقف عن فعل ذلك، إذ أنه كان قادرا بعد ذلك على رؤيته ابنته وهي تميل على ظهر مقعدها، فيما تضع السماعتين في أذنيها بانزعاج واضح.

« هل بقي شيء من هذا الفصفص !!» وكان أن التفت إلى علاء قائلا.

«أجل.. بما يكفي»

بعد ذلك أصبحت قشور الفصفص تتطاير عن يمين السيارة وعن شمالها، فيما علت وجوه الرجلين تبسمات كبيرة.

وهناك في البيت الآخر، كانت العمة عائشة قد أنهت إعداد الصغير لؤي، بعد أن مشطت شعره بشكل لطيف إلى الجانب الأيمن، حين وقفت تحدق إليه طويلا، إلى عينيه العسليتين كيف تبرقان كأنما لتتفقد زجاج نافذة قامت بمسحها، وإن كان بقي فيهما أثرا، وبعد أن طبعت على جبينه قبلة لم يحبها، سارت إلى جانبه حتى باب البيت.

هناك التقت عيناه بعيني أخيه وهو يهم بالدخول حاملا شيئا

من حاجات البيت في يديه فوقف علاء بعدها يحدق فوق رأس أخيه الصغير إلى عجوز أبيض اللون يجلس على كرسي خشبي وظهره مسند إلى الجدار في مواجهة نافورة المياه اليابسة أمامه، فنحنح نحو العمة عائشة قائلا بصوت خافت «هل هو بخير..».

نظرت إليه العمة بدورها، وكان عبوس شديد وسحنة حزن قد هربت إلى وجهها الذائب حين غمغمت قائلة «إن كان الجلوس هناك طوال النهار، وعدم فعل أي شيء يعد خيرا.. فإنه بخير حتما..» وبعد لحظة صمت أردفت «الأمر يزداد سوءا يا ولدي.. يقول إنه لم يعد يقدر على أن يرى أكثر من بقعة ضوء بحجم رأس الإبرة..»

ناولها الأكياس التي كانت بيده وتقدم نحو العجوز بخطوات هادئة، انحنى أمامه ووضع يده على العصا في موضع تحت يد العجوز وقال «كيف حال آلتنا المعطلة..»، وكانت رقبة العجوز لا تزال ممدودة نحو الأمام وعيناه الدامعتان تحدقان إلى الفراغ أمامه حين حشرج قائلا «هل أحضرت الكوسة..»

«أجل..»

«أهي جيدة !..»

«مكتوب عليها.. لفاقدي الأسنان خصيصا ..»

ضحك العجوز متألما وقال «ستكون حياتي أطول إن نجحت في

البقاء حتى تنضج..»

«لماذا..هل تعتقد أنك ستموت قريبا..»

« وجهك من يقول ذلك..»

«وجهي لا يقول أي شيء.. حتى كيف أن لك تعرف ذلك وأنت لا تستطيع الرؤية»

وبدا أن العجوز يريد أن ينتهي من كل ذلك حين قال مبتعدا برأسه إلى الوراء «أبعد يدك عن عصاي وكف عن هذه الأسئلة..»

كان العجوز في جلسته تلك على كرسي الخشب الخفيض خاصته، يشبه بالونا مفرغا من الهواء كان قد ضل منفوخا لمدة طويلة، لا يكف عن فعل شيئين اثنين دونما توقف، فأما الأول فإنه لا يتوقف _ إلا أثناء الحديث _ عن تبديل كرات المسبحة بين أصابع يديه اليمنى في احترافية وخشوع بالغ، وأما الثاني فكونه لا يتوقف بتاتا عن جعل فمه المهدم تهديما كاملا كمغارة مهجورة عن العمل باستمرار، ودون توقف كأنما يحاول بذلك جاهدا أن يمضغ شفتيه دون أن يتمكن من الانتهاء منهما.

وعلى ذلك قال العجوز حين فطن من شروده وراح يرفع مسبحته كأنما يبحث عن شيء ما في الفراغ أمامه «هل أنت لا تزال هنا..»

وحين رد علاء إيجابا، مسح العجوز _ بعد أن وجد ما كان يبحث

عنه _ على رأسه، كأنما ليباركه، وغمغم قائلا «اذهب الآن إلى مكان آخر، ولا تقف هنا أمامي هكذا.. دعني أستغفر الله قليلا..هيا»، حتى العجوز كان كتوما، يختصر مشاعره في كلمة واحدة.

كذلك ترك علاء العجوز على حاله، وهم بمغادرة البيت حين أوقفته العمة عائشة، كأنما كانت تنتظر طبيبا دخل ليكشف عليه «هل سيكون بخير يا ولدي.. كيف تراه يبدو»، فأجابها علاء قائلا «كرجل.. يبدو كرجل كبير السن جدا» قال ذلك ثم خطى خلف العتبة، أعاد قطعة الخشب الكبيرة إلى مكانها، ومضى ينزل الأدراج نحو الأسفل.

بداخل السيارة، وعلى المقاعد الخلفية، المغطاة بأفخر أنواع جلود المقاعد، كان حديث صغير يدور بين إحدى أجمل فتيات المدينة، وبين أجمل فتى فيها _ كما قد سمع لؤي ذلك يقال عنه مرارا _ حين نظرت إليه نسمة بتمعن وقالت بحماس مفرط «وأخيرا يمكنني أن أتحدث إلى رجل مريح، خفيف الظل ووسيم جدا»، وهنا تدخل العجوز الجالس في المقدمة قائلا «وماذا عني ألست وسيما..»

فقالت نسمة وقد خفت نبرة صوتها «يوجد مركز ثاني، وهو شاغر أيضا..»

فتدخل الصغير قائلا، وكانت عيناه تلمعان وهو ينظر إليها «وماذا عن أخي.إنه أكثر مني وسامة..»

وهمت نسمة بأن تنفي ذلك الكلام نفيا قاطعا حين ظهر علاء فجأة، وضع يده على القفل ثم كان يجلس في المقدمة.

« هل كل شيء على ما يرام..؟» قال إذ بدا له أن أحمر شفاه فتاة ما قد علق على وجهه _ دون أن يدري _ حين رآهم يحدقون فيه بتلك الطريقة.

وحين تنصلوا من ذلك، قالت نسمة بشيء من الحيوية «حسنا لقد وصلت تميمة حظنا.. فلتهتم كل منطقة بشأنها من الآن فصاعدا.. لن نتحدث إليهما وهما لن يتحدثا إلينا... أليس كذلك أيها الصغير الوسيم جدا جدا جدا» قالت ذلك وهي تشد وجنتي الصغير بلطف بأصابع يديها، وكذلك ربط كل حزامه واندفعت المركبة بعيدا تاركة ورائها شريطين أسودين بطول ثلاثة أمتار على الأرض المزفلتة.

لم تكن غابة بن عكنون مكتظة بذلك العدد من الناس الذي كانوا يخشونه، ولا كانت فارغة بشكل ممل أيضا، كانت مصابيح الإنارة المعلقة في الأعلى تنير وتبعد الظلام خلف الأشجار والغياهب البعيدة، وأما الأشجار فكان الهواء فوق، يتلاعب بأعاليها في اتجاهات شتى، وحيث كانت أرضية الغابة خضراء يغطيها بساط من العشب المعتنى به خصيصا، ليكون ساحة لعب واسعة للأطفال ومكانا حيث يمكن للعائلات الهروب إليه من جدران المطبخ وتناول عشاء لطيف تحدوه روح الطبيعة، تحت تيارات الهواء المداعبة، كانت الأرضية تميل بزاوية نحو الأسفل، هناك حيث كانت مدينة

ألعاب صغيرة تقف تحت أضواء الأعمدة المحيطة بها، تسارعت إليها وجوه الأطفال من كل ناحية ممكنة، ولم يكن لأي أب أن يمنع ابنه عن تجربة إحدى ألعابها البهيجة، وكانت هناك تلك الموسيقى والأناشيد الصاخبة ترتفع من الوسط، وتبعث في نفوس الصغار شيئا من الحماسة للمبالغة في ما يفعلونه.

كان هنالك قطار يدور في حلقة مغلقة، وعدد من الخيول الصناعية تتموج خلف بعضها في حلقة دائرية أيضا، ومكان للقفز وآخر للتسلق وأشياء أخرى، كل ذلك لم يفد شيئا في جذب الصغير لؤي إليها، حتى لم يكن ينظر إلى تلك الألعاب إلى باحتقار أو لا مبالاة بها، في سنه التي لم تتجاوز الثامنة بعد، كان يبدوا كرجل كبير لديه أولوياته، وظلت نسمة وهم جلوس هناك في الأعلى تداعب شعره الحريري بيدها، وكل قد بسط ساقيه على العشب وانزوى بداخل عقله يفكر في أمر ما.

وبعد نحنحة سريعة أطلقها العجوز فجأة، قال بعدها «إذن يا أولاد.. هل منكم من يرغب في بعض المثلجات !»

فكانت نسمة أول من أبدى اهتمامه بالفكرة حين علقت بحماس قائلة» ليكن أنا «، فيما رفع لؤي يده فوق كتفه موافقا، دون أن يحرك عينيه عن البلدة الوضاءة الصغيرة، الواقعة هناك في الأسفل ، أما علاء فلم يكن ليأتي بأي رد فعل لأمر كهذا.

قام الشيخ إبراهيم عن مكانه وراح ينظف يديه عبر حكهما إلى بعضهما، ثم قال بمجرد انتهائه من فعل ذلك «من يرافقني إذن.. نسمة !»

« لا.. لا أبدا» ردت قائلة «أفضل شيء يمكنني أن أساعد به الآن هو أن أظل جالسة هنا، دون فعل أي شيء آخر» قالت ذلك وعدلت جلستها لتناسب شخصا يوشك أن يحضا بشيء لتناوله.

فكرر العجوز طلبه «أممم علاء..»

وإذ لم يبعد علاء عينيه عن مكان ما هناك في الأسفل «حسنا.. طبعا، أنت لن تفعل» فقد قال العجوز هذا والتفت إلى آخر واحد منهم، والذي حتما كان الأمر قد بقي عليه دون أن يكون له رأي في ذلك.

راحت عيونهما الأربعة تلاحقهما وهما ينحدران جنبا إلى جنب نحو ماكينة المثلجات في الأسفل.

نسمة وهي على تلك الجلسة تضع ذقنيها على ركبتيها فيما تحدق إليهما بصمت بالغ، كانت غمامة من الأفكار الليلة تولي راجعة حين أتاها صوت من جانبها مغمغما «هذا الأمر الذي أزعجك هكذا.. وجعلك تبكين أيضا كما يبدو ذلك واضحا من عينيك.. إنك لم تخبري به والدك حتى، أليس كذلك»

أمالت نسمة رأسها قليلا نحوه، تفقدته، ثم وبانزعاج ردت رأسها إلى مكانه فوق ركبتيها المشدودتين إلى صدرها وقالت «كنت أخبرته لو علمت أن ذلك سيساعد في شيء..» ولما أنهت ذلك حركت عينها نحو الأسفل وجعلت تبقيهما على العشب عند قدميها في شرود واضح.

فقال علاء وقد استدار جزءه العلوي نحوها شيئا يسيرا بعدما كان يمد ساقيه على العشب في ارتياح بالغ، لقد قال بنبرة هادئة «أنظري يا صغيرة..وأنا أيضا لست مهووسا بالحديث إليك كثيرا، لكن إن كنت تخفين شيئا.. وإن كان شيئا لا ينبغي على والدك أن يعرف بأمره ، فسوف يسمع به في وقت ما لاحقا، ولن يكون سعيدا بذلك.. أقول لك، إنك لن ترغبي أبدا برؤية وجه والدك وهو يتلقى المفاجئات السيئة «

وحين رفعت رأسها مسرعة «لماذا..» قالت ذلك وهي تحدجه بنظرة قاسية.

« لأنه لا يحب المفاجئات السيئة..»

« هل تحاول أن تخبرني عن والدي ! أو كيف ينبغي علي أن أتصرف معه، أو أي شيء من هذا...ثم ما أدراك بما يحصل معي حتى..»

بعد نظرة صمت طويلة ألقاها علاء على الأرض عند قدميه، قام بعدها يدس يده في جيبه فيما رفع ثلاثة أصابع من يده الأخرى قائلا

«هنالك ثلاثة أشياء الآن تشغلني» وراح يعدها فيما لا يزال يحدق بعيدا بين الأرض والسماء المظلمة «أولها أنني سأكتشف هذا الأمر قريبا جدا.. والثاني أن السلوقي في هذه اللحظة يقوم بحفر حفرة عند المدخل الذي يهرب منه اللص عادة.. وأما الثالث فإن الغيوم بدأت تأتي هناك في الأعلى، وسوف تمطر بعد ساعات قليلة، والمطر في متيجة يعني فرصا جيدة لسرقة الفاكهة، لهذا يحفر السلوقي حفرته أملا في أن يضع غريمه إحدى ساقيه على الشيء الذي سوف يضعه بداخلها بعد ذلك..» وهنا قاطعته نسمة إذ كاد يجن جنونها» من هذا السلوقي الذي تتحدث عنه الآن، هل أنت تهذي أم ماذا؟»، فقال علاء وهو ينزل يده إلى مكانها، وقد شدت ابتسامة خبيثة شفتيه عن بعضهما «لا شيء أيتها الجميلة.. دعك من ذلك.. الآن ينبغي أن أجد شيئا لأشربه بعد كل هذا الكلام الذي قلته» قال ذلك، وتحرك يمشي نحو الأسفل، ولشد ما كانت نسمة غاضبة من طريقة حديثه معها، لقد أرادت أن تشده من شعره الكثيف وأن توجعه بشدة، لأنها بعدما رأت على وجهه تلك الابتسامة قبل أن يغادرها، أدركت يقينا أنما أراد من كلامه ذاك أن يثير أعصابها، ويجعلها تدور في دوامة من الأفكار المتلاطمة، عن كشف ما يزعجها، وعن هذا الذي يدعوه بالسلوقي وعن سقوط الأمطار لاحقا، كأنما ليفسد عليها الأمسية، لكن دون أن تفهم لذلك سببا.

بينما يتناول الثلاثة المثلجات وهم جلوس إلى بعضهم، فضل علاء أن يقف على بعد أمتار منهم، أمام شجرة قريبة، وكان ثمة بالقرب منه

كرسي طويل يتسع لعدة مؤخرات في وقت واحد، ولم يشأ أن يجلس عليه حينها، إنما ظل واقفا يحمل بيده كوبا كرتونيا به شاي ساخن، كجنتل مان حقيقي وقف هناك يحتسي شرابه بين لحظة وأخرى، فيما يحدق بعينيه الساطعتين إلى فضاءات الغابة المظلمة، وألوانها، وصراخ الأطفال وضحكات العائلات وملاعبة الرياح لكل شيء تقدر غلى تحريكه ولو شيئا يسيرا.

وحين لاحظ أن أقداما تتجه نحوه من خلفه، فقد كانت تلك أقداما صغيرة راح يجرجرها شقيقه لؤي شيئا فشيئا حتى دنى إليه، وجعلا يجلسان على المقعد بجانب بعضهما، فيما بقي الأب وابنته على العشب جالسين يتبادلان الحديث فيما بينهما والظلام يحوط كل شيء وحولهم.

قال علاء لما أن لاحظ شيئا ما على وجه شقيقه أثار اهتمامه «لكنك ترغب في قول شيء ما.. فهل ستظل صامتا أكثر من ذلك»

« أجل..» رد الصغير محمر الوجنتين من البرد ولم يكن قد رفع رأسه عن الأرض كأن به حزنا، ثم ما لبث أن أضاف قائلا بينما إحدى يديه تعبث بأصابع يده الأخرى «لكنك شخص طيب جدا...»

« يعني..»

«لماذا ينبغي عليك أن ترحل بهذه السرعة مثلما..» هنا توقف علاء عن احتساء آخر رشفة في الكوب وأنزل يده نحو الأسفل وقال منفعلا

«وهل تعتقد أن والدينا لم يكونا طيبين حين رحلا عنا..»

« لا أدري بشأن هذا... لا أتذكر أي شيء عن أمي، أما أبي فلا أتذكر عنه بما يكفي..»

« وهل تعتقد أن الذين يمتلكون قلوبا سيئة، هم من عليم أن يرحلوا أولا ! «

« أجل..»

« كي يبقى الجيدون فقط في هذا العالم !..»

« أجل..»

« حسنا.. لا أدري حقا بما أجيبك عن هذا.. لكن الأمر لا يتم هكذا.. ربما يشبه ما يحدث في بساتين الفاكهة.. مثلما تحتاج الأشجار الجيدة دوما إلى نباتات سيئة كي تحميها من نفسها..اعتقد أن هذا العالم لو احتوى على أناس جيدين فقط فلن يكون الأمر جميلا..»

« لماذا..»

« لأنه حينها لن يكون هنالك أي مغزى من وجودنا هنا..»

بعد لحظة صمت خيمت على المكان قال الصغير بعدها «أخي !..»

«نعم «

« تقول نسمة أنك بارد مثل الخريف من الداخل..»

« أتقول ذلك حقا !..»

« أجل.. «

« وما رأيك أنت..»

« أنا !..»

« أجل أنت..»

هنا علق الصغير عينيه بعيني أخيه، وحيث بدا دمع يتلألأ فيهما قال كأنما باكيا «أرى أن الخريف يحمل الفراق حين يأتي ليسقط الأوراق عن الأشجار الكبيرة.. وأنت سوف..» لكن يدين دافئتين لملمتا جسده الصغير إليهما، وبحنان أخوي اندس الصغير في حضن أخيه يبكي بصمت كرجل كبير لا يريد أن يسمع صوته.

نجوم لامعة، براقة، تظهر حينا وتختفي آخر، كانت تلك التي تزين صفحة السماء المظلمة في الأعلى ، ونسيم بارد ذاك ظل يرشح وجوههم المسنودة على العشب نحو الأعلى، وكان شعر الفتاة يتطاير بين لحظة وأخرى فوق عينيها، فتجد نفسها مضطرة لرفع يدها عن العشب وإعادته تحت رأسها، أما الصغير لؤي فكان يتوسد يديه بسعادة، فيما يرفع إحدى ركبتيه فوق الأخرى، بينما رقد الرجلان جنب بعضهما، وكل قد صالب يديه فوق صدره كميتين لم تغلق أعينهما.

« هي قدرة ربنا تتجلى نهارا في صورة، وليلا في صورة أخرى.. أجل، إن الأمر هكذا.. الكثير من الجمال موجود هناك في الأعلى، حتى كأنك ترى السماء كل ليلة للمرة الأولى..» قال العجوز هذا، فيما ضغط بذراعيه المتصالبتين بقوة أكبر نحو بعضهما من شدة البرد الذي دخل عظامه العجائزية.

فكان رد ابنته أن قالت «سأرفع يدي موافقة على أن نبيت الليلة على هذه الحال هنا، إن حصل اقتراع بشأن هذا..» قالت ذلك فيما يداها ممدودتان على العشب طولا و ركبتاها ترتفعان نحو الأعلى.

وقال الصغير بعدها «أحب أن أشاهد القمر.. أليس أجمل شيء في السماء يا عم إبراهيم، هل توافقني..»

« أجل..» غمغم العجوز رافعا عنقه بكل ما استطاعه «بل أوافقك بشدة، وهذا الرجل هنا بجانبي يوافقنا أيضا.. أليس كذلك؟» ولما أنهى كلامه أعاد إسقاط رأسه على العشب بعدما ألقى تلك النظرة.

فكان أن نطق علاء قائلا «تجمعت سحب بما يكفي في الأعلى.. سوف تمطر بعد نصف ساعة..» قال ذلك وأغمض عينيه بهدوء بالغ، كأنما تم تخديره في مستشفى، كذلك غابت عيون الجميع في سماء مقمرة مرصعة بنجوم ظلت تنطفئ خلف كتل من الغمام ظل الريح يسحبها معه إلى صفحة السماء الواسعة وانتهت سهرتهم على ذلك.

-3-

مر نهار الجمعة ماطرا كما مر ليله أيضا، لذا كان الاختباء في البيت أحسن شيء يمكن القيام به ذلك اليوم، لكن مع قدوم المساء بدأت السحب البيضاء في الأعلى تنسحب شيئا فشيئا عائدة، كاشفة عن سماء المدينة، فمر الليل باردا سريعا، إلى أن بزغ فجر السبت بعدها.

أوصل الشيخ إبراهيم علاء إلى الحقول وعاد أدراجه بالمركبة، وبعد ساعتين أي عند التاسعة تماما كان يزحف صاعدا أدراج سلم ترتفع لأعلى نحو الطابق الرابع داخل عمارة يسكنها أناس طيبون جدا لا يفعلون شيئا سوى المكوث خلف مكاتبهم وإخبار الناس كم أن الموت يبدوا قريبا إليهم أكثر من غيرهم، بعد تجاوز طبيب العظام في الأسفل، ثم طبيب المثانة والمسالك البولية إلى جانب طبيبة أسنان في الطابق الثاني، ها هو العجوز يقف مرتكزا على ركبتيه المثنيتين، فيما يلهث من التعب كأن كلبا كان يركض خلفه.

استعاد أنفاسه بعدها رفع رأسه لأعلى وكان ثمة فتاة جميلة بيضاء البشرة تقف خلف الباب بابتسامة عريضة، حين أبعدت الباب أكثر وقالت «أعتذر يا سيدي.. هل جعلتك تنتظر كثيرا، هل أنت بخير!»

«أجل، أجل بكل الخير الذي يقتضيه أمر الوصول إلى هنا.. وأفترض أنني وصلت في الوقت المناسب أيضا..»

« السيد إبراهيم..!»

« بشحمه ولحمه..» رد العجوز لاهثا، وشد صفحتي سترته إلى بعضهما ومضى يسبق فتاة الاستقبال إلى الداخل.

في ناحية أخرى من المدينة، كانت ابنته نسمة بتورد وجهها الجميل وخصلات شعرها المتطايرة، تمسك حزام حقيبة ظهرها، فيما تمسك يدها الأخرى بيد الصغير الوسيم إلى جانبها، ويد الصغير الأخرى تمسك بما يشبه قطعة قصب مغلفة داخل قطعة من القماش المعدة خصيصا لحمايتها، بينما يشقان شوارع المدينة وأزقتها، فيختلطان بالناس المتمشين تارة ويجدان نفسيهما لوحدهما في بعض الأزقة تارة أخرى، على تلك الحال تمشيا جنبا إلى جنب حتى وصلا باب منزل كبير وقفا عنده بعد أن دقت عليه نسمة عدة دقات خفيفة، لبعض الوقت تفقدا نفسيهما، حتى تحركت الباب فجأة، فظهرت امرأة ذات وجه بهيج به ابتسامة عريضة، وبترحيبة سريعة

دعتهما إلى الداخل.

وبينما يتمشون في الرواق سألتها نسمة قائلة «هل الجميع هنا!»

« أجل..» ردت المرأة «الجميع ما عداكما»

فقال لؤي بعدها «لكننا لم نتأخر أليس كذلك !»

« لا.. طبعا يا صغيري.. حتى لم تتأخرا ولو ثانية..» قالت المرأة ذلك وهم يدخلون غرفة واسعة بها أثاث قليل عند الزوايا، وبساط مفروش في الوسط عليه عدد من الكراسي موضوعة في شكل دائري يجلس عليها شباب متقاربي السن كل يحمل بيده آلته الموسيقية الخاصة، وكل قد راح يعدل جلسته على مقعده بينما يتوجه الثلاثة نحوهم.

بالعودة إلى عمارة الأطباء، كان الشيخ إبراهيم يرقد مسترخيا على سرير يرتفع قليلا عند ظهره صعودا، يحدق إلى شاشة رمادية تقف بقربه تبث مشهدا من خيوط خضراء متموجة، وكان يقف عليها رجل في الأربعين يرتدي مئزرا أبيض ونظارتين شفافتين، حين استدار نحوه فجأة لما بدا أنه انتهى من معالجته تلك الآلة، و بصلعته البيضاء وقف أم العجوز مجددا «يمكنك الاعتدال..» كذلك قال واستدار عائدا نحو مكتبه فيما تبعه العجوز من خلفه، ولما جلس الطبيب جعل نظارته تنزلق على صدره بخيط أبيض مربوط حول رقبته، ورفع بعض الأوراق من مكتبه تفحصها، ثم قال بعد نحنحة خفيفة أطلقها،

بينما مريضه يحدق إليه بغير اكتراث أبدا «إذن اسمح لي.. يا سيدي أن أخبرك هذا.. أنت لا يبدو عليك وكأنك تولي هذا الأمر الاهتمام اللازم ..»

فرد الشيخ إبراهيم «أجل يا دكتور جلال الدين... أنا أعلم تماما كم أنت محق في هذا.. لكن..»

« لكنك تتصرف كطفل صغير يا شيخ إبراهيم... الآن اسمح لي بأن أخبرك بهذا أيضا، صحتك ليست جيدة، وهي لا تسير نحو ذلك أبدا، إنها تسير في جهة أخرى، غير التي تسير فيها صحة مرضانا حين يتبعون الإرشادات التي نعطيهم إياها..» قال ذلك ومرر يده على جبينه كأنما ليمسح سحنة الغضب التي كانت تأكل داخله.

فهز العجوز رأسه موافقا «وهذا صحيح أيضا..»

فعاد الطبيب للحديث مجددا، لكن بنبرة أكثر هدوءا من السابق «أنت تزيد الأمور تعقيدا على نفسك يا سيدي... إن هذا الأمر لا يتم هكذا.. لا يتم هكذا أبدا» وهو يدون بعض الطلاسم على إحدى أوراقه البيضاء الصغيرة على سطح المكتب، غمغم قائلا «بالمناسبة إنني لم أرى ذلك الفتى منذ أشهر عديدة، ذكرني باسمه ماذا كان يا سيدي !»

« علاء..»

« أجل، هو ذا... هو ذا..علاء.. إنه فتى جيد، لكن يبدو أنه يفكر في الانتحار مثلك تماما يا سيدي، لابد أنك تعلمه أشياء سيئة يا سيدي، عليك أن تحضره معك في المرة القادمة..»

وهو يستلم الوصفة عن يد الطبيب، كاد الشيخ إبراهيم ينفجر ضحكا وهو يرد قائلا «هل أنا الذي أعلمه أشياء سيئة يا سيدي !..»

«ألست تفعل !..»

« أووووه لا... إنك لن ترغب أبدا في أن تكرر هذا الكلام أمام الفتى..»

« لماذا..»

« لأنه..» قال الشيخ إبراهيم وهو ينقل عينيه بين الطلاسم على الورقة «لأنه وإن كان في هذا البلد شخص يعرف تماما كيفية التعامل مع الأمور السيئة، فإن الفتى سيكون هذا الشخص حتما..»

« أوليس هذا الأمر الذي تفعلانه أمرا سيئا !..» قال الطبيب مقربا حاجبيه نحو بعضهما، مستفهما ومستغربا للأمر كله.

فرد العجوز بينما يرتفع إحدى كتفيه للأعلى ليدس الورقة في جيبيه «الأمر نسبي يا سيدي.. قد يبدو لك أن الفتى يود أن يموت فعلا، لكنه يود ذلك حقا، اعذرني كيف أصيغ لك الأمر بالطريقة الصحيحة... إن ما قد يراه المرء سيئا قد لا يكون كذلك بالنسبة لمرء

آخر، أليس كذلك !»

« أجل..»

« ثم أنك لم تجرب أن تولد في غرفة ضيقة، أن تصرخ صرختك الأولى فيها، أن تتعلم المشي فيها، أن تعرى فيها للبرد وتجوع في حرارتها.. أن ترى والدتك تموت فيها لأن تكلفة طبيب القرية أكثر مما يمكن لوالدك أن يكسبه خلال شهر كامل، هذا إن كان يكسب شيئا.. ثم حينما تكبر بما يكفي، ترى والدك وهو يلفظ أمامك أنفاسه الأخيرة، وقد كنتما في ذلك الصباح لا تتحدثان إلى بعضكما بسبب ظروف الحياة القاسية التي تعيشانها.. إنك لم تجرب أن لا تملك الفرصة لاسترضاء والدك وطلب مغفرته قبل رحيله... هل جربت ذلك ! «تلى ذلك وعيناه لا تتحركان في محجريهما، كأنما سرد كل ذلك قد تطلبه ثورة نفسية داخلية.

« لا..»

« نحن أناس لا نحب التعلق بالآمال الزائفة يا سيدي..» عاد العجوز للحديث وهو يرفع نفسه عن المقعد ليأتي واقفا في مكانه «الآن ذكرني كم كلفني هذا..» ولما دس الطبيب يده في درج مكتبه وقف لمصافحة العجوز بعدها «أنت رجل قوي يا شيخ إبراهيم، إنك لازلت قويا... يمكنك تخطي كل هذا، فقط دعني أساعدك في ذلك..»

«مهما كنت قويا، ستظل مؤخرتك هي الشيء الوحيد الذي تستند

عليه حين تشعر بالتعب.. تماما مثلما كنت أفعل قبل لحظة..هناك وقت للاستسلام يا سيدي، علينا فقط أن نعرف الطريقة المناسبة لفعل ذلك، وأن نستمتع باستسلامنا للموت جيدا..» قال العجوز ذلك بوجه لا يمت للمرح بصلة، ثم الفت وراح يجر ساقيه نحو الخارج.

بالعودة إلى الغرفة الأخرى، كان صوت الناي يتدفق رطبا تحت سقفها. يعلو على كل صوت آخر فيها، وأنين الكمان يتخلل هوائها كفوحة عطر تناثرت هناك بالداخل، وشيء من رذاذ قيثارة يتطاير إلى الزوايا، وكذلك كانت تفعل كل الآلات الأخرى في أيدي الشباب المتغنين بها، ولقد كانت المرأة تقوم في الوسط بين حلقة الكراسي توجه أزهارها يمنة ويسرة بتلك الرهبة التي يتطلبها العمل.

عندما توقف الجميع عن العزف بعد ذلك كان الناي لا يزال يبكي لوحده حزينا، بينما يحدق الجميع في يدي لؤي الصغيرتين اليدين اللتان تبكيانه، ومن يديه إلى عينيه اللتان تنظران إلى الفراغ في الأسفل، كأنما خجلا، وكأنما غيابا، ظل ذو الثماني سنوات يسيطر على كل ذلك الجمع من حوله، ولقد كان الجميع لا يرغبون في شيء بعد انتهاء الفرقة من عزفها إلا في رؤية لؤي يعزف لوحده للحظات أخرى بتلك المهارة التي يتميز بها، لقد كان يمثل عرضا موسيقيا لوحده.

بعد انتهاء الحصة ومغادرة الشباب وقفت المرأة غير بعيد عنهما

تحدق فيهما بكل فخر واعتزاز، فيما كانا يجمعان أغراضهما، وكان شيء واحد يهمها أكثر من الأمور الأخرى، إن وجه نسمة الذي لم يكن بخير أبدا، فاقتربت منها وقالت «ما بك يا بنتي، انك لا تبدين بخير هذا اليوم.. حتى لم يكن عزفك كما المرات السابقة، لقد كنت شاردة أكثر من اللازم..»، فأغلقت نسمة بيت الكمان ورفعته على ظهرها فيما رفعت رأسها أيضا نحو المرأة وبتلك النظرة الجافة أخبرت معلمتها كم أنها بخير..ثم ظلت تحدق إليها لفترة قليلة كان الصغير لؤي منهمكا خلالها في تلميع نايه بقطعة قماش نظيفة، فكان أن شدت يد الصغير بعد ذلك إلى جانبها «الجميع يريدون الاطمئنان علي.. الجميع يريدون ذلك..» قالت بينها وبين نفسها وهي تغادر الغرفة نحو الخارج. كان انزعاجا عظيما ذاك الذي أصابها.

مع ارتخاء النهار مساءا كانت رياح الساحل تهب لطيفة على وجوه المشايخ الجالسين إلى صناراتهم على الصخور الكبيرة في انتظار تحركها، وكان الموج يضرب حدود الميناء الإسمنتية بقوة لا تكفي لكسره حتما، وكان شاب وسيم يجلس على صخرة قريبة من المياه منتشيا بقنينة خضراء يرفعها من بين ساقيه بين لحظة وأخرى، فيما راح علاء ينزل نحوه بمشية شبحية لا صوت فيها، ولما وقف بعد ذلك إلى جانبه ويداه مدسوستان، لم يقم أحد منهما بالنظر نحو الآخر وظلا على تلك الحال قرابة الدقيقتين إلى أن فض علاء ذلك الصمت قائلا «هل أنت بخير..» فكان رد أكرم أن مرر أصابع يده برفق على جبينه يتحسسه ولم يزد على ذلك، كأنما سؤال علاء ذلك قد

ذكره بأن جرحا عميقا يركب فوق عينيه اليسرى.

فقال علاء بعدها، وكان صوته واضحا وهو يقول ذلك «لقد كانت تبدو حزينة جدا... ما الذي حدث بينكما ؟..»

وتنهد أكرم مغمض العينين، وللحظة أطلق نفسه الطويل فيها قال بعدها «أنا تعمدت ذلك.. أنا تعمدت أن اجعلها حزينة..»

وسأل علاء «وهل لي أن أعلم السبب..»

فرد أكرم «أجل.. في الحالة التي أنا الآن فيها.. يمكنك أن تسرق مني أي شيء تريده بسهولة، وأنت تدرك ذلك جيدا، لذا دعني ابدأ بهذا..» وبعد لحظة صمت أردف قائلا «أنت تعلم جيدا ما الذي افعله وأتميز فيه دائما، إنه العبث مع النساء يا صديقي.. يمكنني أن افعل ذلك يوميا دون أن أمل حتى..» ولما خفض رأسه قليلا نحو قدميه قال بعدها «طبعا بالإضافة إلى هذا الشيء هنا..» قال ذلك وهو يفرد يديه يمنة ويسرة، غير مبال بالعالم أجمع.

ورد علاء إذ بدا أن الأخير قد أنهى كلامه «أجل... أدرك هذا... أخبرني عن شيء لا أعرفه..»

وغمغم أكرم في الأسفل قائلا «جيد.. جيد جدا... وأنت لك بحوث في أمري أيضا..» ثم رفع رأسه عاليا يتطلع إلى السحب في الأعلى، وكانت عيناه حمراوين و على وجهه شبح ابتسامة خرقاء ما

لبثت أن اختفت فقال بعدها خافضا رأسه إلى مكانها «لقد تشاجرت قبل يومين يا صديقي .. على اليخت الأبيض.. عند منتصف الليل تماما، أو قبل ذلك بدقائق معدودة، لست أتذكر الأمر جيدا.. لا يهم.. الأمر أن فتاة جميلة، لم أكن قد رأيتها قبلا ظهرت أمامي فجأة.. كان فستانا أزرق ضيقا.. شعرا أسود طويلا ووجها يشبه.. يشبه وجه نسمة مرتين، ولديها مؤخرة...» وأنزل يده بقوة على الصخرة «لا تهم التفاصيل يا صديقي أليس كذلك... الأمر أن أخرقا وضيعا أراد أن يفسد علي الحفل بالتحدث إليها، لقد قمت بسحبها إلى الزاوية، لكنه جاء إلينا وراح يحشر أنفه بيننا، ثم.. ثم إن ما حدث بعد ذلك يبدو واضحا، لقد تدخل الحمقى محبي الخير بيننا..»

«تشاجرتما لأجل فتاة لم يكن أحد منكما قد رآها قبلا !»

« لو كنت هناك ورأيتها لدخلت الشجار أيضا.. أجل، لقد تشاجرنا، لكن ليس بما يكفي..»

«ثم شربت حتى الصباح ولما أفقت بما يكفي ذهبت إلى نسمة وأفرغت جام غضبك عليها..»

« أجل، لقد فعلت ذلك أيضا..»

« أنت نذل يا رجل..»

« أجل، نذل من النوع كبير الحجم حتى.. لكن اسألني لما فعلت

ذلك..» ولما بدا أن علاء لن يفعل ذلك أبدا، أضاف أكرم ضاربا الهواء بكفه «لا عليك، واضح أنك لن تسأل عن ذلك.. سأخبرك بالأمر من تلقاء نفسي، لكن دعني أخبرك بأمر قبل ذلك... أنت تعرف جيدا كيف تصنف الناس يا رجل، لذا لابد وأن تكون قد وفقت في الأمر حين جعلت مني نذلا.. دعني أخبرك بالأمر إذن، ها هو ذا.. إنني حقير بما يكفي كي لا أستطيع إطالة النظر إلى وجهها، إنني لن أتمكن من التوقف عن هذا، لن يمكنني التخلي عنه أبدا.. ولسوف أتصرف وفق هذا.. أجل سوف أتصرف حقا.. قريبا..»

فقال علاء ملقيا ببصره أبعد ما يكون عن الأمواج الصارخة «أتدري لما جئت إلى هنا..»

« لكي تخبرني كم أنني بت نذلا !!»

«لا» رد علاء مقربا حاجبيه نحو بعضهما «بل كي أجد لنفسي سببا يمنعني من فصل رأسك عن كتفيك ليس إلا..» قال ذلك ثم أدى وثبة صغيرة من فوق الصخرة نحو الأسفل وراح يمشي بعيد عن المكان.

أما أكرم فبقي يحدق إلى البحر شاردا، وإلى الفراغ هناك في الأعلى حائرا وتائها في أفكاره لا يدري ما يفعل، ولما كان يعلم جيدا حجم المشاعر التي يكنها علاء لنسمة، ومدى اهتمامه لأمرها، ولو أنها لا تهذي باسمه حتى في أشد حالاتها سعادة، ولا حتى أن تستحضره إلى فكرها، فقد لعن الأمر برمته وعمد إلى دس يديه بين قدمه

حيث رفع القنينة الخضراء وأفرغ محتواها في جوفه ثم ألقى بها إلى الأمواج بعيدا وعاد يلعن هذا العالم وكل امرأة جميلة على متن هذا الكوكب..

مساءً في حديقة المنزل الأنيق وعلى بساطها العشبي الأخضر، وقف الشيخ إبراهيم أمام طاولة شواء ترتفع حتى خصره وتنبعث منها روائح طيبة وخيوط دخان تصاعد في الهواء متعرجة، هناك حيث وقف وراح يقلب قطع اللحم بممسكة حديدية فيما يدندن بكلمات عميقة عمق المجتمع الذي تربى فيه، حيث يعود تاريخ تأليفها إلى أواخر القرن الماضي. كان اللحم معدا لأربعة أشخاص فقط وبما يكفيهم. مع أن الحضور بلغو خمسة أفراد باحتساب علاء الذي لم يكن ليضع في جوفه طعاما كهذا. ولا أحد يدري سببا لذلك. لا الشيخ إبراهيم ولا نسمة ولا حتى شقيقه الصغير لؤي أيضا كان أيدري. لكن ما يدريه الجميع هو أنه يحب التصرف بغرابة بالغة.

على بعد أربعة أمتار ليس إلا، كانت الخادمة تعد مجموعة من الكراسي حول مائدة بيضاء خشبية، فيما ظهر كل من لؤي ونسمة من باب المنزل الجانبية يحملان أطباقا نظيفة يتوجهان بها نحو المائدة، أما علاء فلم يكن يفعل شيئا غير الذي يحب كثيرا أن يفعله عادة، لقد وقف أمام المرآب يحدق إلى الشيء المخبئ بداخله بعد أن نزع الغطاء عنه جزئيا، وكان شاردا في ذلك جدا، حين ظهر الشيخ إبراهيم بجانبه فجأة، مرتديا مئزر الخادمة وحاملا ملقط اللحم بيده اليسرى،

وظل يحدق فيه لفترة دون أن يقول شيئا، ولما بدا أن علاء لن يكف عن فعل ذلك أبدا، دنى منه العجوز وجعل يضع يده الفارغة على كتف الفتى وراح يقول بغمغمة حزينة «هيا يا علاء، دعك من هذا الآن.. لا تفسد علينا الأمسية.. هيا إنني أحتاج لبعض المساعدة هنا..» ولم يلبث علاء أن انصاع لطلبه وجعلا يترافقان خلف البيت كصديقين يأملان كثيرا في بعضهما.

***

في ركن من أركان القصبة، كان منظر انسحاب الشمس نحو مغربها يزيد بهاء السماء كل لحظة، مع تشكل السحب الحمراء في موضعها، وارتماء الطيور الشبعانة هنا وهناك في الأفق، من نافذة إحدى البيوت القديمة، كان شاب عميق العيون مليح الوجه يتكأ على إطارها يطل على كل ذلك العالم في الأعلى، بينما كان في الأسفل زقاق محشور بين جدار بيت آخر تملأه صرخات الصغار وأكياس الزبالة، ومياه تجري على أطرافه تتقاطر من أنابيب الصرف الهابطة مع جدران المنازل المفرومة.

كان بهاء رهيبا ذلك الذي راح يتطلع إليه الفتى في شرود بالغ، لكن صوتا آتاه فجأة من خلفه قائلا إن دوره في اللعب قد حان، ولما

التفت إليه فقد كان ثمة أربعة شباب متقاربين في السن وكانوا وهم جلوس أحدهم على قارورة غاز أسقطت على جانبها وآخر على علبة كرتون و صندوق بلاستيكي وكل ما يمكن للمرء أن يجلس عليه، يحوطون بأجسادهم طاولة خشبية خفيضة، تتوسط غرفة باردة يملأ الظلام أركانها إلا من مصباح يحاول الانطفاء بين لحظة وأخرى هناك في الأعلى، فيما هم منكبون على تقليب أحجار الدومينو في أيديهم، وكان الذي صرخ مناديا أكبرهم سنا، وأقواهم جسدا وكان حليق الرأس في وجهه ندبات وفي كتفه أثر جرح عظيم تلاءم منذ مدة، وبعينين حادتين مريبتين راح يعد الأحجار في يده مبتسما، فيما كان الآخرون بأجساد هزيلة. لكن منظرها ونوع الملابس القصيرة التي يرتدونها تجعلهم يظهرون في مظهر لا يقل ضراوة عن قائدهم.

« هاي رياض.. تعال إلى هنا، دعني أنتهي منك أيضا «وصاح من خلفه الزعيم سليمان في مرح وثقة بالغة دون أن ينظر إليه حتى، كذلك التقط رياض أفكاره وجعل يمشي مترنحا إلى الطاولة.

بالعودة إلى الحديقة خلف بيت العائلة، كانت أمسية الشواء قد انتهت تماما كما ينبغي لها، وحملت الأطباق إلى الغسيل وأفرغت الطاولة، وعقد بدل ذلك مجلس ظريف على أرائك مريحة حول طاولة خفيضة بها صينية من أكواب شاي ساخن على بعد أمتار قليلة، وكانت شجرة توت كبيرة تلك التي تقف خلف الرجلان على اليسار، فيما تقف شجرة رمان صغيرة خلف المرأتان والصغير على

الجهة الأخرى، وقالت نسمة بعد أن أقعدت قيثارتها في حجرها «حاول أن تسايرني ببطء يا لؤي.. تمام!»

«تمام.. رد الصغير مقربا شفتيه إلى نايه، وبعد لحظات كان الناي والقيثارة يقيمان حوارا لطيفا بينهما، فيما يجلس كل من الشيخ إبراهيم وعلاء على الجهة المقابلة يتفرجان بكل أعضائهما التي يمكنها لها أن تتفرج على قيثارة وناي يخلطان نغماتهما.

ونطقت الخادمة تغني وتقول بكلمات تحفظها تماما كما تحفظ اليوم الذي يلي يوم السبت ويأتي بعده ، لقد راحت تغني قائلة.

İki gozüm iki çesme

عيناي ممتلئة بالدموع

Haberin yok içerime içerime akar

ليس لدي أي خبر و الدموع تسيل بداخلي

Benim cigerim yanar

كبدي يحترق

علاء مد ساقيه فوق بعضهما، خفض ظهره على الأريكة، وكاد

يغلبه النعاس عليها وهو يشاهد ذلك ويسمعه بعين نصف مفتوحة، فيما كان الرجل الكبير إلى جانبه يحاول جاهدا أن يوفق إلى مسايرة الكلمات فيما يهز رأسه متمايلا كأنما يوشك أن يسقط كتفيه نحو الأسفل.

Ten oyalanir can kanar

بشرتي تجعدت و روحي تنزف

İki gozüm iki çesme

عيناي ممتلئة الدموع

Haberin yok içerime içerime akar

ليس لدي أي خبر و الدموع تسيل بداخلي

هي واحدة من بين المرات القليلة جدا، التي يمكن فيها لئيما امرء من العائلة أن يسمع فيها صوت المرأة البدينة، باعتبارها تجيد الصوم عن الكلام مثلما تجيد الطبخ أيضا، ولقد سبق للشيخ إبراهيم أن حدثها عن أمر حنجرتها مرات عدة، وكم أنها تحرم العالم الخارجي من صوتها، وإذا كان قيل أن النساء البدينات يملكن أصوات أجمل من تلك اللواتي هن أقل شحما، فإن السيدة الجميلة _ كما تقرر أن يكون اسمها _ تعد مثالا قويا على ذلك، ولقد صقلت موهبتها التي ولدت بها عبر الجلوس إلى التلفاز في غرفتها وتقليب قنواتها

المفضلة، ومن وسيم تركي إلى آخر كانت تفضي ساعاتها الغير ذات الأهمية -مصطفى جيجلي – كم أحبت سماعه.

ولقد سأل علاء الشيخ إبراهيم عن أمرها يوما ما، فأجابه الأخير قائلا إن حالتها هذه ترجع إلى أن الطفولة التي عاشتها ليست بالشيء الذي يطيب الحديث عنه أيضا، لقد عاشت طفولة بائسة، أكثر مما يمكن لفتاة عجية ضعيفة النفس والحيلة أن تتحملها، بداية من موت والدها الذي أنهكته المشروبات الكحولية، ثم تركها ووالدتها للا أحد، ونتيجة المعاناة التي تلت ذلك فقد تمكن الموت من أمها أيضا، بعد عدد من الأمراض التي ركبت جسمها الهزيل من أثر العمل، ذلك ولم تكن قد بلغت الخامسة من عمرها، حين وجدت شبه عارية، تبكي على رصيف ما، قبل أن يتم نقلها إلى دار الرعاية.

مرت نصف ساعة، وكان أمر الأمسية قد انتهى حتما، حين قام العجوز رافعا جسده المهدهد نحو الأعلى، وكان لون النعاس يظهر جليا تحت عينيه حين غمغم موجها حديثه إلى الخادمة «إنك لا تدرين كم تزيح حنجرتك هذه عني من أتعاب الأسبوع وأثقاله.. إنك لا تدرين أبدا، ولو كنت تدرين ذلك إذن لغنيت لنا في الصباح أيضا..» قال ذلك شادا بيديه على سترته ثم مشى خلف شجرة التوت نحو المنزل، فيما بقي الآخرون في أماكنهم، وكانت الخادمة قد أبعدت عينيها عن الفراغ وأخذت بهما إلى الصغير ومسحت على رأسه بيدها الثقيلة، وبابتسامة غير مكتملة، قامت وغادرت مكانها، وفيما لحقتها

العيون من خلفها، كانت تمشي بتثاقل نحو غرفتها القائمة على جنب البيت الأبيض، فعلت ذلك في سكون رهيب تحفه الغرابة، كأنما الضباب يملأ المكان حولها ولا تدري إلى أين هي ذاهبة، لقد انحرفت عن الطريق قليلا، لكنها ما لبثت أن عادت وأمسكت قفل الباب بيدها، ودون أن تلتفت إلى الخلف اختفت في الداخل.

وشعرت نسمة بغيض وانزعاج شديدين حين انتبهت إلى أن علاء يحدق فيها بتلك النظرة، كأنما قد شرد فيها حين كانت هي مهتمة بحركات الخادمة، فلم تعانده كثيرا، فحملت قيثارتها إلى يدها الأخرى، وقامت عن الأريكة، أمسكت يد الصغير لؤي بلطف وجعلا يمشيان نحو المنزل أيضا، فيما بقي علاء في المكان وحيدا، غائبا في صمته ومتأملا ذلك الشيء الأبيض العالق هناك في الأعلى «وأنتما تشبهان بعضكما أيضا ..» وهكذا خاطب القمر قائلا ثم أغمض عينيه وأجلس يديه على الأريكة دون أن يحرك ساكنا.

- 4-

مع ارتفاع شمس الأحد واحمرارها، وطلوع الطيور إلى أعلى، كانت عجلات المركبة ترتخي ببطيء عند مدخل البستان حتى توقفت أمام الغرفة كالعادة، على التراب والحصى، ترجل علاء عنها فور توقفها وكان قد لاحظ شيئا ما واقعا هناك تحت ظل شجرة قريبة، أما العجوز فلبث في الداخل يبحث أمر حزمة نقود في يديه ويعدها، وأطل وجه شاحب قبيح من النافذة ثم ما لبث أن أعاد غلق ضلفتيها نحو بعضهما واختفى في الداخل لفترة قبل أن يظهر عند الباب مرة أخرى، كان علاء خلالها يحدق وقد اعتراه الاشمئزاز إلى أطراف مبعثرة لجراء ذئاب صغيرة ملقاة أسفل جذع الشجرة.

وقف السلوقي أمامه واضعا يديه في سرواله تحت خصره فيما يحدق إلى نفس الموضع بنظرة بلهاء، فقال علاء واضعا يده على جبينه «هل هذا ما جلبته لك المصيدة..»

« لا.. لقد وجدتهم عند الفجر يتجولون خلف القصب في الجهة

الأخرى.. المصيدة لا تزال في مكانها، إن ذلك الملعون لم يقم بأي حركة منذ فترة «

« هل أنت متأكد..»

وفكر السلوقي قليلا «سأقول نعم..»

وكان كلاهما يحدقان في تخشب إلى الجراء الميتة، وقال علاء بعدها «ألم تحصل على أمهم أيضا !..»

فرد القاتل الفخور بنفسه «لا.. لم تكن هناك حين عثرت عليهم، لا بد وأنها خرجت لجلب الطعام فيما قرر صغارها أن يكتشفوا العالم قليلا خارج عشهم.. لكنني تركت لها هدية، ولسوف تعثر عليها حين تعود حتما..» وأضاف مسترسلا في سرد بطولته بعدها «كانوا أربعة، وقد تخلصت من أحدهم بركلة حررت روحه الصغيرة.. نحو السماء كما تعلم، فيما جلبت الباقين إلى هنا لنلعب قليلا، لأنني لم استطع حملهم جميعا مرة واحدة...» ثم رفع يده إلى ذقنه وجعل يفركه كالأبله محدقا إلى رؤوس الجراء المقطوعة «على الأرجح أنها ليست الطريقة الصحيحة التي قد تلاعب بها الذئاب صغارها في العادة، أليس كذلك..»

إذن إن أشلاء الجراء حديثة الولادة لم تكن مشهدا قد تهتز له نفس الرجل ولو مقدار ذرة، حين قام بوضعها أسفل جذع الشجرة وهي على قيد الحياة، على بعد ستة أمتار من موضع وقوفه، ليجعل منها

هدفا يتسلى به من خلال محاولة إصابتها عبر قذفها بالحجارة، وقد نجح في ذلك جدا، فلم تكن الرؤوس على الرقاب و لا الأرجل تحت البطون ولا الذيول الصغيرة على المؤخرات، إذن ما كان لنفسه أن تهتز لعوائها، بعد ذلك أبعد علاء وجهه وتمشى عن المكان مبتعدا.

واقترب العجوز من السلوقي بعدها، ولم يكن رؤية دم حيوانات صغيرة مرشوش على جذع شجرة بالشيء الذي يحب أن يبدأ به صباحاته في العادة، وكان السلوقي يهم بالهروب لتجنب أي حديث زائد حين ناداه العجوز قائلا «لقد سألت عنك والدتك البارحة..» وتوقف السلوقي قبل أن يأتي بخطوته الثالثة » علاء لم تعد له أي رغبة في إيصال ذلك إليك، أدري ذلك.. لكنه أمر يجب أن تعلمه..» واقترب منه على بعد خطوتين كبيرتين، وبينما ظل السلوقي يدير ظهره مميلا رأسه عن جانب أضاف العجوز قائلا بينما يضغط بأصابع يده على مفتاح السيارة «ألا ترغب في أن تضيف إلى الأمر شيئا!..»

فقال السلوقي بصوته البارد «وماذا علي إذن... إنني أرسل لهما مبلغا من المال كل فترة، ما الذي قد أفعله لهما أكثر من ذلك..» قال ذلك وجعل يلتفت إلى العجوز يحدق إليه بنظرة فاحصة، فقال العجوز مشيرا إليه بالمفتاح « هل تعتقد أنهما في حاجة إلى المال الذي ترسله لهما حقا..» وأنزل يده مرة أخرى «إن علاء لم يترك لهما مجالا بحيث قد يكونان في حاجة إلى مالك... إنهما لا يرغبان في شيء أكثر من رؤيتك مرة أخرى، أخبرني متى كانت آخر مرة زرتهما

فيها، قبل سنة، سنتين ! أكثر !..حتى هل وصلك خبر أن والدك قد فقد بصره كليا، ولو وقفت أمامه إذن فلن يحدث ذلك فرقا، لن يتمكن من رؤيتك لكنه قد يحتاج أن يخبرك شيئا ما..»

« مثل ماذا..» قاطعه السلوقي بنبرة مستهترة «مثل أنه يريد أن يقدم اعتذارا !!.. مثل أن أنسى كل ما فعله بي تماما !!... كان عليه أن يفكر بأمر شيخوخته حين كان يرسلني مضرجا بالدماء إلى الخارج عند منتصف الليل..»

« وماذا عن والدتك ! «قال العجوز وكأن شيئا بداخله يريد الانفجار حقا» هل لها ذنب في الأمر أيضا..» ثم بدا أنه هدأ نفسه في لحظة «أتدري أمرا.. هل تعرف شيئا بقصة علاء، عما حصل لوالده، أو عما جعل منه هكذا، لا يحب الحديث كثيرا، وكل تلك الأشياء الأخرى..» وظل السلوقي على وقفته يحدق متخشبا «أنتما متشابهان في هذا الأمر جدا، لقد توفي والده إلى جانبه في حادث سيارة، وهما لا يحدثان بعضهما ، لم يكن والده يحبه كثيرا، لقد ربى نفسه لوحده وربى شقيقه أيضا بعد وفاة والدته، أما والده فلم يعنى بأمرهما شيئا كثيرا، مثل والدك تماما كان يختبأ خلف المشروبات الكحولية.. من هذا العالم، من راتبه الضيق، من حياته البائسة، من فقره.. لقد كان رجلا ضعيفا مثل والدك أيضا..» أكمل جملته بنبرة تكاد تكون صياحا من شدة الغضب، بدا وجهه مضرجا. ثم ما لبث أن عاد للتنفس بشكل طبيعي من تلقاء نفسه، فيما كان السلوقي يتلقى كل ذلك

الكلام ويحدق فيه ساكنا، وبملامح بدت متأثرة، كأنما شبحا عاقلا قد ركب جسمه فجأة، إذن لقد عاد الشيخ إبراهيم إلى الحديث قائلا «كان ينبغي عليك أن تسأل عن هذا ... كل تلك الأموال التي يملكها، وأنت الوحيد الذي يعرف ذلك، ألم تسأل لماذا يعيش حياة زوفري بائس، يعمل عملهم، يلبس لباسهم، ويأكل طعامهم، مع أن بإمكانه العيش بطريقة تشبه تلك التي يعيش بها ابن الحاج أحمد،..على الأرجح أنك لم تسأل عن ذلك..»

« لكن لما يفعل هذا، هل يلوم نفسه على ذلك ؟..» سأل السلوقي متأثرا.

فرد العجوز قائلا، قال وهو يحرك رأسه يمنة ويسرة «أخبرني أن والده كان يحاول التحسن قبل أيام قليلة من وفاته، وكان يرغب في أن يصلح علاقته بابنه، لكن علاء قد تماطل في الأمر قليلا ، ولم يستطع أن يسامح والده بتلك السهولة، على الأقل قبل أن يفقده، ثم ها هو الآن لا يستطع مسامحة نفسه.. إنه يعيش كما اعتاد أن يعيش مع والده، واعدا نفسه بأن لا... إنه لم يحصل على فرصة ليسامح والده حينها، لكنه أدرك بعد ذلك أن حياة والده كانت أقصى مما يقدر رجل فقير مثله أن يتحملها بصدر رحب واسع، لكنك لازلت تملكها.. لا تزال تملك الفرصة.. عليك أن تقوم بشيء ما يا رجل، عليك حقا أن تفعل ذلك... إن الحياة أقصر من أن نقضيها في تذكر الماضي، ثم أنه شيخ كبير أعمى ذلك الذي ينتظرك أن تسامحه، لقد عاقبته

الدنيا إلى الآن بما يكفي.. ألا توافقني !..»

« بلى أوافقك، أوافقك حتما...لكنني لست علاء أيضا، أنا لست ذلك الشخص الذي يتأثر سريعا، أنا شخص آخر، لي قلب آخر وجروح أخرى.. ثم إننا سنلتقي هناك في الأعلى، هناك سوف قد أسامحه، لكنني لا أستطيع أن أفعل ذلك هنا في هذا العالم، ولو كنت أستطيع فعل ذلك إذن لما قتلت هذه الجراء الصغيرة...» قال ذلك وبدا متأثرا، حتى وجهه كان قد تحول وبات يبدو كورقة صفراء ذابلة، ثم استدار ومشى إلى الغرفة تاركا ذلك العجوز يبتلع ريقه.

برز علاء مرة أخرى من بين الأشجار وكان يحمل في يده قطعة حديد هلالية الشكل بها أسنان حادة على أطرافها، وخلف ساقيه كان الكلبان يتمشيان بزهو و هما يتبعانه، وحين وقف على مقربة من الشيخ إبراهيم، كانت مركبة الحاج أحمد تعبر بوابة البستان توازيا، وشعرت الكلبة بخوف شديد لما رأتها، حتى لقد ربضت على الأرض وأخذت تلعق ساقها، وان كانت قد تحسنت بما يكفي لتتمكن من الهرولة خلف كلبها، وكانا ينظران إليه بصمت حين قال الشيخ إبراهيم «وهذا يوم عليك أن تقدم فيه خدمة أخرى أيضا..»، وبينما يجر ساقيه القصيرتين بذلك المرح الأبيض على وجهه، قال الحاج أحمد مبتهجا «العني إن لم آتك بخير هذه المرة..» ومد يده لمصافحة الرجلين تواليا، قال الشيخ إبراهيم بضحكة «ليكن إذن.. سأفعل ذلك بقدر ما يستطيع لساني أن يتمدد إلى الخارج، وسأتدبر أمري بعدها..»،

فضحك الحاج أحمد كاشفا عن سنه الفضية في الأعلى، وقال بعد أن توقف رأسه عن الاهتزاز وبطنه «ليس لديك أي فرصة... أعتقد أن كرة الثلج وجدت منحدرا عميقا يا شيخ إبراهيم، لقد وافق السيد مراد على إعطاءنا حقل الخوخ خاصته..».

فقال الشيخ إبراهيم مبتهجا «وهذا أمر يدفع بالمرء للاحتفال أيضا، أننا لم نتشارك نفس العظام منذ فترة طويلة»

« لا ليست عظاما يا صديقي..» قال الحاج أحمد بمكر على عينيه واضح «إنها لحمة، لحمة كبيرة.. أو يمكنني القول أنها كبد حوت حتى..»

فقال علاء مقاطعا حديثهما «هل هو واقع في مشكلة ؟..»

وإذ التفت الحاج إبراهيم إليه فقد وجد أن الرجل الصغير يرمقه بنظرة ليست تنم عن أي ود مهما كان حجمه بالغ الصغر، لكنه لملم عضلات وجهه وقال مستدركا «نحن من سنقع قي مشكلة إن تركنا هذا الرجل يقرض أشجاره لأناس آخرين يا علاء..» قال ذلك بنظرة صارمة. وبعد لحظات كان داخل مركبته خلف الزجاج المعتم يقلب دفتر حسابات بين يديه، بينما كان حوار صغير يجري بين صديقيه في الخارج أمام الغرفة، قال الشيخ إبراهيم حينها «الأمر ليس أننا نريد استغلال ظرف الرجل.. لكننا سعينا وراء هذا البستان سنوات عديدة ولم نفلح في ذلك.. إنك لم تضع عينيك على تلك الأشجار قبل الآن

أدري، ولو كنت وضعتها إذن لرافقتنا الآن أيضا..» وإذ رأى الفتى لا يفعل أي شيء سوى التحديق ساكنا فقد عاد للحديث من تلقاء نفسه «ليس عليك أن تقلق بشأن هذا، ثم إنني لن أدخل عملا قبل أن نوافق عليه كلينا، إنما سأذهب لأتفقد الأمر أولا... لكنك ستأتي فيما بعد لتتفقد البستان أيضا، وهذا أمر لابد أن تفعله..» قال ذلك بصوت خفيض مشيرا بيديه كمن يخبر سرا، فرد علاء بصوت أعلى قليلا من ذلك «لا شيء سيجعلني أحب ذلك الرجل أبدا.. لا تنسى أن تبعث أموال العمال الذين تراجعوا عن العمل مؤخرا. ينبغي إن تدفع لهم هذا المساء فقد تأخرنا عنهم بنا يكفي..» قال هذا والتفت عائدا نحو الغرفة. وحرك العجوز رأسه موافقا.

وزحفت المركبة عن الحقل بعيدا واختفت على الطرق الترابية، بينما دلف علاء إلى الغرفة، وكان الظلام يملأ أركانها، فقط ذلك الشيء القليل من الضوء الداخل عبر الباب كان يجعل بمقدوره أن يرى ما بالداخل ، كذلك وقف علاء يحدق بغير ما دهشة، ذلك أن شهرين كاملين قضاهما تقريبا لوحده قبل أربع سنوات مضت بداخلها قد أنساه فضاعتها، وكان ذلك بعد نجاته من الحادث وتعرفه على الشيخ إبراهيم مباشرة، لقد ألف الغرفة إلى درجة لم يكن قادرا على الخطو خارجها لأكثر من دقائق أربعة، لحاجة بيولوجية، إنه لم يجد بعد فقد والده أيضا إلا أركان هذه الغرفة ليخبرها عما يوجع داخله، وكان السلوقي بصفته رفيقه الوحيد فيها حينها متعاونا جدا، تحت توصية الشيخ إبراهيم طبعا، وقد أدرك الأخير أن الفتى

يختلف عن أقرانه كليا، وعلم أن خير وسيلة لمساعدته هي بتركه يمارس انعزاله عن العالم قدر ما يود ذلك، ومراقبته عن قرب من خلال توظيف السلوقي لذلك، ولقد شاهده وهو يضرب الجدار بيديه مرات عدة، وفي مرات قليلة أخرى برأسه أيضا، ورآه يبكي بكاء مريرا حتى تمرض عيناه، ورآه يقف أمام المرآة يحدق فيها لساعات طويلة دون أن يفعل شيئا، ورآه لا يرتدي نعله لأسابيع أيضا، ولا يهتم للون القميص الذي يلبسه، ولا لشكل الطعام الذي يضعه في جوفه البتة، ولو كان وضع يده حينها على قطعة خشب مبللة إذن لانتهى بها الأمر بين أسنانه، فكان كل تصرف يقوم به بناء على حركات جافة، كأنما أحدا أفرغ رأسه من دماغه، لم يكن للسلوقي شأن بأمر الفتى حينها سوى إعداد الطعام له ومراقبة تصرفاته ، وكان الرجلان قد وقفا على المدخل يحدقان إليه حين كان نائما فقال الشيخ إبراهيم معلقا «إنه سينتهي قريبا من كل هذا.. لقد فتح هذا الفتى هديتين في يوم واحد، ولا يقدر الرجل في نفس اليوم على أن يفتح أكثر من هدية واحدة..» ولم يسأل السلوقي عن الأمر حينها، إذ لم يكن شيء أجدر بأن يعمل فكره فيه أكثر من أشجار الفاكهة خلفه، وفي اليوم السادس والعشرين بعد الثلاثين الأولى عاد السلوقي صباحا نحو الغرفة، ليفاجئ باختفاء الفتى من فراشه قبل أن يظهر خلف ظهره حاملا أكياس بقالة بين يديه حين سأله قائلا «هل تحسن طبخ مرق الدجاج جيدا !!..» ومن حينها أصبح علاء على هذه الصورة، متلبدا في حركاته، باردا في مشاعره ولا يعد مخالطة أناس أكثر من عدد

أصابع يديه أمرا لطيفا، ولم يعد يبحث في الحياة عن شيء سوى الاعتناء بأخيه والانكباب على العمل بعد طول فجر اليوم التالي، والدفع بعجلة ثراء الشيخ إبراهيم أكثر وأكثر، والوقوع في حب ابنته بقلب صامت مقفل.

ظل السلوقي وهو راقد في فراشه يحدق إلى المصيدة في يد علاء بدهشة، وكان رأسه ورقبته فقط هو كل ما يظهر من جسده المغطى بلحاف أبيض متسخ، فغمغم قائلا بعد ذهاب الظلام عن وجهه «لم تعد هذه الأشياء تصنع كما كانت، أليس كذاك..»

فطرح علاء قطعة الحديد على الأرض من يده قرب عتبة الباب واتخذ من صندوق قريب كرسيا يجلس عليه، حين غمغم قائلا «هل تريد قتله ؟..»

« أجل..» رد السلوقي ببرودة.

« لأجل خمسة أرطال من الفاكهة ؟..» قال علاء وهو يحدق إلى قطعة الحديد عند قدميه في الأسفل، ذلك أنها شيء تم صنعه لصيد الخنازير خاصة، وليس للإمساك بلصوص الفاكهة.

«بل لأجل حبة واحدة..»

فقال علاء بعدها «أنت لا تحرس أزرار سروالك الأمامية يا رجل ، أنت حارس ليلي تحرس بستانا يحتاج المرء عشرين دقيقة ليلتف

حوله.. هذا الأمر لا يتم التعامل معه هكذا..»

فقال السلوقي ملتفتا بوجهه إلى الجهة الأخرى» سأعود للتصرف بعقلانية أكثر حين أمسك يهذا الملعون وأحشر بعض التفاح في مؤخرته السريعة الهرب «، وإذ بدا أن لا جدوى من هذا، حمل علاء نفسه على الوقوف وقال وقد هم بالمغادرة «هل تحتاج شيئا آخر..»

« أن تخبرني عن مكانه إن رأيته..» قال السلوقي واندس تحت اللحاف بكامله، فيما مشى علاء خارج الغرفة، وكانت شاحنة كبيرة تقترب بشكل عكسي من صناديق الخوخ الموضبة توضيبا جميلا على مقربة، وكانت أشباح التعب تملأ وجوه العمال وهم يستعدون لتحميلها إلى داخل الشاحنة.

***

مع حلول المساء. بخطوات قصيرة، بطيئة ومتمايلة، وصلت نسمة تقريبا إلى حيث ينبغي عليها أن توصل ذلك الطرد الملفوف بكيس أسود في يدها، وكان عليها أن تقطع زقاقين يفصلانها عن وجهتها، شاردة بين أزقة القصبة. وتتأفف بين خطوة وأخرى من المهمة التي أوكل إليها والدها، راحت تصعد الأدراج الإسمنتية بتثاقل وانزعاج من الحجم الكبير جدا، وقد أوشكت أن تلتف حول جدار أحد البيوت

العالية حين وفجأة ظهر شاب من العدم يركض نحوها وفي لمح البصر قام بانتشال الطرد منها بحركة سريعة مفاجئة، بمثل تلك السرعة التي تتطلبها عملية سرقة فتاة ناجحة، واختفى خلف ظهرها يركض بما استطاعت قدماه أن تحملاه على ذلك، صاحت نسمة خلفه بلا أمل و انزلقت على الجدار من شدة الهلع باكية، وكان صراخها المخنوق نحو مكان اختفاء السارق هو كل ما استطاعت أن تأتي به كرد فعل لذلك، وقد نجح صراخها في لفت انتباه عجوزين كانتا تلتحفان برداءين أبيضان وتنزلان الأدراج نحوها في تلك اللحظة، وانحت واحدة منهما تضع يدها على وجه الفتاة المنتحبة تحاول كفكفة دموعها دون أن توفق إلى فعل ذلك.

وغير بعيد في الأسفل. كان السارق لا يزال يهرب بالسرعة عينها، خائفا وفزعا، فكان يستطيع سماع أنفاسه ودقات قلبه المتسارعة. نتيجة الركض السريع والخوف الذي اعتراه، ولم يمضي بعيدا حتى خارت قواه فجأة من التعب وضيق التنفس فقلل سرعته وجعل يمشي إلى الوراء مترقبا وقد تلبد وجهه بالخوف والهلع، فلقد شعر بأن أقداما سريعة كانت تتبعه منذ لحظات قليلة، ثم اختفت فجأة، وكان على تلك الحال يتراجع بخطوات بطيئة ويده إلى الخلف تتلمس طريقه ووجه لا يبعد عن الجدار إلا كما تبعد إحدى عينيه عن الأخرى، «هل حقا كان ذلك الصوت صوت شخص ما قام بتتبعي !» كان الحديث الذي حدث به نفسه يشبه شيئا كهذا.

ومع تراجع قدميه إلى الخلف بتلك الطريقة العكسية، وكان الطريق خاليا من أي حركة نحو الأعلى، إذ به يجد نفسه يهوي إلى الوراء ساقطا بعد أن تعثرت قدماه بشيء ما خلفه ولم يستطع موازنة نفسه ليسقط على الدرج طريحا، ولما رفع وجهه عن الأرض فقد وجد فتى غاضبا يرتدي معطفا أسود ثقيلا ويدس يديه في جيبيه فيما يحدق إليه بنظرة مخيفة، نقل بصره إلى لفافة النقود التي طارت من يده حين وقوعه وحطت عند قدم الفتى الواقف على رأسه وعاد سريعا يحدق فيه مرعوبا.

قال علاء حاملا لفافة النقود بإحدى يديه وممسكا باللص بيده الأخرى يجره من ياقته نحو مكان منعزل تلفه جدران ثلاثة بيوت مرتفعة «تعال أيها الحيوان التعيس الحظ إلى هنا.. سوف نكمل حديثنا الشيق بعيدا عن أعين الناس يا صديقي..» وقام بركله إلى الزاوية، حيث أنطرح فيها اللص خائفا كقرد يرى البشر عن قرب لأول مرة، أما علاء فوقف مكانه يحدق إليه بوجه خال من أية ملامح، وكان اللص فتى يصغره بثلاثة أعوام أو أربعة، ربما في العشرين من عمره، وكان به مع كل الأشياء الرديئة التي يرتديها مسحة جمال واضحة، كانت عيناه داكنتان وشعره رطب قصير إلا أنه غير معتنى به عناية كافية، وكان مظهر الفقر والبساطة في ملابسه قد أمد علاء حين ألقى عليه نظرته الفاحصة، صورة واضحة المعالم عن حاله، وحين ذاق الفتى على الأرض ذرعا من تلك النظرة، صاح متلعثما وكان كلامه متقطعا من شدة اللهاث حين قول هذا «أرجوك يا علاء... إلا الشرطة.. افعل بي

ما تشاء، لكن.. لا تسلمني إلا الشرطة. إنني لن أتحمل ذلك أبدا..»

وأحدث كلامه هذا غرابة لدى علاء وأخذ اهتمامه، فقال مقتربا منه خطوة أخرى «من أين تعرف اسمي..»

فقال الفتى متراجعا بيديه إلى الوراء مقدار خطوة أيضا «أنا أيضا أسكن هذه الأحياء هنا... لقد انتقلت حديثا.. قبل ستة أشهر، إلى هنا، ولا أدري من أين حفظت اسمك صدقني لست أذكر.. إنما أعرفه كما ترى، وأعرفك أيضا، ربما سمعت أحدهم يناديك بهذا الاسم فعلق بذهني، لكن هذا لا يهم الآن أليس كذلك... والآن أخبرني ماذا تريد أن تفعل..»

وزاد الركود على وجه علاء وضوحا، ثم قرب حاجبيه متفحصا ودنى بخطوة أخرى، رد عليها الفتى الملقى على الأرض بأن حاول الانسحاب إلى الخلف أكثر، لكن ظهره اصطدم بالجدار خلفه ولم يستطع أن يبتعد أكثر من ذلك، إنما شحوب وجهه والخوف الذي اعتراه هو كل ما استطاع أن يحرز فيه تقدما، وللحظات ظلا يحدقان بصمت على تلك الحال إلى بعضهما، وفجأة أرخى علاء ملامحه وقال بعدها «ما الذي يدفعك إلى فعل هذا..»

« ماذا.. «كان هذا السؤال شيئا لم يتوقع اللص أن يسمعه أبدا في تلك اللحظة، وإذ بدا أن ذلك شيئا مطمئنا وتقدما تمكن من تحقيقه فقد عدل جلسته قليلا وواصل التحديق بصمت دون أن يقول شيئا ،

«لقد سألتك ما الذي يدفعك للسرقة..» كذلك صرخ علاء منفعلا وقد تحول وجهه، واهتز كيان الفتى لتلك الصرخة، حتى لقد اهتزت عيناه في محجريهما ورد يصرخ بطريقة مماثلة « إن لم تكن ترغب في تسليمي أو ضربي فلماذا توجه إلي هذه الأسئلة.. توقف عن فعل هذا..» قال ذلك وجعل ينتصب واقفا يضع وجهه أمام وجه علاء يحدق أليه بنضرة انفعال غاضبة، وكان تنفسه مسموعا كثور هائج.

ظل علاء هادئا، ولم يكن شيء قد أثر فيه من كل ذلك، أو حتى غير نظرته المتخشبة، فقال فجأة «هل تسرق للمرة الأولى !..» قال ذلك بعد أن لاحظ شيئا ما على وجه الفتى المرتعب أمامه، وفي نظراته، وفي ارتعاش جسمه وطريقة تنفسه، لقد كان كل شيء يبدو مختلفا عما يجب أن يكونه في لص قد اعتاد على فعل ذلك، حتى لقد رأى أن أثر دمع قليل راح يتلألأ أسفل عيني الفتى، وكان يمكنه بوضوح أن يرى ذلك، رؤية أن ألما عظيما بداخل هذا الفتى يوشك أن يدفعه للانفجار باكيا كطفلة صغيرة، ولملم الفتى نفسه وقال معدلا وقفته «الآن ابتعد عن طريقي ودعني أذهب.. هياا»

فقال علاء فجأة «هل تبحث عن عمل ؟..»

فتفاجأ الفتى وقال مرخيا عضلات وجهه «بقدر ما أريد طرحك أرضا واستعادة ما سرقته مني..» ولم يبدي علاء أي انفعال لهذا أيضا، بل لقد أخرج من جيب معطفه الداخلي كراسة وقلما وكتب على إحدى أوراقها شيئا، وفيما يراقب الفتى كل ذلك بصمت فاغر

الفاه، نزع علاء قطعة الورق عن الكراسة ومدها إلى الفتى «قابلني هناك بعد ساعتين..» قال ذلك واستدار ماشيا حتى آخر الزقاق الضيق على الجهة الأخرى، وأما رياض فظل ينظر بذهول كأنما برقا حط بجانبه وما أصابه.

مشى علاء يصعد الأدراج وقد أخرج اللفافة بين يديه يتفقدها وكانت سليمة جدا، وغير ناقصة، وحين توقفت قدماه عن الصعود أكثر فلأنه وقف أمامها، ولما كانت تشهق تلك الشهقات المتتالية فلأن بكائها كان عميقا، بسبب إضاعتها لأمانة كلفها بها والدها، وكان صدرها يرتفع وينخفض بشدة، حين رفعت رأسها لتنظر إليه، وبعد تحديقة صغيرة رفعت نفسها عن الأرض وقالت تمسح الدمع عن عينيها «هل استعدتها..» قالت ذلك مع أن عينيها لم تكونا تريان أي شيء غير تلك اللفافة في يده اليمنى، فرد قائلا «أعتقد ذلك..» فرفعت عينيها إليه وراحت ترمقه بنظرة ساحقة، أردف بعدها «حين أخبرني والدك أنه سوف يرسل أحدا لم أتوقع أن تكوني أنت، هذا المكان يعج باللصوص هنا... ما كان عليك أن تأتي بمفردك»، فصاحت في وجهه قائلة «وأنا لست مولعة بالمجيء ورؤيتك أيضا.. جئت لأن والدي طلب مني هذا، وأصر عليه جدا ، وإلا لم تكن لي أية نية في أن أفسد يومي بالقدوم إلى هنا..»، وحيث دس علاء لفافة النقود في جيبه، فإن كلا منهما ظل يحدق إلى الآخر طويلا، هي إلى نظرته المتيبسة، وهو وإلى عينيها اللتان أصابهما احمرار لطيف من أثر البكاء، كطفلة تحتاج إلى عناق طويل يطمئنها، يخبرها كم أنها تبلي

حسنا حين تصرخ بتلك الطريقة المضحكة ، وأن هناك من يهتم لها رغم ذلك، لكنه قال لها «ألم يفسد يومك إلى الآن بما يكفي.. أم أنك ستطيلين الوقوف هنا !!..»، وأزعجها كلامه جدا، حتى لقد كادت أن تقول شيئا آخر، لكن شعرها تطاير أسود حالكا فجأة خلف رأسها، حين أبعدت عينيها وراحت تنزل الأدراج بكل ذلك الانزعاج الأنثوي الذي عليها، كذلك ذهب كل واحد منهما في حال سبيله.

مع حلول مساء اليوم، وقف اللص أمام بوابة البيت ذات اللون الأخضر حائرا ومتوترا، لا يدري ما يفعل، إلا وضع يديه في جيبي سترته الباهتة بينما يتلفت يمنة ويسرة خوفا من أن يتم اتهامه بشيء ما، كمجرد وقوفه هناك بتلك الوقفة المريبة، إلا أن ظهر علاء خلفه قادما فجأة «هل انتظرت كثيرا..»

رد الفتى وهو يستدير نحوه «أجل.. أعتقد ذلك»

فرفع علاء يده إلى الجدار وضغط زرا مثلثا ثم تراجع إلى مكانه بجانب الفتى، وأذن لهما بالدخول بعد لحظات قليلة، دلفا إلى الداخل وبعد عبورهما ردهة البيت أمسكت بهما نسمة حين صادف وصولهما وقت خروجها من غرفتها، لقد توقفت يد علاء على مقبض الغرفة الممنوعة عليها، بينما تخشب الفتى خلفه وقد سقطت يداه من سترته حين رأى الفتاة التي قام بسرقتها قبل سويعات قليلة، تقف هناك في الأعلى خلف درابزون السلم فيما تحدق فيهما بدهوش عظيم جدا.

نفس الملامح، نفس العيون العميقة، نفس الشعر الرطب، نفس الوجه البريء الثعالبي، ونفس السترة وسروال الجينز الأزرق وحذاء الركض السريع أيضا، نزلت نحوهما وقد استبد بها غضب عارم «لقد رأيت الكثير من الحمقى خلال العشر سنوات الماضية... لكنني أهنئك بمكانتك بينهم...» قالت ذلك وعيناها لا تتوقفان عن الاهتزاز في محجريهما أمام علاء، إذ أن كلامهما كان له لا لأحد غيره. عتابا له لاتخاذه لهذا اللص صديقا له بتلك السرعة وإحضاره إلى البيت، أما الفتى خلفه فتراجع إلى الوراء خطوة، وجعل لا يكف عن التحديق إليها، لأن النظر إليها بدا وكأن لا شيء أجمل منه في تلك اللحظة، وحين صادف أن التقت عيونهما في لحظة ما من تلك اللحظات السريعة، فقد حدث في قلبه شيء ما، كأنما قد تخلل الفراغ بين نبضة قلبه والنبضة التي تليها نبضة زائدة، وأنزل رأسه متحرجا «أولم تجد أحدا لتسرقه غير فتاة بهذا القدر من الجمال غير هذه أيها الملعون الأخرق..» كذلك غمغم داخل نفسه، فلم يكن بعدها إلا أن حرك علاء مقبض الباب ودفع الباب إلى الداخل، دون أن يرد عليها، وتبعه الفتى محني الرأس من خلفه وأوصدت الباب في وجهها، فألقت عليهما شتيمة لطيفة بصوت غير مسموع ومشت نحو الخارج.

كان الشيخ إبراهيم يجلس بتثاقل على المقعد الجلدي خلف مكتبه يتطلع إلى الفتى بابتسامة بشوشة ويده تتشابك مع الأخرى على بطنه. فيما كانت عنق الفتى تتلفت يمينا وشمالا إلى ما حولها،

فالغرفة كانت غريبة بكل ما فيها، بداية من حزم الأوراق المبعثرة فوق المكتب إلى طاولة الداما التي تقف وسط الغرفة في الخلف قليلا، ثم عدد من التحاليل الطبية المعلقة على الجدار أقصى اليمين خلفه، فكأنما يعيش في الغرفة ثلاث شخصية مختلفة، رجل أعمال يدير مكتبا، وعجوز يقضي آخر أيام عمره خلف أحجار الداما يتسلى بها، وطبيب يبحث حالة مريض ما.

فجأة قال الشيخ إبراهيم بعد نحنحة سريعة أطلقها «ما اسمك يا بني..»

« رياض.. رياض يا سيدي..» رد الفتى وهو يعود برأسه إلى مكا نها .

فقال العجوز باسما «جميل... وكنت خائفا أن لا يكون اسمك جميلا مثل وجهك»

« شكرا.. شكرا لك سيدي» رد رياض متوترا وجعل يجلس على الكرسي أمام المكتب امتثالا لرغبة هذا السيد.

كان علاء يقف أمام طاولة الداما يحرك الجراء من الجهتين شاردا وغير آبه تماما لهذا الحوار السخيف الذي يجري أمامه.

« هل عملت في البساتين قبل هذا..»

فرد رياض «لا يا سيدي.. لم يسبق لي أن فعلت ذلك، لكنني

شخص يمكنه التعلم بسرعة»

فقال الشيخ إبراهيم مقربا رأسه قليلا نحو المكتب «لا يتعلق الأمر بالتعلم السريع هنا.. بل بحجم عضلات ذراعك يا بني»

«وذلك أمر أستطيع أن أبرع فيه أيضا..» رد رياض بثقة.

فضحك العجوز قليلا لذلك، قال بعدها «أمممم حسنا، هل لديك أصدقاء قد يرغبون في العمل أيضا.. إنني سأكون سعيدا لو قلت أجل..»

« أجل..» رد رياض «أجل لدي أربعة، وسيرغبون في ذلك حتما.. هل يعني هذا أنه بإمكاني إحضارهم غدا..»

فرد العجوز عائدا إلى مكانه «أجل.. قم بإحضارهم غدا..»

كان يمكن ملاحظة شخصية رياض على أنها شخصية مهزوزة متداعية، لهول الحياة التي عاشتها، ولو أن رجلا عاقلا لا يريد أن يحقر فقيرا لمظهره، لكان سأل عنه كيف عاش طفولته وإذن لاكتشف أسباب ذلك، وما كان ليفاجأ برد فعله حين إخباره بأنه سوف يكون بمقدوره الحصول على ألف دينار في اليوم لقاء تأديته عملا ثقيلا على جسمه الهزيل مثل ذلك.

لم يحدث في نفس الشيخ إبراهيم وهو يرى ملامح الفتى تتفتح إلى أسارير واضحة حين أخبره بنوع العمل الذي سيتوجب عليه تأديته

والأجر الذي سوف يحصله لقاء ذلك أن شعرت بالسعادة، فلقد أدرك أن الحياة قد رفضت للفتى قبل الآن أمنيات وطلبات كثيرة، تماما مثل التي عاشها علاء قبل ذلك، فقال في قرارة نفسه «قد أحتاج إلى حسنة مثل هذه حين أغادر بعد أشهر قليلة..» قال ذلك وانغمس في ظلام عينيه حينا.

بعد ذلك في الخارج التفت رياض إلى علاء حين كانا يهمان بمغادرة البيت وقال متحرجا «إنني سوف لن أنسى لك صنيعك هذا أبدا.. أبدا، بل سأعمل جاهدا على إعادته» قال ذلك وهو يدس يد علاء بين يديه الاثنتين بكل ذلك الامتنان والفرح الذي يقطر من وجهه.

فقال علاء مستعيدا يده «لن تتمكن من إعادة أي شيء حتى لو حاولت ذلك..أنا لست شخصا يعطي ليأخذ بعدها..»

فقال رياض «سنرى ذلك لاحقا... فلا يكفي أنك دبرت لي عملا ظللت أبحث عنه أشهرا طويلة وأنا في أمس الحاجة إليه ، بل لقد أخفيت الأمر عن العجوز ولم تخبره أني سرقت ابنته...» وتلكأ قليلا حين الحديث عن هذا «بالحديث عن ابنته هل...»

فقاطعه علاء قائلا «ليس عليك أن تقلق بشأن هذا.. هي لن تخبر والدها بأي شيء كن واثقا من هذا..» قال ذلك وكانت أقدامهما قد وقفت على رصيف الطريق حين ذلك، ومد رياض يده للمصافحة ،إذ

بدا أن لا داعي لطرح كلام أكثر من ذلك، ثم كان أن مشى كل واحد في حال سبيله.

مضى المساء وسال الظلام سريعا، وفي البيت جلس علاء على مكتب أخيه الصغير يضع يديه بين رأسه، كان العجوز الأعمى يحدث بعض الضجيج في الأسفل وهو يحاول الوصول إلى المكان ليقضي حاجته، فقام علاء وجمع ضلفتي النافذة إلى بعضهما حتى أصبح ظلام الغرفة حالكا كزيت محترقة، ولما يكن ذلك الألم الفضيع ليزول عن رأسه فقد مشى يتحسس الطريق إلى فراشه على أرضية الغرفة، كذلك وجده و اندس بداخله بسرعة، قبل جبين شقيقه ومال على ظهره يحدق في الظلام العالق على سقف الغرفة.

صباح اليوم التالي حضر رياض إلى مكان العمل وسط الحقول وبرفقته أصحابه الأربعة اللذين تحدث عنهم، وحيث أن أعمارهم بدت متقاربة جدا، فإن ملابسهم لم تختلف عن بعضها أيضا، فقط ذلك المدعو سليمان كان يكبرهم سنا وأكثر منهم تأنقا كونه رئيس الجماعة كما بات واضحا، ولم يكن من وقت لإضاعته في التحديق نحو الأشجار أكثر، لقد جعلهم علاء يتبعونه إلى الداخل وألقى عليهم بعض التعليمات السريعة وانخرطوا بعدها في العمل دون إضاعة المزيد من الوقت في غير ما داع.

وحين دقت الساعة نحو الحادية عشرة ألقى كل فرد من الأفراد الإثنى عشر صندوقه أمامه وارتمى فوق أقرب ظل استطاع الوصول

إليه، وكان أثر التعب يملأ وجوههم بوضوح يكفي لرؤيته، إذ أن الحصول على ألف دينار، تلك الألف دينار التي لن ترافقهم لآخر اليوم حتما، يتطلب مجهودا عظيما على الواحد منهم أن يبذله لقاء ذلك، وهو شيء لم يكن رياض وأصحابه قد جربوه قبلا، إذن فقد كان عليهم أن يعودوا في اليوم التالي لمواصلة العمل والتعرض لكل تلك الأشياء مجددا، أشياء كالالتفاف حول أشجار الخوخ والتعرض للغبار المتطاير من أوراقها والحصول على الكثير من الندبات والجروح على الأوجه والأيادي والأذرع كلما حدث أن نشب عراك صغير بين شجرة وعامل بغية الحصول على حبة ثمار بعيدة، كل ذلك تحت حر شمس لاذعة، ومما يزيد الطين بلة هو اختلاط الأتربة والأشواك الدقيقة المتطايرة من الثمار بقطرات العرق المتصببة على أجسادهم وتكون طبقة من الطين اللزج على وجوههم وأذرعهم العارية، مما يسبب لهم حكة شديدة الإزعاج أثناء العمل، فقط بضعة ثواني قد يتمكنون من اختلاسها للخروج من البستان والاغتسال سريعا ثم العودة مباشرة إلى الداخل، ولما كان رياض قد لاحظ شيئا غريبا على وجه صاحبه الذي يعد رئيس المجموعة، فقد عمد إلى سؤاله عما يفكر فيه حين رآه يحدق إلى عدد من علب الدواء المكدسة فوق بعضها إلى جانب الغرفة، فكان رد صديقه أن قال له «أفكر في أن تلك العلب تساوي مبلغا كبيرا من المال يا صديقي..» فرد رياض وهو يعيد إمالة رأسه على جذع الشجرة قائلا وبصوت خافت مثل الذي كان قد تحدث به صاحبه «إنك رجل سيء جدا يا سليمان، وصدقني حين أقول لك

أنك سيء فإني لا أعني إلا ما تعنيه هذه الكلمة.. كيف يمكن لك أن تفكر في سرقة أشخاص قدموا لك عملا في أول يوم لك معهم..» فقال سليمان بابتسامة ماكرة «أنا لا أريد أن أسرق يا صديقي... أنا أريد أن أحيا..» قال ذلك وجمع يديه تحت رأسه فرقد على التراب إلى جانب رياض الذي لم يجد شيئا ليقوله بعد ذلك.

-5-

مر شهر يوليو وجرجر معه أشجار الخوخ والإجاص إلى التعري التام من ثمارها، تلاه شهر أغسطس وسبتمبروأيضا أصبحت أشجار التفاح بلا ثمار هي الأخرى ، وصباح أحد أيام العمل الجيدة، كان على الشيخ إبراهيم وعلاء أن يركبا نحو مدينة الكاليتوس لإلقاء نظرة على سيرورة العمل بداخل غرف التبريد المخصصة لحفظ الفواكه استعدادا لقدوم الشتاء بعدها، كان العمل بداخل الغرف ولصعوبته يرد عادة إلى الرجال سود البشرة اللذين تمكنوا من عبور الحدود ودخول الجنة، أحد أهم الأسباب التي ساعدت الجزائري على توظيفهم هو ما يمتلكونه من صفات جسدية تجعل من العمل أمرا يمكن تأديته بالسرعة المطلوبة، ناهيك عن الأجر الزهيد الذي قد يقبلون به لقاء ذلك، لكن أمر الأجر الزهيد لم يدم طويلا على حاله، إذ اكتشفوا أنه وبالقليل من الجدال غير المفهوم يمكنهم أن يرفعوا مقدار ما يجنونه في اليوم نظير أعمالهم الشاقة وحين أقول أعمال شاقة فلأن التصبب عرقا بداخل غرفة تبريد لا يمكن أن يكون لسبب غير ذلك، من خمس

مائة دينار إلى ألفي دينار أو ثلاثة آلاف لليوم الواحد، لقد وجدوا أن رفع إحدى أوراق الألف دينار في إحدى اليدين مع رفع ثلاثة أصابع في اليد الأخرى سيكون كافيا لإيصال مطالبهم إلى أرباب الأعمال وقد نجحوا في ذلك بمقدار ما تمنوه حقا.

حين دخل علاء والشيخ إبراهيم إلى الغرفة، وكانت تشبه كثيرا ثلاجة عملاقة بعرض خمسة عشر مترا وطول عشرين آخرين، فقد وقفا هناك يراقبان ثلاثة شباب زنوج مفتولي العضلات يقومون برفع صناديق التفاح من الأسفل إلى أعلى، بحيث تشكل كل مجموعة من الصناديق الأكثر انخفاضا قاعدة ومستوى للاستناد عليه، وترتيب صناديق أعلى فوقه حتى لا تبقى هنالك مسافة بين أعلى صندوق وسقف الغرفة على ارتفاع يبلغ ثلاثة أضعاف أطول واحد فيهم، والأمر يعد خطيرا جدا بحيث لو أنه حدث وأن ارتكب أحدهم خطأ أدى إلى ميلان أحد الصناديق ميلا يسيرا أو انفلاته من يد أحدهم وهم متشبثون بها على تلك الحال، إذن لكان وقوع حادث أليم هو الشيء الأكيد الذي سوف يحدث بعدها، فانهيار مئات الصناديق بوزن ثلاثين كيلوغراما للواحد منها يمكن أن يلقي بالعامل إلى حتفه حتى، فهذا العمل وعلى بساطته المتمثلة في ترتيب الصناديق فوق بعضها فإنه يعد من أخطر الأعمال أيضا، وكان صاحب الغرفة رجل قصير القيمة برأس مفلطحة يقف هناك يجمع ذراعيه إلى صدره بينما يراقب سير العمل إلى أن انتبه إلى وقوفهما خلفه فجأة، وما هي إلا لحظات حتى راح يخبرهما بسعادة كم أن العمل يجرى بسلاسة

وأن الفاكهة سوف يتم حفظها بأفضل طريقة ممكنة.. لم يكن علاء مستمعا جيدا لأشياء كهذه، إذ لم يكن في حاجة لتعلم المزيد عن هذا العمل، أو بالأحرى ليس بإمكان الرجل أن يخبره عن العمل شيئا لا يعلمه، أما الشيخ إبراهيم وحتى بعد مرور هذه السنوات في العمل إلا أنه لم يكن يحب تفويت أدق التفاصيل الصغيرة، كأنما يعد نفسه ليدخل عمرا آخر.

ظلا يغمغمان بالحديث نحو بعضهما عند الزاوية، بينما فضل علاء الوقوف بعيدا عنهما، وبينما دس يديه في جيب معطفه من شدة البرد القارص، شردت أفكاره في ما يراه أمامه، حيث يمكن للمرء وهو يشاهد الرجال سود البشرة يعملون بتلك الطريقة، أن يفهم تماما سبب التهجير الذي قامت به أمريكا والدول الأوروبية في حقهم فيما مضى بغية استخدامهم في خدمة أراضيهم وبناء منازلهم، بقدراتهم الجسدية وجلدهم على الأعمال الشاقة دون الكثير من التذمر، فإن أصحاب الجلود البيضاء قد وجدوا فيهم الخلاص الذي طالما بحثوا عنه دوما، دعا صاحب الغرفة أحد العمال ليقدمه إلى الشيخ إبراهيم قائلا «أترى هذا البغل الواقف هنا.. يمكنه أن يعوض عمل ثلاثة من شباب الوطن، إنه يتحدث قليلا ويؤدي الكثير من العمل، فماذا أفعل بأصحاب الوجوه المنيرة هنا، إنني لن أبدله بأربعة منهم..» وكان الوجه الأسود بوقفته البهاء تلك لا يفهم شيئا مما يقوله، ولو أدرك ما يقولانه إذن لقال كلاما لا يريدان سماعه أيضا، لأن حياتهما دوما ما تتضمن الحصول على السعادة، فيما أن حياته لا تتضمن شيئا غير

تقديمها لهما.

مع انتهاء فاكهة الصيف تماما وانقطاعها أواخر شهر سبتمبر لم يعد للعمال سبب يدفعهم للقيام فجر كل يوم والذهاب باكرا إلى تلك البساتين المزرية، أما السلوقي ولطبيعة حياته المنغمسة في العمل أيما انغماس فقد ظل لا يبارح تلك الغرفة الباردة، وحيث أن أغصان أشجار البرتقال قد أثقلتها ثمارها فإن مهمة سقيها باتت على عاتقه، كانت السماء لا تنفك تتلبد عند المساء، إلا أنها لا تمطر إلا شيئا يسيرا، و استمر الحال هكذا أياما عديدة، كان السلوقي إذا حل المساء وأراد الابتعاد عن الحقول قليلا يتمشى مع كلبيه إلى مسطحات العشب الأخضر ليتركهما يلعبان عليها بينما يعقد يديه خلف ظهره ويطلق بصره نحو الشمس الغاربة بعيدا هناك في الأعلى، أحيانا كان يظهر علاء خلفه فجأة، إذ يأتي والشيخ إبراهيم لتفقد الوضع مساء، وكان أن حدثه مرة بشأنه والده العم رابح مخبرا إياه أن العجوز ليس في خير أبدا، بل هو في شر أبدا عكس ذلك، إذ أن عينيه قد انطفأتا تماما ولم تعودا تعرفان متى يكون الوقت ليلا أم نهارا، كما أن ساقيه الزرقاوتان المنتفختان قد توقفتا عن حمل هيكله أبعد من أمتار ثلاثة، فكان أن رد السلوقي قائلا أن محصول البرتقال سيكون وفيرا هذه السنة، وخاليا من الأمراض أيضا، وأن عليه الحصول على مكافئة جيدة لقاء اعتناءه بالأشجار كل ذلك الاعتناء المفرط، قال ذلك وهو يحرك بين أسنانه قشة يابسة.

بعض من طيور المساء لم تكف عن النزول نحو العشب لالتقاط الجنادب والحشرات والتحليق نحو الأعلى ثانية، بينما تطاردها الكلاب لاهية بها على امتداد عشرات الأمتار من مسطحات الكوكيو الخضراء التي تعرض نفسها سلعة للمارين على الطريق السريع بنفسها، لتزين طرقات المدن النظيفة وتفرش حول نوافير المياه وفي الحدائق العامة، وبسعرها للمتر المربع والواحد وفرض أن صاحب العشب لديه عملاء كثر يترددون عليه باستمرار فإن تلك ستعتبر تجارة جد مربحة تدر عليه مالا وفيرا جدا في السنة.

كان الظلام قد اشتد في الخارج حين وصل علاء إلى البيت متأخرا كالعادة، دس أصبعه في فتحة الباب وحرك السلك الذي يفترض به أن يحرك المزلاج بعدها، وضع الأكياس فوق النافورة العطشة ودنى إلى العجوز المتيبس على كرسيه الخفيض وانحنى إليه قائلا «كأنك لا تريد الموت قبل أن تؤدي عملا واقعا على عاتقك..» فأبعد العجوز كوب الزعتر من شفتيه الذابلتين فخرج بخار دافئ منهما وقال مغمض العينين محني الرأس بعد ضحكة شهباء سريعة «ايبي أجل، أجل... لا أريد الرحيل بسرعة، ولست مستعجلا في ذلك.. فلدي بعض الأعمال ينبغي أن أؤديها... مثل طلب الغفران من الله و الاعتذار إلى ولدي..» وقع كلام العجوز ثقيلا. فقال علاء كاتما الغضب الذي أصابه «سيكون ذلك أمرا ستستطيع إنجازه..»

« في الحقيقة تلك هي كل أعمالي العالقة..» أردف العجوز ذلك

ثم وضع الكوب على الأرض وكان لا يزال مملوءا عن آخره وقام يتكأ على عصاه وساقاه ترتعشان كأنما الجليد تحتهما وأخذ يسحب يده على الجدار متوجها إلى غرفته حين توقف بعد خطوتين قام بقطعهما «ذكرني أن أدون في وصيتي شيئا يضمن حصولك على طقم أسناني بعد موتي لتتذكرني..» قال ذلك وأطلق ضحكة مكتومة، وكانت فيها حشرجة ألم كأنما تتدحرج الرمال في صدره، فقال علاء وهو يعتدل واقفا خلفه «دعنا نرى من سيكتب وصيته أولا..»، فرد العجوز بصوت اختفى آخره خلف باب الغرفة «أجل، أجل... أجزم أنه يمكنني التفوق عليك في ذلك أيضا...» والتقط علاء من ذلك ما أمكن التقاطه، وحين نظر خلفه بعد ذلك، كانت العمة عائشة تقف على عتبة باب المطبخ تسند كتفها إلى الإطار الخشبي بجانبها، و نظرتها الدامعة تبين كثيرا مما لا ضرورة لقوله، فكان أن حركت رأسها تأسفا وعادت دون أن تقول شيئا إلى الداخل، بدا وكأنها تريد البكاء بصمت لوحدها، إذ أنها تمكنت من سماع كل ما كانا يقولنه، وإن ذلك قد ذكرها بأشياء عدة تدعوا المرء ليحزن.

في الركن البعيد من المدينة. قام الشيخ إبراهيم عن فراشه ووقف تحت سقف صغير يغطي عتبة الباب حين وضع قدميه عليها، ولو أنه تحرك أبعد من ذلك نحو الأمام خطوة واحدة، إذن لتبللت أقراص الدواء في يده قبل أن يتناولها، إذ أن الساعة قد دقت منتصف الليل تماما، و تجمعت سحب كثيرة في الأعلى حجبت القمر والنجوم معا، وأظلمت على إثرها الدنيا كأنما صبغ الفراغ بزيت مركبات محروقة ،

حتى لقد راحت الغيوم تعصر مطرا كثيرا فجأة ودون إنذار مسبق، ألقى بواحدة منها في جوفه ودس العلبة في جيب معطفه الشتوي الدافئ بسرعة، إذ أن وقع أقدام خفيف يهبط الأدراج من خلفه قد تناهى إلى سمعه فجأة فجمع أطراف معطفه والتفت واضعا على وجهه ابتسامة عظيمة.

« أمازلت مستيقظا يا أبي..» قالت نسمة وهي تضع قدميها الملفوفتين برأسي أرنبين صوفيين دافئين على الأرض بينما تمسح عينيها من أثر النعاس المتجمع فيهما.

فقال الشيخ إبراهيم مبديا أمارات اندهاش حين قول ذلك «هل أنا الذي لازلت مستيقظا !!..»

و إذ بدا أنه محق في كلامه فقد ردت ابنته قائلة «صح.. احتجت لشرب الماء فقط.. لا أدري لما استيقظت وأنا أشعر بالعطش.. مع.. أنها تمطر كما أرى..» وإذ ذاك دوى صوت رعد عنيف في الأعلى ولمع ضوء برق على مسافة بعيدة، لكنه أنار جزءا كبيرا من السماء الماطرة، واختفت نسمة بداخل المطبخ وما هي إلى لحظات حتى ظهرت تحمل بيدها كأس ماء مرة أخرى، «ليلة طيبة..» وإنما قالت ذلك وجعلت تصعد الأدراج كرة أخرى، فيما التفت الرجل إلى الظلام مكسور الخاطر محبطا، فلكم تمنى لو أن صوت الرعد أخافها وجعلها تركض إلى حضنه في تلك اللحظة، إنما لم يفعل، لم يحدث ما تمنى. كذلك جمع يديه إلى بعضهما خلف ظهره، وجعل يحدق

إلى انعكاس وهج المصباح فوق رأسه على خيوط المطر النازلة من الأعلى، ووحده صوت الرياح الذي كان يسمعه حينها، صوت الرياح وهي تهرب إليها من نفسها.

كان صباحا باردا، رطبا وبهيجا رغم ذلك، ذلك الصباح الذي استيقظ فيه علاء بعد مضي شهر على دخول الشتاء القارص، لبس معطفه الأسود وأجمع أطرافه إلى بعضها بأزرار سوداء كبيرة ولف وشاحا دافئا من الصوف الرمادي حول رقبته وأسقط القبعة على رأسه، ثم جعل يقف أمام المرآة لأربعة ثواني دون أن يفعل شيئا. ذلك وراح ينزل الأدراج الحجرية هابطا نحو الساحة الكبيرة بينما يطلق من فمه طلقات بخار دافئة، وكان الجزء الأزرق في السماء أزرق جدا بينما الجزء الأبيض يبدو كلفائف من القطن الذي تم غسله منذ مدة، ناصعة البياض كانت السحب تبدو دون حراك واقفة في أماكنها، ذلك أنها قد عصرت بما يكفي حين كان الظلام يخيم على المدينة قبل سويعات قليلة، لما بللت أسقف البيوت وجدرانها والأزقة والشوارع وعلب الكرتون على الأرض وكل شيء لا شيء فوقه، حتى أن بعض القطط أخذت تخرج من حاويات القمامة فجأة و تمر أمامه باردة وحزينة.

أدخنة السجائر كانت ترتفع مع أنفاس كل من كان يقابله تقريبا، تحت تأثير البرد كانوا يفعلون ذلك، كأنما السجائر باتت وصفة طبية يتوجب على الجميع شربها باختلاف أعمارهم للوقاية من الزكام،

وحين كانت تقوده قدماه قرب أحد المقاهي الرابضة تحت بناية مرتفعة، كانت أذناه المخبأتان تحت الوشاح لا تكفان عن سماع نفس الحديث الذي كان يدور في المقهى الذي قبله، فلا يخرج حديث الصباح عن دائرة أصحاب البدلات المبتذلة وربطات العنق، أو عن هيجان البحر واستحالة الخروج إلى الصيد، و عن استقدام مولودية العاصمة للاعب جديد بمبلغ أربع مائة مليون سنتيم، أو أي أشياء فارغة أخرى.

حين وصل علاء إلى الساحة كانت المدينة قد استيقظت بما يكفي، وانصب المارة في الطرقات وارتفعت أصواتهم، ولما كان لا يترقب انضمام أي شخص إليه في تلك اللحظة، فقد شرد واقفا يحدق إلى طيور الحمام الجائعة وهي تلتقط طعامها وسط الساحة، لم يدم انتظاره طويلا، لقد سمع صوت بوق السيارة بعد لحظات قليلة تلت تلك الوقفة. و ساعتين هو كل ما تطلب من الوقت لتدخل عجلات السيارة الوحل بعدها، بجانب صف من أشجار الصنوبر على امتداد مائة وخمسين مترا، ملاصقا تماما لبستاني الخوخ والتفاح السابقين، وكان الطين المتراكم إثر تساقط الأمطار الكثيف الذي شهدته الليلة الماضية قد منع السيارة من التقدم أبعد من ذلك، فكان عليهما أن يجدا مواضع لأقدامها فوق العشب المبلل من أجل الوصول إلى الداخل، وفي غرفة البستان كان أثر دخان خفيف ينبعث من النافذة المفتوحة، وحيث يفترض أنهما يتوجهان إليها خلال ذلك فقد كان يمكن دوما إيجاد بعض الأشياء التي يمكن من خلالها التغلب على

هكذا مشكلة، إن أحذية مرنة ذات أعناق طويلة هي كل ما قد يحتاجانه لذلك، رفع السلوقي عصاه عن موقد الخشب الذي قام بحفره وسط الغرفة، وجعل يفسح مكانا لهما فمجرد ارتداء تلك الأحذية الباردة قد بعث بردا شديد في أيديهما، وقال الشيخ إبراهيم ملقيا بيديه نحو النار أمامه «هل أفرغت قارورة الغاز عن آخرها..» قال ذلك إذ أن فرنا ذا شمع مركب على رأس قارورة غاز كانت مسحوبة إلى الزاوية هو ما كان يفترض أن يجداه يشع نورا عند قدمي السلوقي وليس حزمة حطب تبعث الكثير من الأدخنة، قال السلوقي بينما يدس عصاه بين الجمر يحركها «لا، هي ليست فارغة... أحب استعمالها في الليل فقط، فلا شيء يمكن أن يحل محل الحطب..» فقال الشيخ إبراهيم موافقا «آاه حسنا، لديك حق في ذلك... وماذا تفعل بنا المدافئ المنزلية غير أنها تصرعنا..» وخيم صمت طويل عليهم، قاطعه علاء قائلا «هل ألقيت نظرة على الأوراق منذ آخر مرة كنا هنا، هل ظهر أي أثر للطفيليات عليها..»

« أجل..» رد السلوقي بوجه دافئ «فقدتها مرات عدة، كلما وجدت فرصة للخروج من الغرفة ..لم يظهر حتى الآن أي شيء عليها..»

ابتهج وجه الشيخ إبراهيم إثر سماع ذلك، وإذ ركبه الحماس فقد غمغم قائلا «لا شيء يقدر على غلبنا، ما دام علاء معنا... لا الرياح الصفراء لا الحشرات لا الطفيليات ولا البكتيريا...» ولما لم يجمع أحدا إلى صفه، فقد رفع يديه عن اللهب وجمع ياقة معطفه حول رقبته

والتلفت إلى الخلف عائدا «سأنظر إلى شجرة الليمون قليلا..».

اختفى العجوز في الخارج فالتفت السلوقي إلى النار قائلا «هل هو بخير.. يبدو مبتهجا أكثر من اللازم، أم أن الطبيب أدرك خطأه الذي قام به في تحليله وقدم له اعتذارا» فرد علاء قائلا « لا يوجد أي خطأ، التحاليل صحيحة أكثر من اللازم.. منذ قدوم الشتاء لم يعد جسده بتلك الصلابة التي كان عليها، حتى أنفاسه باتت مسموعة... وإنما يتصرف هكذا كي لا يكشف نفسه بطريق الخطأ أمام ابنته..»

«يصبح الأمر معقدا حين تدرك أنك بت قريبا من نهايتك، هاه..»

« لا..» رد علاء شاردا ووهج النار يصطع في عينيه «بل يصبح أكثر سهولة، لأنك لن تغرق في الخوف حتى لو رأيت نيزكا يهبط باتجاه رأسك بعدها... الأمر بهذه السهولة، إنك تسلم نفسك لكل شيء يأتي، تضع كل ما يغضبك، كل ما يحزنك، وكل مخاوفك خلف ظهرك وتعري صدرك لذلك الشيء القادم، أنت تدري أن لا مفر منه أبدا..»

فقال السلوقي وقد اعترته دهشة عظيمة «لكنه يتعمد تعريض نفسه لذلك، بأن لا يتبع تعليمات طبيبه إنه لا يحاول الهرب حتى..»

« ذلك هو الأمر برمته.. أن لا تبحث عن الشمس منتصف الليل. لأن الظلام يغطى كل شيء حولك، إنه شيء لا يمكن الفرار منه أبدا.. هنالك أمراض لا يمكن علاجها..يمكن فقط أن تؤخر، وذلك سوف

يجعلك تجن من التفكير ليس إلا، أتدري.. يصبح الأمر رهيبا.. رهيبا جدا «

« لكن كيف تعرف ذلك، إنه لم يخبرك بما يحدث في قلبه أليس كذلك...»

« لا، لم يخبرني..» قال علاء وقام عن مكانه «لم نتحادث في الأمر حتى، لكنني أعرف ذلك , أعرفه جيدا...» قال ذلك ومشى يدس يديه في معطفه نحو الخارج.

خلف أوراق الشجر كان الشيخ إبراهيم يبدو سعيدا بما يراه ومبتهجا، وتعلو وجهه وهو يحرك حذاءه الذي اعتراه الطين _ حتى تضاعف وزنه أضاعفا _ ابتسامة رضا عظيمة، ولما قام بالتفاتة حول نفسه فقد رأى ثمار برتقال غفيرة تسعد الناظرين وأسر لمسها ومسح قطرات الماء عنها، دنى علاء منه بتلك الخطوات الثقيلة على الطين فالتفت إليه له العجوز بحماسة «لن يقل إفراز الشجرة الواحدة عن ستة صناديق أليس كذلك..»

فرد علاء بثقة «بل ثمانية.. أو عشرة..» وكم كان يشعر بدوره بالرضا عن نفسه لما أثمرته جهوده المتمثلة في إلقاء السماد حول جذوع الأشجار ورش المبيدات الحشرية على الأوراق وتأدية بعض الخدع الخاصة للنجاة من التعرض للأمراض الموسمية.

مع اقتراب منتصف النهار بدأت صفحة السماء تتلون وتتشح

بالسواد إيذانا بهطول المطر، ولما كانا قد تركا حذاءيهما الوسخين أمام جدار الغرفة، فقد راحا يشقان بالسيارة طريقهما عبر أسطول من المركبات الأخرى التي كانت تتدحرج عجلاتها بهدوء على الإزفلت الزلق، وما هي إلا لحظات حتى انفلتت السماء باكية، ونزلت خيوط المطر على الزجاج الأمامي للسيارة، ولم يكن الشيخ إبراهيم قد حرك مبدل السرعات نحو الأعلى إلا مرات ثلاثة، بسبب سوء الطريق وخطورتها، وفيما كان شرود كئيب يرتسم على وجه كل منهما، وكالعادة فصوت المذياع الرهيب وحده الذي كان يعود بهما إلى نفس هذا الحقبة من الزمن.

وبينما يحاول المذياع أن يخبر سائقي المركبات كم أن القيادة بهدوء هذا اليوم سيكون أمرا ذكيا، فإن سيارة مرسيديس بيضاء رياضية قد ظهرت من الزحام وجعلت تسير على مقربة منهما فجأة، ولما كانت عينا الشيخ إبراهيم مثبتتان على الطريق فقط كان لهما أن تقعا عليها من أول لحظة، ولما كان لهما أن تقعا عليها من أول لحظة فإنه قد كان لهما أيضا أن تقعا قليلا على لوحة الترقيم المثبتة عليها، ولما كان لهما كل ذلك، فقد عرف الشيخ إبراهيم لحظتها ما تكونه السيارة، وما يكونه صاحبها، وما سوف قد يكون بعد لحظة، إن هو علاء قد وقعت عيناه أيضا عليها، فخفق قلبه متألما، وأحس بينما يحاول متوترا أن يخفف سرعة سيارته كي يتأخر عن المرسيدس فلا يمكنه رؤيتها أن عددا من الجرذان الجائعة تقرض معدته من الداخل، لكن اتضح أن محاولته كانت فاشلة، إذ أن زحاما شديدا في الأمام جعل

كل المركبات تهدأ تماما عن الحراك وتقف إلى جانب بعضها.

وكان التوتر قد استفحل على وجه العجوز حين باتت سيارة المرسيدس لا تبعد عنهما إلا أمتارا عديدة في الأمام وعلى مرمى النظر، علاء لم يكن قد أبعد رأسه عن النافذة وظل يراقب عبر الزجاج الجانبي منظر المدينة الباردة، وكان المطر وحركة الماسح على الزجاج يصدران أصوات تبعث على أن يدخل الواحد في دوامة من الأفكار لا يعد أمرا سعيدا الخروج منها، كذلك راح علاء يميل رأسه نحو الزجاج محدقا كأنما غير واع بما يحدث حوله.

نوافذ المرسيدس كانت عاتمة مغلقة ولا يمكن رؤية ما بداخلها، وكان صوت موسيقى صاخبة ينبعث منها، وهي متوقفة على تلك الحال تغسلها القطرات، إلى أن رفع علاء رأسه إلى رأس الكرسي فجأة، وظل يحدق إلى الأمام غائبا للحظات أدرك بعدها ما كانت عيناه قد وقعتا عليه حينها، ولما حدق إليها بما يكفي متمعنا، وإنها كانت لفترة قصيرة جدا، فقد وضع يده على قفل الباب وإذ بشق كبير يظهر بين الباب وهيكل السيارة، أحس الشيخ إبراهيم أن ذلك الشق قد حصل في صدره من شدة الألم الذي أصابه، فقد كان يعلم إن هو سمح لعلاء أن يضع قدميه خارجا، أن دم شخص ما سوف يختلط على الطريق مع المياه التي تجري عليها، وفي تلك اللحظة

التي تلت فتح علاء باب السيارة تحركت سيارة المرسيدس قليلا عن مكانها، وكذلك راحت باقي المركبات تتحرك خلفها، هنا أعاد علاء غلق الباب منفعلا وصاح قائلا في العجوز أن يتحرك أيضا ويقوم بتتبع ذلك النذل الذي يقودها.

وتنحت المركبة السوداء رباعية الدفع عن مكانها وجعلت تدخل المسار الثاني بتهور جعل عددا من مزامير المركبات الأخرى ينطلق من الخلف احتجاجا على تلك الفعلة السيئة، فرفع الشيخ إبراهيم يده عبر النافذة معتذرا عن تصرفه الغير مسئول وعاد يقود ثانية بعد أن اقترب من المرسيدس قدرا يسيرا، ومضت دقيقتين وهم يزحفون بتثاقل على تلك الحال إلى أن انفلتت المركبات من جمودها وراحت تسرع كأنما تحررت من شعاع خفي مثبط فجأة، فكان لعلاء أن يرى السيارة البيضاء وهي تهرب نحو الأمام مبتعدة. بما أن مسارها قد أصبح سالكا، فيما كانا واقعين في شباك مسار لم يزل مكتظا حتى تلك اللحظة، ولم يكن منه إلا أن أطلق شتيمة سريعة وعاد يسند رأسه إلى رأس المقعد متنهدا.

ابتعدت المرسيدس بما يكفي واختفت، ولم يكن أحد سعيدا بالأمر إلا الشيخ إبراهيم لما أطلق تنهيدة غير مسموعة، لأن لا شيء غير ما حدث كان يأمل حدوثه، ولما ألقى على علاء نظرة سريعة،

فقد وجده مغمض العينين كأنما راقدا، إلا أن صدره كان يرتفع ارتفاعات وينخفض انخفاضات تدل كثيرا عما كان يحدث بداخله، فأحكم قبضتيه على المقود وعاد يبحث عن منفذ يمكن الإفلات من بين المركبات عبره.

-6-

مر أسبوع كامل بعد تلك الحادثة، ولم يزل علاء يبحث عن سيارة المرسيدس في كل مركبة بيضاء تمر بقربه، دون أن يوفق في ذلك، فلم يكن منه إلا أن انكب على حسرته عابسا على ما فاته، وكان يوما صحوا باردا ذلك الذي وقف فيه قرب أشجار البرتقال إلى جانب الشيخ إبراهيم على السابعة صباحا يراقبان إفراغ شاحنة ضخمة من الصناديق البلاستيكية بجانب الغرفة، ومع بروز أول ضياء للشمس دلف العمال على الاستياء الذي هم واقعون فيه وفي أيديهم مقصات حديدية وعدد من تلك الصناديق نحو أشجار البرتقال المثقلة بالثمار والندى البارد على أوراقها، ولم يكن شيء يثير سخطهم ويدفعهم للسباب أكثر من الأرض السبخة تحت أحذيتهم البلاستيكية الطويلة لما تتجمع الطين عليها فيزداد وزنها عن ثلاثة أرطال في كل جانب، فيكون عليهم بعد ذلك جرجرتها عبر الوحل وبرك المياه حول الأشجار والأعشاب الطويلة المبللة التي تعيق حركاتهم، ناهيك عن سقوط قطرات الندى على أجسامهم، وتدحرجها باردة على أذرعهم

وظهورهم، فا للحافات البلاستيكية التي يغطون بها أجسادهم لا تقدم شيئا مما يرام منها بسبب الثقوب الكثيرة فيها، ناهيك عن الخدوش التي تصاب بها أيديهم من أثر الأشواك البارزة على الأغصان أمام وجوههم، أحد العمال وإذ كان يهم بإخراج خامس صندوق له. وكان لا يزال في عنقه عشرين آخرين. فقد التصق حذائه بالطين وحال دون إتيانه بتلك الخطوة التي أرادها، فكان أن سقطت يداه على الطين وركبتاه وتبعثرت حبات البرتقال أمام عينيه بعدما استقر الصندوق الفارغ إلى جانبه، وكان ذلك شيئا يبحث على السباب بحق، كذلك أطلق الرجل شتيمة فرعونية وعاود النهوض مجددا، جمع حبات البرتقال في الصندوق ورفعه على كتفه وراح يجرجر ساقيه الثقيلتين على الطين والعشب المبلل، ذلك صاحبي العمل يتجولان في مكان قريب بين أشجار الليمون الفارعة يتفقدانها.

مع دنو الوقت إلى العاشرة، عادت السحب تقطر مرة أخرى، وما هي إلا لحظات حتى انفلتت بكامل ثقلها على أوراق الأشجار ورؤوس العمال المغطاة بقلنسوات رقيقة، كان اندفاع الأمطار مهيبا بحيث بدت القطرات كأنها خيوط متواصلة تربط بين السماء و الأرض، واضطر العمال إلى الإسراع في إخراج الصناديق التي يزن الواحد منها ستين رطلا وسط كل تلك الأوحال المتعبة، بعد نصف ساعة خرج العمال من البستان عن آخرهم، منهكين بأنفاس مخنوقة وأضلع متألمة، وحين دلفوا جميعا إلى الغرفة الواسعة فقد بدوا تمما كدستة من القطط المبللة المتشردة، أحد العمال كان قد أنهى عمله قبلهم

وخرج باكرا، لذا توجب عليه تجهيز حساء ساخن لرفاقه لقاء ذلك، وما هي إلا لحظات حتى كانوا يحوطون عدة أطباق يتصاعد البخار منها والروائح الطيبة على بساطتها، أما علاء فوقف عند المدخل يراقب رياض كيف يقوم بخلع حذائه الطيني بتذمر يائسا ومنزعجا من الأمر برمته، ولم يكن ليلومه على ذلك، إذ أن حياة كهذه قد عاشها سابقا وذاق ما ذاق منها، وهو يدري الآن أتم الإدراك وهو يراقب صديقه بتلك النظرة اليتيمة حجم التعب والسخط والانزعاج الذي هو واقع فيه لحظتها، لقد كان يشفق عليه حقا، إلا أن إدراكه كم أن هذا الأمر مؤقت ليس إلا. كان هو الذي دفعه لتحريك نفسه بعيدا راسما على وجهه قليل ابتسامة حاول إخفائها، وارتفع مزمار السيارة في الخارج بعد ذلك فكان أن حان وقت العودة نحو المدينة.

مساء اليوم مع اقتراب الوقت إلى السابعة، راح الظلام يرتمى على البلد شيئا فشيئا حتى غطاه بالكامل، والمطر لم يكن قد توقف إلا لفترات قصيرة مستقطعة، كأنما تفعل السحب ذلك لتسترجع أنفاسها، وعينان دافئتان كانتا تقفان خلف زجاج نافذة ضيقة، تحدقان إلى العالم في الخارج، العالم الشرس الذي يبدو كأنه لا يحب بعض ساكنيه ويسعى جاهدا كل صباح ليدفعهم إلى الرحيل عنه بشتى الطرق الممكنة، كل السواد في الخارج و عصف الرياح المختلط بصوت هطول المطر، لا شيء يبعث على التفاؤل إلا الأفكار المختلقة من العدم، لكنها كبيرة وساذجة، على الأقل أكبر من أن يحققها شاب فقير عجي لا يملك من الدنيا شيئا، كذلك تسمرت

عيناه في مكانيهما وهو يحدق نحو الخارج، وكانت طقطقات أحجار الدومينو على الطاولة وسط الغرفة تقطع حبل أفكاره بين لحظة وأخرى، إلى أن التفت إلى أصحابه الأربعة وهم منكبون في اللعب أيما انكباب صارم، وكان صوت سليمان قائد المجموعة ذلك الذي تحدث فجأة قائلا «كيف كان نهارك اليوم..»

فرد رياض لما التفت كأنما سؤال سليمان أحرق شروده فجأة، «ماذا !..»

« عن العمل» ردد سليمان قائلا «اسألك عن العمل... كيف وجدته في ظل كل هذا المطر..»

فرد رياض «آه، أجل... إنه بالتأكيد ليس شيئا تود سماعه..»

«إذن أحزر أن قرارنا بالانسحاب بعد انتهاء فاكهة الصيف كان صائبا..»

« أجل. كنتم محقين جدا... ولو لم أكن في حاجة ماسة له، إذن سأكون مجنونا إن أنا ذهبت إلى هناك مجددا..»

فقال سليمان بصوت فيه رأفة «أجل، إنك بحاجة إلى مواصلة هذا العمل أكثر من أي واحد منا، ولا ينبغي عليك تركه قبل أن تتم المبلغ الذي تحتاجه..»

« وهذا تماما ما أنوي فعله..»

« أما من جانبي، فلدي ثلاثون ألفا لست في أمس الحاجة إليها الآن، يمكنك أخذها...» كان هذا أحد الصحاب الأربعة وهو يجلس على الطرف المقابل من الطاولة، وإذ بالذي على اليسار ينطق قائلا «وأنا لديعشرون ألفا..» أما الثالث فقال متأسفا «أما أنا فليس معي إلا ثمانية آلاف دينار يا صديقي.. اعذرني»

ولما كانت الدهشة قد ألجمت رياض عن الإتيان بأي حركة أو قول بعد سماع ذلك، فأن سليمان عدل عن ضرب الحجر على الطاولة وقال محدقا إليه بنظرة ساحقة «ماذا.. أتظن أنها من أموال السرقة!... أبدا إنها ليست كذلك، لقد احتفظنا ببعض ما جنيناه في العمل لأجل هذا، أنه مال حلال يا صديقي.. مال حلال خالص» قال ذلك وهو يحبس يديه في الهواء، ثم ضرب الطاولة وعاد للحديث قائلا «أما عني فلدي اثنين أيضا لا غيرهما.. لقد تحدث أربعتنا في الأمر مسبقا، نعلم أنك ستحاول رفض ثمانية ملايين من أصدقاء يمتهنون سرقة الجيوب لكسب قوتهم، مع أنني أوضحت لك قبل لحظة، كم أنها نقود يحل أكلها... إنه ليست لديك أي فرصة لرفضها، ولو كلفنا ذلك إشباعك ضربا...» ولما أنهى كلامه فإن عينيه عادتا للدوران بين الأحجار البيضاء المخبئة بين أصابعه، وكل الرؤوس الثلاثة الباقية كانت خاشعة في اللعب أيضا، تاركة رياض بوقفته تلك يتخبط في دوامة أفكاره، حتى لقد أحس أن دماغه تشنج تشنجا عنيفا، فبمقدار فرحه بتعاون أصحابه إلا أن فكرة أن ما قدموه وما تمكنه من جمعه حتى للآن ليس قريبا ولا حتى يقترب من أن يكون قريبا من المبلغ

الذي يحتاجه لم تدع له الفرصة للفرح بذلك، ولما سمع صوتا ضعيفا يناديه من الغرفة المجاورة، فقد مسح عينيه براحة يده وهرول نحو باب الغرفة، فقط شيء من الدمع يلمع علي يده اليسرى هو الذي قد بقي ظاهرا من تلك المحادثة، فأصحابه قد انكبوا على اللعب كرة ثانية، فيما دفع الباب بهدوء ودلف إلى الداخل راسما على وجهه ابتسامة بلاستيكية. ولقد كانت فتاة صغيرة تلك التي كانت في انتظاره.

في منزل الشيخ إبراهيم وفي غرفة الضيوف تحديدا، جلس الجميع كل في مكانه على أرائك طرية مغطاة بأجود أنواع الجلد الفاخر، وإذ كانوا يجلسون بهدوء منصتين للفراغ حولهم، فلأن لؤي قد رفع ثقب الناي إلى وجهه وجعل ينفخ فيه برئتيه الصغيرتين بحنان وروية بالغة، وكان علاء يجلس إلى جانب الشيخ إبراهيم كعادتهما، فيما تأخذ نسمة مكانها غير بعيد عن الصغير إلى جانبها فيما تحرك أصابع يديها بخفوت على أوتار القيثارة مصدرة رنينا غائبا يتأرجح بين ثنايا صوت الناي الحاذق، أما الخادمة بجسمها الممتلئ فكانت تسقط بتثاقل على أريكة منفردة بين المجموعتين لوحدها، تجمع يديها الفارغتين في حجرها فيما تحدق إلى البساط القطني المزركش على الأرض منتظرة اللحظة المناسبة لتطلق العنان لحنجرتها المنتفخة، والريح تعصف في الخارج محدثة صفيرا رهيبا اختلط بالأصوات المنبعثة من أدوات الصغار في تناسق غريب بدا مخططا له منذ البداية.

وكذلك قطرات المطر ظلت تضرب زجاج النافذة ضربا عنيفا وتدقها ثم تنزل متعرجة نحو الأسفل فيما تنكسر أضواء الخارج في رسمة بديعة عليها.

ذراعا علاء كانت مربوطتين على صدره فيما يستند برأسه على الأريكة، يحدق إلى نسمة تحديقا متواصلا غائبا فيها، و فنجان من الشاي الأحمر إلى جانبه يتحرك بين يد العجوز وشفتيه فيصعد تارة ويهبط تارة أخرى فيما يكبر جزءه الفارغ على حساب الجزء المملوء بين كل رفعة وأخرى.

ولا ننسى موقد الفحم الواقف هناك بداخل الجدار على الجهة الأخرى، إذ يبعث دفئا لطيفا وصوت فرقعات خافتة تبعث على النعاس بسرعة، وكانت عينا العجوز الخشنتين المغطاتين بكومتين من الشعر الأسود الأبيض تنظران إليه وتبثان إلى هناك كل تركيزهما، كذلك أدفأت الغرفة إلى أن نطقت الخادمة فجأة.

Yağmur ağlıyor ikimiz için,

يبكي المطر لأجلنا نحن الاثنان

Hem ağlıyor hem siliyor maziyi

يبكي وفي نفس الوقت يمسح الماضي

Kaderimdin ,hayâl oldum şimdi,

كنت قدري والآن أصبحت خيالا

Aşkımız bitti masallar gibi

انتهى عشقنا مثل قصص خيالية

Kıymetini bilemedim,

لم اعرف قيمتك لم اعرف لم اعرف

Seni nasıl çözemedim

كيف لم استطع أن أحلك

Bugün resmini indirdim duvardan,

اليوم أنزلت صورتك من الحائط

Duvar ağladı ben ağladım

بكي الحائط وأنا بكيت

كان صوتا شجيا، مثخنا، ثقيلا، اختلط بعطر الناي ورفرفات القيثارة، تماما مثلما يبغي العجوز أن يكون ، كرشات من عطر الياسمين، والبهار والكولونيا، وكل ما تطيب النفس إلى شمه أو سماعه، راحت نغماتهم تطفو تحت الأرائك وعند الزوايا وقرب سقف الغرفة، وإذ حرك علاء عينيه غائبا، بعيدا عن الفتاة الجميلة، فإنهما قد وقعتا

على شفاه الخادمة، وكانتا مبللتين عن آخرهما، والخادمة تواجه أثناء تحريكهما للغناء صعوبة في استرجاع أنفاسها، بسبب الشحوم المتراكمة على جسمها، لقد كان يراها ولا يراها، كأنه كان قادرا على سماع صوت احتراق الفحم رغم كل الأصوات الأخرى، محاولا بتلك النظرة النائمة أن يتحصل على صورة واضحة لما يحاول رؤيته، لقد كان يرى فيها شيئا ما، شيئا يحاول المجيء والذهاب في وقت واحد، ينبثق ويختفي. ربما امرأة يعرفها، وجه والدته الميتة، وكيف كانت شفتاها الرطبتين تقبلانه يوميا قبل أن يأخذها الموت هناك خلف الجبل، وحين أعاده صوت الخادمة إلى الغرفة مجددا فقد آسفه ذلك وأحزنه، لكن وجهها كان لا يزال يحتفظ له بهدية أخرى، إنه بين كل تعرج على ملامحها استطاع في لحظة ما أن يرى دمعا تلألأ في إحدى عينيها الناظرتين نحو الأعلى، كانت ترى ملاكا يعطيها بشارة ما، ولقد كان ذلك يشبه كثيرا نظرة والدته على فراش الموت حين استودعته قبل أن تفيض روحها جراء مرض لم يكن لوالده القدرة على مصارعته أكثر، فقد كانت النقود أمرا جوهريا بين ذلك الصراع الذي دار بينهما. كانت النقود أمرا جوهريا وكان جيبه كثير المسكنة.

حين استعاد علاء وعيه بعد دقيقتين كان الشيخ إبراهيم يجمع يديه خلف ظهره أمام النافذة يحدق إلى رؤوس الأشجار وهي تتمايل تحت ضرب الريح في الحديقة، لؤي كان يمسح فم الناي بمنديل في يده الأخرى، أما نسمة فعانقت قيثارتها وأمالت عليها رأسها وهي تشعر بنعاس شديد بسبب من الحرارة المنبعثة من الموقد المشتعل،

وسال شعرها الأسود على وجهها مخفيا إياه وكان بديعا جدا، فيما همت الخادمة برفع طبق المكسرات من على الطاولة، خيم صمت رهيب على الغرفة كأن لا أحد فيها، كل مشغول في شيء ما أمامه، أو ربما بنظرة استرسال طويلة نحو شيء ما، وصوت رقاص الساعة على الجدار وحده الذي كان يشق الصمت ويقطعه بين ثانية وأخرى، وحين انبعث من المطبخ صوت انزلاق صحن من يد الخادمة، فإن أحدا لم يكترث لأمره بعد ذلك.

كانت سماء صافية. مرشوشة بزرقة بديعة تلك التي أفاق الناس عليها صباح يوم آخر، وجميلة جدا، ساطعة شمسها الحمراء وهوائها عليل بارد، وأطلت الطيور بأجسادها الصغيرة تغرد فوق مسطحات العشب الأخضر، هناك حيث وقف السلوقي بحذائه الوسخ بالطين و بنطاله البني الدافئ وسترته المغلقة من كل جانب حدق إلى كلبيه اللعوبين بينما يحرك عصاه خلف ظهره كذيل يابس، طارت الطيور فوق الكلبين وتمرغت في السماء قليلا ثم هبطت على أشجار التفاح الفارغة مرة أخرى، وهم رياض بارتداء حذاء العمل الطويل حين لاحظ اقتراب شخص ما خلف ظهره، ولما كان ذلك فقد التفت واقفا، وكان علاء ذلك الذي وقف أمامه عند السور الغربي للغرفة، بدا من عينيه المريبتين أنما يود الحديث حول أمر ما قبل انطلاق العمل، ذلك ما اعتقده رياض في نفسه، علاء قال فجأة «هل كان عليك حقا أن تتركني لأكتشف الأمر بنفسي !!..»

رياض رد بانفعال ودهشة «أتركك لتكتشف ماذا ؟..»

ولم يرد علاء جوابا، إنما تحسس شفتيه ببعضهما ورفع رأسه للأعلى متنهدا، وإذ بدأ رياض يتوتر لحظتها فقد ابتلع ريقه بينما يجيل الطرف حوله باحثا عن الشيخ إبراهيم وهمس قائلا «لقد وعدتك أنني لن أعود لارتكاب مثل تلك الخطيئة يا علاء... وإنني لم ولن أخلف بوعدي..أبدا..»

ولم يبدي علاء تجاوبا للمرة الثانية، لكنه قال بعد لحظة صمت ظلت خلالها عيونهما تحدق كل اثنتان داخل التي تقابلها، لقد نطق قائلا «الواقع أنني أجريت بعض التحريات عن شخصك.. وقد قادني هذا إلى معرفة أمر ما.. أمر لم ترد أن تخبر به أحدا، ولست في موقعي هذا أرى سببا وجيها لذلك..»

هنا ارتعش جسم رياض رعشا خفيفا، من الداخل، وظل صامتا يجمع شفتيه إلى بعضهما ولا يدري ما يقول أو ما يفعل، حتى لقد راح يبدد تلك الفكرة، بل ويحاول في ذلك جاهدا، إلى أن نطق علاء مرة أخرى «ندى..» ورفع رياض عينيه لأعلى بينما أردف علاء قائلا «أختك الصغيرة... أسمها ندى، أليس صحيحا».

«أجل «رد رياض بتلقائية، كأنما بغير إرادته. أنما لم تكن له رغبة لقول ذلك « اسمها ندى» قال ذلك وعاد يسقط رأسه على صدره ثم جمع أصابع يديه بقوة «هل رأيتها !..» وسقطت لؤلؤة ساطعة

من وجه نحو الأسفل، واستقرت عند قدمه الحافية، ولما رفع علاء بصره عن موضع سقوطها فإن رياض لم يكن قد رفع رأسه عن صدره، فاقترب منه خطوتين وضمه إلى صدره قائلا «أجل، لقد رأيتها... رأيت بما يكفي..» و انحبست دموع رياض في مكانها من شدة الألم، وكأن قلبه قد توقف عن الخفقان بعدها.

« أختك الصغيرة لن تموت يا رياض... هنالك ما يمكن فعله وسوف ننقذها...سوف نرسلها لتداوي خارج البلد..»

« ماذا !! «صاح علاء قائلا وهو يخلع صدره عن صدر صديقه، حتى لما تبقت مسافة بينهما واهتزت عيناه الباكيتان في محجريهما وقال ملتقطا أنفاسه «هل أنت جاد !..»

«أجل «رد علاء باسما وعيناه تلمعان تحت ضوء الشمس الساطعة «ومهما تطلب الأمر فسوف نقوم بفعله..»

« لكن.. يتوجب دفع مبلغ..»

« مهما تطلب الأمر..» قال علاء بنظرة لا رجوع فيها، وإذ رأى أن رياض يوشك على الانهيار من أثر السعادة، فقد عمد إلى تركه وشأنه قائلا «الآن هيا إلى الداخل، لقد تأخرت بما يكفي..» هنا أرخى رياض تفاصيل وجهه نحو ابتسامة حزينة ومرر راحة يده تحت عينيه ثم حمل ستة صناديق فارغة مناصفة بين يديه ومضى نحو الأشجار دون أن يضيف على الأمر شيئا.

مساء اليوم كانت السحب قد أفرغت مائها وجفت، وراحت تنمحي في مكانها شيئا فشيئا وبعضها لم يعد يرى، وما بقي منها قد تلون بلون المغيب الأحمر، والريح هدأت، لكن أشباح البرد لم تزل تتعلق بصدر كل كائن حي يتجول بين أبواب المدينة.

وراح علاء يصعد الأدراج محاولا تفادي قطرات المطر العالقة على الجدران والأسقف، وحين كفت قدماه عن الصعود أخيرا فقد وقف أمام باب عتيقة من الخشب، كانت تبدو ثقيلة مبللة، وكان بها حلقة من النحاس الأصفر مثبتة عليها، ولما قام بتحركيها فقد مضت لحظات قليلة فقط قبل أن يسمع صوت مزلاج وهو ينسحب من مكانه على الجهة المقابلة، ودعاه رياض إلى الدخول لما تصافحا بعد ذلك مباشرة. أن يزور علاء رياض في بيته هو أمر كانا قد اتفقا عليه صباح اليوم بعد انتهاء العمل.

بعد ذلك لم يكن من شيء لفعله في الطابق السفلي من المنزل، لكن علاء حرك عينيه في الأرجاء وحوله سريعا، وكان ذلك كافيا ليكون أعظم توكيد على الحالة التي يعيشها رياض وأصحابه، فجدران متشققة ذات طلاء حائل، ونوافذ من الخشب القديم المتآكل وشبكة من العليق المنزلي وهي تتسلق الجدار على يسار الباب نحو السقف المفتوح هو كل الذي كان يراه حينها، ودراجة هوائية تميل على الجدال المقابل عاليا وعدد من الكراسي الخشبية المتروكة هو كل ما كان يحتويه المنظر، إلا أن تكون بعض الحشرات الصغيرة قد

تحركت في الظلال ولم يستطع أن يراها، ودعاه رياض إلى السير معه نحو الأعلى، عبر درجات سلم ترسبت على أطرافها طحالب خضراء تنذر بخطر الانزلاق في أي لحظة.

وقادتهما الأدراج إلى باب خشبية أخرى، لكنها بدت أخف وزنا وأقل عمرا من التي تسد المخرج، وقام رياض بدفعها نحو الداخل ليقفا وسط غرفة تبدو واسعة ليس لأن جدرانها متباعدة، لكن لأنها فارغة من أي أثاث سيكون لطيفا إن وجد فيها، ولما كان في الغرفة شخص آخر فإن المصباح المعلق تحت السقف كان مضاء، وأمكن لهما بسهولة تبيان ما فيها، نظر علاء إلى النافذة المشرعة على السحب الحمراء في الأفق، ونظر إلى السجاد العتيق على الأرض وأحجار الدومينو المبعثرة على طاولة خشبية بأربعة أقدام كاملة تحوطها أربعة كراسي خفيضة غير ذات مساند خلفية، وفي الزاوية المقابلة كانت تجلس فتاة صغيرة إلى مكتب خفيض عليه كتب مدرسية وعدد من الأوراق المبعثرة، لقد كانت كأنها ترسم شيئا، وكان شعرها البني يسيل على ظهرها الصغير وكتفيها المخبأين تحت فستان جميل بلون الورد الأحمر، وتبسمت شفتاه لمظهرها.

« أهي تدرس !! «قال علاء مخفيا صوته قدر ما استطاع أن يفعل.

فرد رياض بنفس النبرة «لا، لا أعتقد ذلك... إنها تحب تلوين الأوراق البيضاء بخيالها أكثر» وصمت الاثنان لفترة يحدقان إليها دون أن تنتبه لهما، أو هذا الذي اعتقداه.

ولما ناداها رياض من الخلف قائلا «ندى.. ندى..» فإنها قامت عن مكانها بتلقائية بالغة، كأنما كانت تنتظر سماع ذلك فيما تنهي شيئا ما كان عالقا، والتفتت إليهما بوجهها الملائكي الأبيض، وجه طفلة صغيرة بعينين شاحبتان من أثر السعال الخانق، وبين يديها الصغيرتين كانت تحمل قطعة كبيرة من الورق الأبيض المقوى، وجعلت تحدق إليها بعيون شاردة.

فقال رياض مستغربا أمرها «ندى.. هذا صديقي علاء، لقعد حادثته عن لوحاتك التي تعملين عليها، وقد ركبه الفضول لرؤيتها، هلا جعلته يلقي عليها نظرة..» وحتى حينها لم تكن بوقفتها العمودية قد توقفت عن الترنح في مكانها، ولا عن إبعاد عينيها عن هذا الفتى الذي يدس يديه في معطفه الأسود ويسرح شعره لغير ما اتجاه واضح.

كانت عيناه رماديتان جدا، لذا فقد عمدت إلى ألوانها كرة أخرى، فوضعت قطعة الورق على المكتب وجعلت تعبث بها قليلا ثم رفعت رأسها مجددا والورقة في يديها، ومشت نحوهما بخطوات متأنية، حتى لما وقفت أمام علاء ناولته اللوحة، قالت «لقد رأيت هذا البارحة.. رأيتك تأتي إلى هنا مع أخي.. لم ترد البقاء معنا طويلا لكنك أعطيتني قطعة شكولاته.. هل حقا أحضرت لي شكولاته»

ولم تكن عينا علاء قد تحركتا من مكانهما، إذ أن طفلة صغيرة لم تكن قد رأته قبلا قامت ببعثرة الألوان على ورقة بيضاء في محاولة

منها لتقوم برسمه، كانت قطعة الورق تحوي لوحة تصور ثلاثتهم معا، يدا ليد وهم بداخل الغرفة، وكان شكل علاء يبدو تماما كشخص قام بتمرير قطعة فحم على ورقة بيضاء في محاولة منها لترسم معطفه الأسود. قد أربكته بنظرته المفتقرة.

« لم أرى لون عينك في الحلم جيدا» أردفت «لذلك قمت بتلوينهما قبل قليل بسرعة.. اعذرني لأن الألوان تبعثرت خارج وجهك أيضا..» وجعلت تضحك ملأ فاها في كثير من السعادة.

رياض كان يراقب الأمر دامعا، أما علاء فرفع رأسه عن اللوحة قليلا «هل رأيت هذا في الحلم البارحة !..»

« أجل..» ردت ندى بابتسامة بريئة، وضمت يديها خلف ظهرها بحماسة.

هنا أثنى علاء ركبتيه إلى أسفل وجعل يحدق في عينيها، واللوحة في يمينه دس يسراه في شعرها وقبل جبينها قبلة عميقة.

« قلت أنني أحضرت لك الشكلاطة في الحلم أيضا !!.. «، وهزت ندى رأسها موافقة، فبحث علاء في جيب معطفه الداخلي وأخرج قطعة كبيرة من الشكولاته عليها غلاف أخضر جميل وجعل يرفعها أمام عينيها «كان عليك أن تحلمي بشيء تحبينه أكثر...» وكم كانت سعادتها عظيمة وهي ترى ذلك الشيء يخرج من جيبه، حتى لقد أخذتها منه بكلى يديها وانفجرت بهجتها.

وعاد الاثنان خلف الباب بعد أن شجعاها على العودة لتلطيخ ورقة أخرى، وجعلا يفركان حديثا مهما بينهما.

قال علاء باهتمام بالغ «بين أصدقائك كان يوجد شخص بنيته جيدة.. شعره قصير وينظر للجميع نظرات قاسية، كان يضع وشم عصفور على كتفه الأيسر.. أسمه سليمان كما أعتقد..»

فقال رياض «أجل، سليمان.. ذلك هو، إنه كبيرنا ورئيس العائلة..»

« أنا بحاجة إليه..»

« ماذا !!» رد رياض مندهشا.

« أنا بحاجة إليه.. أحتاج مساعدته للقيام بأمر ما «

هنا أبدى رياض حماسته للأمر فهز كتفيه قائلا «إن كان أمرا أستطيع القيام به فأنا هنا، بل سأكون سعيدا بتأديته..»

« لا.. أبدا.. لا يمكنك القيام بهذا الأمر، حتى سيكون من الجيد لو أنك لا تعلم عنه شيئا..»

« لماذا»

ونظر إليه علاء كأنما عينيه تيبستا في مكانهما، وما لبث أن حركهما في اتجاهين متعاكسين قال بعدها «لأنه.. دعك من هذا.. والآن

يمكنك أن تقوم بمساعدتي بإخباره أن يقوم بالبحث عني فور وصوله إلى هنا..»

« حسنا.. أستطيع القيام بهذا أيضا..» قال رياض ذلك وانزل كتفيه أسفا، أما علاء فأعاد توصيته مرة أخرى وجعل يستدير نحو الخلف ذاهبا، أعاد الباب الخارجية إلى مكانها وغاب في الظلام على الأدراج المؤدية نحو الأسفل.

لقد حدث هذا قبل شهر واحد، أي في بداية ارتماء فصل الشتاء على البلد، كان علاء وإلى جانبه نسمة مساء ذلك الخميس يتمشيان جنبا إلى جنب معا في ركن فسيح من المدينة به عدد من الأقدام لا يمكن حصرها، كما هو حال العاصمة دائما، فكان علاء يجد وقتا ليقف فانتظار أن تتمكن نسمة من حشر نفسها بين تلك الأجساد كي تلحق بخطواته السريعة.

رفضت نسمة أن ترافق علاء في البداية، حتى لقد رفضت ذلك الأمر رفضا قاطعا، فأن تسير رفقة تميمة والدها لهو أمر لطالما تجنبت القيام بالتفكير به كلما لم تجد شيئا لتفكر فيه ويكون أكثر أهمية من ذلك، قالت له حينها إن شيئا واحدا قد عزمت على فعله منذ حدث التعارف الأول بينهما، وهو أن لا تسمح بأن يصل بها الحال إلى الاختلاط كثيرا بشخص يحسب نفسه قد عرف تجرع ما يكفي من الأحزان وبات له أن يفهم الحياة بسهولة، ولم يكن علاء وهو يسمع كلامها هذا قد أبدى أي رد فعل يعكس ما كان يحدث داخله، ولما

نطق فقد قال لها «لو كنت أفهم الحياة كما تدعين أن أدعي لتمكنت من فهم سبب كرهك لي هكذا، وإذن لكنت عملت جاهدا على أن أدفع بهذا السبب بعيدا عني... لكني لم أتمكن كما ترين من معرفة السبب، إذن أنا لا أفهم الحياة يا صغيرة، بل ولا أرغب في أن أتمكن من فعل هذا يوما.. حتى لو صادف أن منحت الوقت لذاك..» وإذ لم تفهم شيئا مما قاله، خاصة ما كان يقصده بجملته الأخيرة فقد أرته بعض الاستياء على وجهها وارتدت تمشي إلى الجهة الأخرى، كان ذلك في أول فترات تعارفهما، أما ونحن الآن في حالة استحضار ما حدث قبل شهر واحد من هذه الليلة فلنعد لذكر الحديث القصير الذي دار بينهما قبل أن توافق على مرافقته نحو مكان لم يشأ أن يطلعها عليه في البداية، لقد قالت وهي تنظر إليه نظرة المتفحص المدقق الجاد جدا «لا بد وأنك تريد أن تطلب مني خدمة ما..» قالت ذلك لما ترجاها أن تسمع كل حديثه حتى النهاية، ثم كان أن وافقت على الوقوف أمامه لأكثر من دقيقتين حيث أخبرها بالأمر حتى آخر كلمة كان يريد قولها.

وهاهما الآن يعبران بوابة زرقاء عريضة ويتمشيان نحو صرح عظيم مطلي باللون الأبيض عن آخره، إلا بعضا من مربعات الزجاج والمرايا الزرقاء التي تسد النوافذ هناك في الأعلى، مشت نسمة مخنوقة تتبع خطواته بامتعاض وتثاقل كأنما حبل يربط بينهما، بعد ذاك دلفا إلى البناء وجعلا يتوجهان نحو جدار نصفي يقف خلفه عامل استقبال تبسما له قليلا وراحا يصعدان بعض أدراج الرخام نحو طابق أعلى،

كانت الممرضات العذراوات بمآزرهن الزرق تظهرن فجأة وتختفين كأنما نائمات أو بغير عقول من غرفة إلى أخرى، وقادتهما الأدراج إلى رواق طويل به عدد من الأشخاص المنهزمين بعضهم يجلس على الكراسي الحديدية وبعضهم يسند ظهره إلى الجدار متأففا يصارع صبره وضيق أنفاسه.

أوصلتهما الخطوات إلى مربع من الزجاج يشكل واجهة إحدى الغرف الزرقاء المرصوفة جنب بعضها، حتى وقفا خلف مشهد يفضي إلى فتاة صغيرة ترقد مغمضة العينين على سرير أبيض، يغطي وجهها قناع تنفس يساعدها على آخذ شهقاتها.

« هل يفترض بي أن أتعرف عليها!!..» كذلك نطقت نسمة قائلة، بعد دقيقتين من التحديق المتواصل، قالت ذلك ويداها تنزلقان على الزجاج أسفا على الصغيرة.

فقال علاء «لا.. أنت لا تعرفينها، لكن سيكون عليك فعل هذا من الآن فصاعدا...» وأضاف بعد لحظة «اسمها ندى.. شقيقة رياض الصغرى، بلا أب ولا أم ولا مأوى خاص بهما..»

« رياض !!..»

« أجل.. ذلك الذي لا تحبين رؤيته أيضا..»

ولم تمض ثانيتان حتى اغرورقت عيناها دمعا، قالت «في السابعة أو الثامنة..»

« السابعة..» صحح علاء كلامها ، وأضاف قائلا بينما يراقبان حركات صدرها البطيئة «هنالك مشكلة في رئتيها...»

« هل يعلم والدي بأمرها، أم أنه أخبرك وحدك...»

«لم يخبرني..»

« ماذا !!..» قالت نسمة وهي ترتد نحوه وقد ظهر احمرار على وجهها، ولما ركز علاء نظره فيها فقد قال بعدها «لم يخبرني، لم يشأ أن يخبر أحدا بأمرها.. لقد اكتشفت الأمر بنفسي.. كان ذلك لما طلب مني أن أعيره بعض النقود قبل أيام قليلة مضت، وقد ساورني شعور غير مطمئن حينها، لذا أعطيته مطلبه وقمت بتتبعه خفية..»

« إييه..»

« توجه إلى الصيدلية مباشرة..ثم وبعد يومين آخرين طلب أن أعيره مبلغا آخر، لم أرد أن اسأله، ولم يرد أن يخبرني، فقمت بتتبعه مرة أخرى، ومرة أخرى قام بإنفاقها على كيس أدوية دفعة واحدة...»

هنا استدارت نسمة نحو الفتاة النائمة. وضعت يديها على الزجاج بغير ما هدف وقالت بينما شرود عميق يكتسح وجهها «والآن كيف

حالها... هل ستكون بخير»

« لا يمكن قول ذلك الآن يا نسمة... ليس قبل أن تجرى لها العملية..»

« يبدو أن أقراص الدواء لم تعد تجدي نفعا..»

« لا..»

« وما الذي سيحدث لها إذن..»

« يتوجب إرسالها لتتلقى العلاج في الخارج..»

« والشخص الذي سيقوم بإرسالها هو..» قالت ذلك وهي تنظر إليه مصدومة، فأتم كلامها قائلا «والدك..»

«متى..»

« مع حلول الصيف..»

« ألا يمكن الآن القيام بذلك !!..»

« لا..» قال علاء بأسى «نحن في فصل الشتاء الآن، وذلك لن يساعد رئتيها على مصارعة المرض بكامل قوتهما.. هي توصية طبيبها طبعا.. علينا أن ننتظر انجلاء الشتاء أولا..»، هنا أغمضت نسمة عينيها عميقا لتقطع حبل حزنها. عادت للتحديق عبر الزجاج وانتهى حديثهما بذلك.

الآن وقد وصل علاء إلى باب بيته فقد وقف يضع يده على الجدار قليلا، يستحضر الشحوب المرير الذي تطفل على وجه الفتاة الصغيرة، وللحظات ظل يرخي ذراعه الأخرى نحو الأسفل كأنما ندما، وكأنما قلبه يحترق حزنا عليها وحسرة، كذلك غرز أصابع يده على قلبه من شدة الألم ثم دفع الباب الخشبية ودلف إلى الداخل..نامت المدينة بعدها وأفاقت.

وهز باب البيت ضرب عنيف صباح اليوم التالي، وهو ينزل الأدراج مسرعا أدرك علاء من كان يقف خلف الباب حتى دون أن يشك في ذلك لحظة واحدة.

قال وهو يجذب صفحة الخشب إلى الداخل « اعتقدت أنك لن تلبي الدعوة..»

فقال الطارق متلقفا تلك المزحة «أجل، كأنني سأفوت هذا الأمر المريب الذي دعوتني لأجله..»

فقال علاء «أريد منك خدمة..»

« أي شيء إذا كان هنالك مقابل..» قال الطارق بعينين يلفهما الجوع بشدة.

« ليس عليك أن تقلق بشأن ذلك... أريد منك أن تحضر لي

شخصا ما...»

نظر الطارق باهتمام بالغ.

وبعد لحظات أخذ ومد. قال علاء بصوت مسموع أكثر «أحضره إلى الغرفة بداخل بساتين الفاكهة.. لكن لا أريد أن تنزل منه قطرة دم واحدة، فتصرف وفقا لذلك..»

وهز الطارق رأسه موافقا.

« إليك الآن هذا» قال علاء مخرجا لفافة من الأوراق الحمراء من جيبه «وحين تنتهي من إنجاز مهمتك فسوف تحصل على الباقي..» ثم أردف قائلا «يمكنك أن تأخذ صديقيك إن أردت ذلك، قد تحتاج إلى المساعدة..» إلا أن الطارق لم يرفع عينيه عن الأوراق النقدية وظل يبدلها من يد لأخرى، وإنما هز رأسه للمرة الثالثة موافقا، كذلك تمت الصفقة سريعا ومشى الطارق فرحا بما جناه قبل طلوع الشمس بما يكف لتكتظ الأزقة.

مع قرب انتهاء العمل كان وضع الشمس المعلقة في الأعلى يشير إلى العاشرة، حين وقف علاء أمام الغرفة يراقب سيرورة العمل في هدوء بالغ كما يمكن ملاحظة ذلك من مظهره الخارجي ووقفته المنتصبة اللافتة، تكدس الصناديق فوق بعضها بتلك السرعة لم يكن يثير فرحته، حشد العمال وهم يذرعون الفراغ بين الأشجار جيئة

وذهابا لم يكن يلفت نظره أيضا، إنما غياب فكر طويل ذلك الذي كان يمكن للرائي أن يلحظه لو نظر إليه بسبب الأشياء التي كانت تعصف بداخله.

فجأة وقع خطوات على الأرض الطينية راح يقترب منه شيئا فشيئا حتى وقفت تلكما القدمان أمامه مباشرة.

« لم أتمكن من الوصول إليه يا علاء..» بأسف عظيم نطق صاحب القدمين قائلا ومبديا بعد ذلك من خلال تعويج شفتيه حزنا يكفي ليوثق به كلامه.

ولما رد عليه علاء بنظرات صمت باردة، فقد أردف القادم قائلا «لقد سافر خارج البلد مساء البارحة... أي قبل أن توكل إلي مهمة اختطافه حتى..» قال سليمان ذلك وأخرج لفافة النقود من جيبه ومد يده بعيدا عن صدره.

ولم يقل علاء أي شيء مرة أخرى، إنما فرقع أسنانه ببعضها وقال مبعدا وجهه إلى الجهة الأخرى «لا عليك.. يمكن الاحتفاظ بها..» قال ذلك ودلف غاضبا إلى الغرفة، وبعد مرور ثانتين فقط، كان لسليمان أن يسمع صوت ارتطام القدر بأحد جدران الغرفة، كان ذلك ثم شتيمة عظيمة تلقفتها آذان العمال القريبين منهم، ولقد ظل بعضهم يحمل صندوق البرتقال الثقيل بين يديه محدقا نحو الغرفة، أما سليمان

فضرب كفه الآخر بلفافة النقود ومشى غير آبه للأمر بابتسامة عريضة على وجهه الجائع.

-7-

مرت أيام الشتاء تواليا، ماطرة وباردة يشبه بعضها بعضا، لا الشمس تضحك طويلا ولا السحاب يفتح بابا في السماء لفترة، وفي كل مرة تستيقظ فيها المدينة على الكآبة تعود للنوم على كآبة أخرى، يخبر الكبار أحفادهم بعض الحكايات خلف المدافئ وتطفأ الأنوار بعدها، ليس كلها، فبعضها يضاء حينها، فليس الجميع ينامون منفردين على أية حال، مع شروق الشمس يرتفع الحمام عن الساحات ببطون منتفخة، وتشب القطط هاربة من دلاء القمامة أمام البيوت بكل ذلك البلل الذي عليها، ولا يكف عامل النظافة عن التقاط أكواب الشاي الفارغة وبقايا السجائر، وأما الشواطئ فتصبح مكتظة مع حلول المساء حين تهب الرياح الباردة وتهيج البحر معها وتصبح الأمواج المتكسرة على الصخور شيئا يغري العاشقين والمفكرين والدائنين والغائبين عن الوعي لرؤيتها، للجلوس على الصخور وإخبار البحر بما يختلج في نفوسهم عبر مخاطبته فكريا دون الحاجة للنطق بذلك، كذلك راح شيخ كبير في السن يقفز متنقلا من صخرة لأخرى، وفي يديه سلة

بها أسماك وصنارة صيد في اليد الأخرى، كان يضع نظارة سوداء وقبعة زرقاء على رأسه تناسب قميصه وسرواله المشدود لأعلى نحو الركبتان اللتان تتبدى من تحتهما ساقان نحيفتان يغطيهما كم هائل من الشعر الأبيض.

« أن تخبر البحر بهمومك فذلك يشبه تماما أن تعود إلى بيتك وأنت تعتقد أن مشاكلك قد حلت لأنك فضفضت إلى الصخرة التي كنت تجلس عليها..» قال العجوز محدقا في عيني علاء لما صعد إلى صخرته ووقف أمامه وقفة سرطان بحر بشري فجأة، ولم يلبث أن ترك الصخرة ورمى قدمه نحو واحدة أخرى حاملا صنارته وسلته في يديه دون أن يضيف شيئا، أما علاء فقد تخلى عن مراقبته حين رآه يصارع لفك حزام سرواله للتبول بخفاء تحت صخرة عظيمة على بعد عشرين مترا، وحتى بعد مرور نصف ساعة من اختفاء العجوز نحو الأعلى فإنه لم يكن قد توصل إلى نتيجة تفيد في شرح كلام العجوز سوى أن ما قاله كان كلاما تافها ينم عن فراغ داخلي مؤلم.

مع حلول المساء ترك علاء كوب الشاي الفارغ على الصخرة وغادر الشاطئ عائدا إلى عمق المدينة، ونحو بيت الشيخ إبراهيم ليصح التعبير أكثر، وأما وقد وصل مع انغماس الشمس في الأفق فقد وجد بوابة القصر الصغير لا تزال مفتوحة منسية، فدفعها إلى مكانها ومشى إلى الداخل حيث كانت سيارة الحاج أحمد مركونة إلى جانب سيارة الشيخ إبراهيم وسط الساحة وبابها مفتوحة أيضا دون أن يتواجد أي

أحد فيها، فقام بدفعها إلى مكانها حين لمحت عيناه رجلا مهذب اللباس يخرج من البيت حاملا حقيبة بنية اللون من الجلد الفاخر في يده، ومر الرجل من أمامه ملقيا تحية مساء طفيفة واختفى خلف البوابة الكبيرة، أما علاء فتلقفت نفسه أمرا غريبا يحدث في الداخل. فلم يكن من شيء قد عزم على فعله بعد ذلك سوى تفقد الأمر بسرعة.

بدا الحاج أحمد حزينا وشاحبا وهو يلتفت خلفه لما سمع وقع خطوات علاء وهي تقترب منه وبدا كأن سترته الأنيقة بلونها الرمادي المشع لم تعد واسعة بما يكفي ليتحرك بداخلها لما غمغم رافعا يديه المرتجفتين في الهواء قائلا «الأمر برمته أنني ارتكبت خطأ عظيما بالإصرار على أخذه.. الأمر برمته..ولو لم أصر عليه إذن لما حدث هذا، أرجوك سامحني يا علاء واجعله يسامحني، أرجوك يا بني... إنني أريد الموت حالا قبل أن تقترب مني خطوة أخرى»، وإنما قال ذلك لأن صديقه العجوز كان يرقد خلفه على الأريكة مطروحا مغمض العينين وغير قادر على التنفس بسهولة مع وجود كل ذاك الكم من الهواء داخل الغرفة، فيما جلست نسمة عند رأسه لتمشط شعره بأصابع يدها وتحاول جاهدة أن لا تبكي بصوت مسموع حتى لا توقظه.

بعد ذلك بنصف ساعة كان الحاج أحمد قد خرج من البيت عائدا إلى منزله، فيما وقفت نسمة على شرفة غرفتها تراقب المغيب

وتفعل ما قد تفعله أي فتاة مرض والدها مرضة مفاجئة، وفتح العجوز عينيه ورفع رأسه بتثاقل لأعلى، وحيث ركز يديه على الأريكة ليوازن جسده المحموم عاليا وبعد نظرة تفحص ألقاها بعينيه الغائمتين على الجالس في مقابله فلقد قال بعدها بحشرجة بدت كأنها تنبع من أعمق نقطة في حلقه، لقد قال بحشرجة «الطبيب أخبر الجميع أنني سأكون بخير... هل تصدق ذلك»

فرد علاء وهو يبادله نفس النظرات بينما يجلس على كرسي ذو ظهر مرتفع يقابل الأريكة «أجل.. لقد رأيته يخرج مسرعا قبل نصف ساعة.. ولم يكن وجهه ليتفق كثيرا مع ما قاله..»

فقال العجوز هازا رأسه «أجل أدري ذلك... الواقع أنني أطلب رأيك هنا..» وبعد لحظة تفكير أردف قائلا «هل يعد ذلك تصرفا خاطئا من عجوز في سن كهذه.. في مثل هذا الجسد المنخور عن آخره..»

فرد علاء «لا.. لا أظن ذلك.. إذا كنت أنت ترى بأنه ليس تصرفا خاطئا، فلا بد أنه ليس كذلك.. وإلا لما فعلته» وأدرك العجوز أنما هذا الرد الجاف ليس إلا شيئا يلخص طبيعة تلك النفس الجالسة أمامه والتي اتخذت من عدم التدخل في القرارات الشخصية للآخرين شيئا حكيما يمكن القيام به وتكراره كل مرة، نحنح بعدها وقال ممررا لسانه على شفته السفلى من جانب إلى جانب «كانت الأيام الأولى التي قضيناها في المنتجع تمضي بصورة جيدة، وكان طبق الحلزون جيدا أيضا. وشهيا..لكن بعد اليوم السادس بدأت أحس بأن المياه

الدافئة تخنقني أكثر من الأيام السابقة، وشيئا فشيئا وبعد مرور يومين آخرين قامت بخنقي تماما مثلما كنت أتخيل، كأن يدا قوية أمسكت قلبي وقامت بعصره بكل ما أمكنها.. أتذكر ذلك جيدا.. الواقع أن ذلك كل ما أتذكره قبل أن أفيق نهار اليوم في المستشفى...» بعد ذلك مسح العجوز دمعة تكومت أسفل عينيه اليسرى وأحدث شخيرا بأنفه وجعل يحدق نحو السجاد وسط أرض الغرفة.

انسلخت أيام الشتاء تواليا واختفت معها سيول الماء التي كانت تغسل الشوارع دون توقف، ملابس الشتاء اختفت أيضا وحلت محلها أقمصة بغير أذرع وسراويل قصيرة، كأنما تفتحت بهجة عظيمة فوق سماء المدينة. وبات يمكن للواحد أن يقرأ جريدته واضعا إحدى ساقيه على الأخرى على كرسي واسع من كراسي الحدائق العامة، كما وبات بالإمكان إخراج كراسي المقهى حتى الرصيف للجلوس عليها واحتساء قهوة دافئة، الشيخ إبراهيم وهو يجرجر واحدا منها وحاملا كأس شاي دافئ في يده الأخرى نحو طاولة قريبة قال بعدما أطلق سعالا عميقا واتخذ لنفسه مكانا «يمكن لهذا السعال لو استمر معي هكذا أن يرسلني إلى العالم الآخر في أي صباح من صباحات هذا العالم الجميل الواسع..»

فقال علاء وهو يجلس على الجهة المقابلة من الطاولة بعد أن رشف رشفة سريعة من قهوته «المشمش يكاد ينضج..»

فقال العجوز بدوره «آووه جيد.. لكن ذلك لم يعد يعنيني، فكما

ترى، أنا لم أعد أقوى على مراوغة الأشجار الواقفة والمرور عبرها.. لقد أصبحت بلوى على نفسي... صدقني يا علاء، أن تصبح شيئا لا يصلح سوى للنوم والطعام لهو عقاب عظيم لن تحب أن تقع فيه أبدا مهما امتد عمرك..» قال ذلك ورفع كأسا زجاجيا أصفر اللون إلى جوفه.

«البارحة وصل عاملين جديدين إلى الغرفة..»

«لا بأس بذلك.. هل هم من أبناء عمومتك؟»

« لا» رد علاء «لكن أقرب إلى ذلك.. هما من أبناء قريتي..»

« فليكن.. فليكن..والآن ناولني بعض السكر من تلك الطاولة، سكريتنا فارغة «قال ذلك وهو يعيد غطاء السكرية إلى مكانها.

مرت الأيام سريعا بعد ذلك. وعاد العمال لجني الثمار مجددا. وكان الربيع قد انتصف حين بدأت أشجار المشمش تفرغ من ثمارها الشهية وتتعرى منها، وراحت طيور الفاكهة تحلق فوق البساتين أسرابا كلما حل الصباح عليها، فيما تطاير الفراش بين الأوراق وتحركت الحشرات الصغيرة على الأغصان وهبت الرياح بلطف على كل شيء يقع في الأعلى، كذلك مرت أيام العمل هادئة بغير شكوى، علاء بات يدير العمل لوحده ويتحكم فيه بكامله، فيما استقر الشيخ إبراهيم ببيته يصارع المرض ويحاول جاهدا أن يخطو خطوتين خلف الباب نحو الخارج، كأنما يعيد تعلم المشي لأول مرة، لكن الفرق أنه

بات يحاول فعل ذلك باستخدام ثلاثة سيقان إحداها عصى خشبية مطلية بصباغ أسود يناسبها. إنه لن يعود للركض أسرع من قطة حديثة الولادة بعد عودته من المنتجع الذي قضى فيه رفقة صديقه الحاج أحمد بعضا من أيام الشتاء الفائت.

في الغرفة الواقفة بين البساتين بجدرانها الأربعة الباردة، ومع حلول الليل كان العمال المتعبون وهم في أفرشتهم على الأرض لا يجدون متعة أكبر من تداول القصص الشخصية بينهم والحكايات المضحكة وبعض الأحاديث العابرة، على ضوء المصباح الكهربائي في الأعلى كان أحد الوافدين اللذان قدما من الجبل مؤخرا يخبرهم عن أمر المطاردات التي تحصل بين العساكر وكل من شابته شبهة الانتماء إلى الجبل، ذلك وقد لعن العساكر عن آخرهم حين اشتد به الغضب في إحدى مراحل حكايته، ولقد شتمتهم بآخر ما توصل إليه لسان العربي من شتائم، في عمر السادسة والعشرين بدا وجهه الأصفر يخفي حقدا دفينا وكرها أسودا لأصحاب تلك البدلات الملونة، قال مسندا رأسه إلى الجدار وهو يسترجع الأمر بمرارة «أترون إن تم الإمساك بكم بتهمة تافهة كاذبة، في الغالب ستقوم أدمغتهم المحشوة بتوهمها، إن أنتم قمتم بتوصيل شخص لا تعرفونه وقد وجدتموه يقف على الطريق نحو مكان توجهكم قصد فعل الخير...» وحينها لاحظ أن شفاه الناظرين إليه مفتحة بكاملها، فأردف قائلا «أجل.. لقد أخذوا واحدا لهذا السبب، لأنه حمل شخصا لم يسبق له أن رآه في مركبته... وإليكم هذا أيضا، أترون إن كنتم جالسين مع

أصدقائكم اللذين تعرفونهم على كرسي من كراسي الحديقة، فيما يجلس أصدقائكم مع أصدقائهم اللذين لا تعرفونهم، طبعا لأنكم لم تروهم قبلا.. سيتوجب عليكم أن تحذروا لذلك أيضا، لأنه وفي أي لحظة بعد انتهاء تلك الجلسات وتفرق الجماعة يمكن أن يقوم العساكر بخطفكم أمام الملأ أجمع، خلف جدار الحديقة أو بداخل حانوت أو قد يطرقون عليك باب البيت حتى...وحين يصفدون يديك خلف ظهرك فاعلم أنك مدان حتى تثبت براءتك... اعلم أنك أصبحت مدانا بالإرهاب يا صديقي، وسوف يتم اقتيادك إلى دارهم دون أن يكون لك رأي في ذلك..و ولسوف يتم إشباعك ضربا مبرحا حتى لتعود لمراجعة نفسك إن كنت قد نمت على قطعة سلاح في أي ليلة من ليال حياتك العفنة، فمن الأشياء الجميلة التي سوف تحصل لك في تلك الغرفة هو أنه سيتم وضع خصيتيك في درج مكتب وضربها بشدة، أجل بتلك الطريقة التي تتخيلونها، حتى لتظن أن كل العالم من حولك قد اختفى فلا تقدر على أن تحس بأي شيء في تلك اللحظة من شدة الألم، دون أن يفكر الواحد منهم أنه قد يصل به الحال إلى ارتكاب مجزرة جماعية لكائنات لم تخلق بعد بتلك الفعلة..» هنا حرك صديقه رأسه ليعطي الأمر توكيدا أكثر، والواقع أن واحدا منهما قد تعرض لهذا الأمر شخصيا حين اتهم بتشكيل علاقات مع جماعة إرهابية، كذلك أردف المتحدث قائلا بعد حفنة تبغ دسها تحت شفته العليا «أجل يا أصدقائي، ناهيكم عن سماع أنواع جديدة من الشتائم التي يتم اختراعها حصريا في تلك الغرفة..»

بعد لحظة تفكير عاد يغمغم قائلا «لقد تم اقتيادي إلى هناك لمجرد أنني كتبت بعض الأسئلة على الانترنت وكتبت بعض الأجوبة، ثم جاء العسكر إلى مقهى الانترنت وقاموا بخطفي على طريقة الأفلام الغربية...» كذلك أنهى كلامه ودس علبة التبغ تحت وسادته وانتقل الحديث إلى فرد آخر ليقص إحدى حكاياته.

في ليلة مقمرة وصافية سمائها صفاء عجيبا، كان النجوم تتشاءب هناك في الأعلى إلى جانب بعضها، وفي الحديقة تحت شجرة التوت الكبيرة وبعد انتهاء الجلسة العائلية المعتادة، حملت الخادمة طبق المكسرات من على الطاولة نحو الداخل، قال الشيخ إبراهيم معيدا رأسه إلى الخلف بتثاقل «أعني أنك لن ترافقي الفتاة الصغيرة خارج البلد..» فلم يكن من نسمة إلا أن تركت قيثارتها على المقعد وهرولت نحو البيت غاضبة، قال علاء بعدها» لم يكن ليحدث أي شيء غير هذا..» قال ذلك ليواسي الشيخ إبراهيم لأنه أحزن ابنته الوحيدة، وكان لؤي إلى جانبه يقلب نايه بين يديه لا يفكر في أي شيء مما يمكن للقارئ أن يتوقعه.

وتوالت الأيام بعد تلك الليلة، ولعدة صباحات ومساءات أخرى، لم تكن نسمة قد سامحت والدها المريض على ما يبدو، لأنها وكلما سألته عن سبب ذلك كان يرد قائلا بأنه لا يتحمل عدم رؤيتها لأكثر من سويعات الدراسة، فلم يكن جوابه ذاك يجدي نفعا، لعلمها بأنه يخفي أمرا وراء تراجعه عن قرار إرسالها لمصاحبة الفتاة الصغيرة

لتتلقى العلاج خارج البلد، إذن وهو يلبس سترته الرمادية الأنيقة ليخرج بعصاه نحو المقهى، أو وهو يحاول إدخال المفتاح في ثقب باب غرفته السرية أو وهو جالس على الأريكة في غرفة الضيوف يحتسي قهوته الصباحية لم تعد تلقي إليه بأي من تلك الكلمات الطيبة التي كانت تلقي بها إليه أثناء مرورها عليه في أي ركن من أركان البيت الكبير قبل ذلك، الآن وقد ارتدت مع صباح هذا اليوم الجميل قميصا فضفاضا بلون الورد وسروالا متماسكا باللون الأبيض كان والدها يجلس بهدوء على أريكة الحديقة يطالع جريدته مستعينا بنظارة للقراء وتائها في تلك العناوين العريضة، لم يكن الغضب قد زال عنها حتى بعد مرور اليوم السابع، فلم تودعه ذلك الوداع الصباحي ولم تقبل جبينه، وإنما خرجت وجذبت الباب خلفها كأنما هي ساكنة البيت الوحيدة، جميلة الخادمة وهي تكنس الأوراق بقرب الباب وقفت لفترة تحدق إلى شعر الفتاة الغاضبة وهي تختفي خارج البوابة الكبيرة، حركت رأسها نفيا لكل ذلك وبدلت عصى المكنسة إلى يدها الأخرى وجعلت تركل أوراق التوت أمامها.

مساء اليوم وقف علاء إلى جانب أكرم على صخرة من صخور الشاطئ حين التقيا لبحث بعض الأمور الصغيرة العالقة، كان البحر هادئا وقوارب الصيد تنصب خيامها بعيدا في الداخل وسط الزرقة، قال أكرم مشيحا نظره إلى حذائه «لأكون صريحا معك فلست أدري مدى الحماقة التي قمت بفعلها.. لقد تركتها يا صاح، لقد تركتها..» ولقد قال ذلك كأنما راجيا أن يتعاطف معه علاء ولو قليلا، إلا أن

الأخير قال ناظرا نحو الأفق «ولم انتظرت كل هذا الوقت..»، وهذا بالتأكيد شيء لم يتوقع أكرم أن يسمعه، نظر إليه للحظة ثم أخذ بوجهه نحو الأفق أيضا، قال بعدها «ذلك لأنني كنت أرجو أن أتوقف عما أفعله.. كنت آمل أن أبتعد عن حياة الليل وأن أتراجع عن ذلك في مرحلة ما، لكني لم أفعل، لم أتمكن من ذلك... لهذا قررت أن أفضل شيء يمكن أن يحصل بيننا هو أو نفترق تماما عن بعضنا، إنها لن تجرني إلى عالمها وإنني لن أجرها إلى عالمي.. هذا وفقط»

« ثم ماذا بعد تركها..» سأل علاء قائلا رغم معرفته ما ستكون الإجابة مسبقا.

رد أكرم بقوله «لا شيء..لا شيء بعدها يا صديقي، قد تبكي لبضعة أيام ثم ستدرك أن البكاء لا يعيد أحدا.. وأيضا لا يصلح أحدا.. أجل، سوف أشكرها لأنها تحملتني على هذه الحال كل هذه المدة بأن أتركها وشأنها، وإن علي بعد ذلك إلا أن أستمر في ارتكاب الرذائل دون أن أتذكر وجهها..»

وبعد لحظات مرت ظلا خلالها يحدقان إلى البحر الأزرق صامتين نطق علاء فجأة «هل ترغب في قضاء بعض الوقت خارج البلد..»، وكأن ما قاله كان صعقة برق حطت بجانب أكرم لما أفاق من شروده فجأة.

« ماذا قلت !!..» رد قائلا بتلقائية.

فأردف علاء طرح فكرته قائلا «هنالك فتاة صغيرة في حاجة لإجراء عملية على عينيها في تونس.. وستحتاج لأحد يعرف تلك الأماكن ليرافقها ويبقى معها خلال رحلتها..»

« أتعلم يا رجل..» نطق أكرم قائلا كأنما أصابته بلاهة فجأة «لا بد لي أن أخرج من هذه الأرض حتما، وبسرعة.. حتى في وقت مثل هذا، أسمعت عن موسم المذنبين قبل هذا !.. لقد حل علي الآن في هذه اللحظة التي قررت فيها أن أغدو إنسانا صالحا، وربما ذو لحية، تخيل أن لي لحية.. سأبدو هكذا..» وبينما يمثل الأمر بيديه كالأبله واصل بعدها قائلا «وأول عمل صالح سأقوم به في طريق توبتي هو أن أذهب بالفتاة إلى هناك والعودة بها سريعا دون ارتكاب أي فعلة بذيئة..» ولما وقفا وقفة مستقيمة نحو بعضيهما واصل كلامه «وأنت بصفتك شخصا تائبا منذ ولادتك فلابد أنك تعرف الصالحين حين يقفون أمامك.. ها.. أنظر إلى عيناي هل ترى شيئا منهم، أخبرني هل ترى شيئا... هيا سأتقبل ردك مثلما تقبلت كلام الآخرين عني قبل هذا، مهما كان منافيا لما أود سماعه، حتى أخبرني كم أن الشراب هو ما يدفعني لقول هذا ولست أقوله من قلبي.. «قال ذلك وجعل يحدق إلى علاء ببلاهة محكمة.

أما علاء فلم يضف على ذلك شيئا، إنما ظل يحدق في عيني صاحبه بنظرته المتخشبة صامتا، وحين نطق فقد نطق قائلا «سوف تغادر الطائر بعد أسبوع فقط، فقم بترتيباتك وفقا لذلك..» ولما

ابتعد عن المكان بأربع خطوات خطاها على الصخور أو خمسة وقف مكانه وقال دون أن يستدير حتى «سيكون شقيقها إلى جانبها أيضا.. ولا تعد بسرعة، دعهما يريان العالم قليلا..» قال ذلك ومشى يتنقل من صخرة لأخرى وغاب في الأعلى.

هكذا انتهى اللقاء بينهما بسرعة ككل لقاء حدث قبل ذلك، إذ لم يحدث قبلا خلال اللقاءات المعدودة التي حدثت بينهما أن تحدثا في غير ما خطط أحدهما للتحدث فيه قبل ذلك، وبقي أكرم لوحده واقفا على الصخرة والأمواج تتلوى بهدوء تحت أقدامه، ولقد أفرد ذراعيه يمنة ويسرة وأخبر البحر قائلا «إن ربك هو أيضا ربي..» قال ذلك وابتسم نحو السحاب ابتسامة عريضة لم يكن يدري أن وجهه يقدر على القيام بها، وبكل ذلك الابتهاج العميق الذي اعتراه وهو يحدق إلى البحر المتلألئ بأشعة الشمس الذهبية قال بصوت خفيض بينه وبين نفسه «لقد كنت ميتا قبل هذا..» قال ذلك وأغمض عينيه بعمق شديد حتى لم يعد يرى شيء أمامه سوى السواد القاتم.

مع اندفاع الصيف السريع كانت ثمار الفاكهة تنضج بسرعة بالغة ويحمر لونها بسبب حرارة النهار اللاذعة، حتى لقد كانت تنضج بسرعة أكبر مما يمكن للعمال الثمانية اللحاق بها، لذلك فقد استقدم علاء أربعة آخرين لتدارك الأمر والتماشي معها، أثناء ساعات العمل وهم منشغلون بقطف المشمش فوق أغصان الأشجار كان بعضهم لا يتوقفون عن جعل أحد الأشخاص الغائبين علكة

يمضغونها بين أسنانهم، يتراشقون الثمار الفاسدة ويخلقون النكات نحو بعضهم بعضا، أو حتى قد يلجئون إلى لعن أنفسهم أحيانا أخرى، وذات صباح من صباحات الصيف الحارة وصل إلى البساتين أحد المجانين الموزعين على هذه الأراضي بحكمة بالغة، بعينين غائرتين وشعر أشعث ووجه يكسوه التراب ظهر الرجل واقفا يحدق فيهم ببلاهة حين ظهر من خلف إحدى الأشجار فجأة، مرتديا قميصا ممزقا وسروال مرقع في أماكن عدة ونعلين أخرقين وحزمة من القوارير الفارغة المعلقة على كتفه بخيط يجمعها فيما تتدلى من يده الأخرى صرة من قماش أحمر متسخ بها شيء من اللباس وبقايا الطعام التي قام بجمعها على طول الطريق إلى هنا، ومنذ اليوم الأول الذي وقعت فيه عيون العمال عليه أصبح كأنه الواقف والمشرف عليهم في العمل، ذلك أنه لم يكن قد فوت أيا من ساعات العمل طوال أسبوع كامل تلت ذلك، وشيئا فشيئا وجد العمال في الرجل تسلية عظيمة، فكانوا يلجئون في كثير من الأحيان إلى خلق حوارات معه مهما كان نوعها، إلا أن الأخير كان يقابلها بالصد والامتناع عنها، فلا يجد إلا أن يضم صرته إلى صدره ثم يتمتم بكلمات غير مفهومة ببلاهة بينه وبين نفسه، بعض الأسئلة التي طرحها العمال كانت تدور حول المكان الذي جاء منه أول مرة، فكان الرجل يرد قائلا «إيه.. رانا.. هاذيك هي إيه..» أو «والله والو... العلم، العلم.. الناس تقرى..» وبعضهم حاول أن يطرح عليه أسئلة تتعلق بالنساء فكان يرد قائلا وهو ينظر في غير ما جهة محددة «مكاش... تنسى ويجوك.. démo- le est il

cratiques.. ينعل بوها..لا ملة لا دين هاذي هي ال...» وهكذا، كل الحوارات تنتهي بإجابات جنونية لا معنى لها كما يعتقد، ذلك ولما كان يزعجهم وجوده بينهم بسبب الروائح الكريهة التي تطلع من لباسه فقد كانوا يستعملون الثمار الفاسدة في إرساله بعيدا عنهم، ولم يكن المسكين ليقوم سوى بالهروب متعثرا على الطوب في اتجاه غير الذي تأتي منه تلك القذائف، لكن ذلك لم يمنعه أبدا من الظهور صباح اليوم التالي.

بعد ثلاثة شهور من عودة الحاج أحمد و الشيخ إبراهيم من رحلتهما إلى ينبوع الماء الساخن ها هو الأخير يرقد على سرير أبيض طريحا وقد انكمش جلده كورق كرتون جف بعد هطول المطر، وتغير لونه وغارت عيناه وأصبح تنفسه بطيئا ومسموعا أيضا مع كل خفضة يقوم بها صدره أو رفعة، وفيما هو يرقد على السرير يحملق ببلاهة نحو سقف الغرفة كانت نسمة تجلس إلى جانبه تكتم بكائها، وبين لحظة وأخرى ترفع وجهها المحمر نحو جهاز تخطيط القلب لترى أي تغير قد طرأ عليها ثم ما تلبث تندس بجانبه وتشهق شهقات مخنوقة متألمة، واستمر الأمر على تلك الحال أياما طويلة تغير فيها وجهها وبات الشحوب فيه ظاهرا، حتى لم تعد في أحيان كثيرة لتقدر على البكاء بسبب الدموع الكثيرة التي نزلت من عينيها كلما رأت والدها يرقد هناك من خلف الزجاج ولا شيء من منظره يوحي أنه شخص لهذا العالم، ولما أصرت إحدى الممرضات مساء يوم أحد بارد على إخراجها من الغرفة فلأن سكرات الموت قد بدأت تعبث

بجسد والدها، ومن بين كل الوجوه الواقفة خلف الزجاج كان علاء هو الشخص الوحيد الذي قدر له أن يحضا بتلك الفرصة، لقد أغلق الباب ومشى إلى السرير حتى وقف على رأسه، قال العجوز بصوت جريح متألم «تعال يا ولدي... اقترب مني أكثر..» ودنى علاء منه حتى لم يعد له أن يخطو شبرا واحدا أكثر من ذلك.

دندن العجوز بعدها وعيناه ترتعشان بتثاقل «أرجوك أن تسامحني لأني قتلت والدك يا ولدي...» وكان علاء وهو يسمع كلام العجوز لا يختلف حاله كثيرا عن شجرة صنوبر ميتة مائلة، حتى لقد ارتعشت شفتاه لحظتها إلا أنه تمكن من السيطرة على نفسه، أردف العجوز وعيناه لا تبتعدان عن عيني علاء لحظة واحدة «حتى أني لم أرك تبكي مرة أخرى منذ فقدت والدك.. فهل لك أن تفعل ذلك الآن لأجلي، إني أريد رؤية...» وسقطت دمعة عظيمة من وجه علاء متلألئة واستقرت على أرض الغرفة أمامه، فكأنما علاء كان ينتظر من العجوز أن يأذن له بذلك.

إن العجوز لم يكن يدرى أن عيني علاء كانتا تدمعان قبل أن يوجه له طلبه، ذلك أن الغشاوة التي أحاطت به جعلت عينيه تفقدان القدرة على الرؤية بشكل سليم حتى من تلك المسافة، إنما ألوان ضبابية تلك التي كان يقدر على رؤيتها، وجه ضبابي وشفاه متيبسة ضبابية شعر قصير وعيون ضبابية، لكنه رأى دمعة ابنه لأول مرة منذ أربع سنوات تسقط لأجله كأنما هو يفقد والده مرة أخرى، أمسك

علاء يد العجوز بين أصابعه وقال مازحا بعدما استجمع نفسه «أفسح لي مجالا هناك فلن أتأخر عن اللحاق بكم..» وضحك العجوز متألما، ثم أصابه سعال شديد ما لبث أن اختفى، فعاد بوجهه نحو علاء وقال والحزن يملأ صوته «أخبر ابنتي نسمة أنك تحبها ولا تتردد في ذلك أكثر.. إنما هو مثل هذا الفراش الذي إذا وقعت فإنك سوف تندم ندما عظيما لأنك لم تفعل تلك الأشياء التي تمنيت فعلها.. «فقال علاء بدوره «ها قد بدأت الآن تحاسبني على أفعالي لأول مرة منذ عرفتني، ألم تتأخر على فعل ذلك يا ترى.. «فتحركت شفتي العجوز نحو ابتسامة باهتة قال بعدها «لم أحاسبك لأنني لم أجد سببا لأحاسبك..»

« أو أنك تغاضيت عنه أحيانا كثيرة !!..»

« أجل..» وسعل العجوز قليلا أكمل بعدها «كيف أعاتبك بعد أن قتلت والدك... إن ذلك لم يكن ليكون شيئا سويا لو قمت بتأديته..» قال ذلك هو ينظر بعيدا نحو جدار الغرفة، ثم نقل رأسه نحو علاء فوجد عينيه الؤلؤيتين تحدقان فيه بامتنان وحب وعدة أشياء أخرى لم يفهمها، واستمرا بعد ذلك في تبادل عدد من الجمل القصيرة من بينها كان قول العجوز قبل أن يدركه الأمر بلحظات قليلة «أخبرها يا ولدي.. أخبرها بكل شيء بعد أن أرحل، أخبر نسمة كم أحببتها، وكم كنت أبا غير مبال بعد موت أمها، أخبرها أيضا كل ما يجب أن تعلمه...» قال ذلك وسقطت يده ثقيلة من يد علاء على

الفراش بجانبه، وأسقطت معها دموعا كثيرا بعضها من عيني علاء وبعضها خلف الزجاج وبعضها على المسار المؤدي من باب الغرفة نحو والدها حين انسلت نسمة من صدر الحاج أحمد واندفعت نحو السرير راكضة وهي تصرخ صرخات فتاة مات والدها.

-8-

مرت مراسم الدفن بشكل سريع للغاية، وبطيء أيضا، تلتها زيارات التعازي إلى المنزل الكبير القائم وسط حديقة خضراء غاب سيدها، فحضر السلوقي وبعض من العمال القدامى لتأدية الواجب لكنهم سرعان ما عادوا إلى مراكز عملهم، والواقع أنه لم ينبغي لهم القيام بغير ذلك، ولعدة ساعات خلال اليومين التاليين ظل الحاج أحمد وعلاء إلى جانب أخيه الصغير يستقبلون القادمين على فترات مختلفة، وكان الحاج أحمد يمثل في تلك الوقفات أمام مدخل الدار الوريث الشرعي لصديقه، فلا بد أن يقف في أول الصف ويستقبل أياد الناس أولا للمصافحة، بتلك الوجوه الملطومة عاد الثلاثة إلى الداخل بعد أن فرغ الأمر عن آخره ذلك اليوم وانتهى، فاطمئن الحاج أحمد على الصغار ومضى إلى بيته أيضا، فيما جلس علاء ولؤي في غرفة الضيوف وكل يحدق إلى موضع قرب قدميه في الأسفل.

نسمة لم تكن على ما يرام أبدا، ولا حتى قريبة من ذلك، فساقاها

لم تعودا تقدران إلا على حملها من الفراش نحو المرآة لتتفقد وجهها الشبحي ومن المرآة نحو الفراش مجددا وهي تجرجر قدميها المتعبتين بذلك التثاقل، وقد أصبح المنزل المبهر بديكوره وأشياء اللامعة والأثرية وجدرانه البيضاء أقرب ما يكون إلى منزل أشباح مخيف تنعدم فيه أصوات البشر، وحدها الخادمة المحزونة على فراق رب عملها كانت تذرع الزوايا المظلمة جيئة وذهابا لتمسح الغبار عنها، أو قد تصدر ضجيجا متعمدا حين تدخل المطبخ في أوقت الطعام لتعد شيئا لا تجد لمن تقدمه بعد ذلك.

بعد انقضاء عدة أيام أخرى لم يكن حال البيت قد تحسن بذلك الشيء الكثير الذي يمكن اقتطاع أسطر طويلة لوصفه، إلا أن أميرة البيت الصغيرة قد تغير حالها وبات لها أن تفتح باب غرفتها وأن تنزل الأدراج نحو الأسفل، أسبوع قد مر على توديع والدها، لكن الأيام وكما يبدو ليست هي الشيء الذي سوف قد يعيد لها روحها المسلوبة، فمع طلوع صباح اليوم الثامن خرجت من غرفتها مبكرا وراحت تلف الغرف وهي تضم ذراعيها إلى صدرها فيما تمشي بتثاقل وهي تجرجر نعلها القطني في قدميها تائهة كأنما تبحث عن شيء ما، فما إن تدفع باب إحدى الغرف إلا وحدقت بداخلها طويلا قبل أن تعيد غلقها مرة أخرى، كأم تطفئ ضوء النوم على صغارها وتطمئن عليهم، إنما الفراغ واللاشيء غير الأثاث الصامت هو ما كانت تتركه للظلام خلفها، وعاد علاء من العمل حين اقتراب الوقت إلى العاشرة فخالجه شعور جيد حين رآها تجلس في الخارج على كرسي الحديقة فيما

تلف نفسها ببطانية بيضاء دافئة، كذلك دخل المطبخ سريعا وخرج يحمل في يديه كوبين من الشاي الأخضر الساخن.

« لا ترفضيه فلم أدفع لأجله ثمنا.. إنهم يقدمونه بالمجان هناك في الداخل..» قال وهو يناولها واحدا منهما ثم أخذ لنفسه مكانا على الكرسي المقابل.

كان اليوم باردا، ليس كباقي الأيام الأخرى، حتى أن أوراق شجرة التوت في الأعلى كانت تتحرك مع النسيم حركات صغيرة يمكن رؤيتها، وتسمرت عيناه في وجهها المريض وعيناها اللتان جلس السواد تحتهما جلسته الثقيلة، وظل يراقب خصلات شعرها كيف تتراقص على وجهها دون أن تزعجها، كذلك راحت نسمة تحدق في عشب الحديقة شاردة كأنما لم تنتبه إلى أنها قد أمسكت كوب شاي ساخن من يد علاء قبل لحظات قليلة، حتى أنها لم تزح عينيها عما كانت تنظره إليه حين حركت شفتيها المتيبستين قائلة

« لماذا جئت إلى هنا..»

« لأن العالم ضيق في الخارج...»

« وتريد أن تضيق علي الحديقة أيضا..»

فرد علاء قائلا «ليس هنالك مكان يتسع للمرء إن كان قلبه ضيقا..»

فقالت «وليس هنالك مكان يضيق على المرء إن كان قلبه واسعا، ولا يزال وجهه يقدر على أن يضحك... صح»

« أجل.. وذلك صحيح أيضا إذا أردت تصديقه..»

ولما رفعت رأسها حدقت إليه لحظة وقالت «أنا لست بذلك الضعف الذي تعتقد... سوف أعود إلى طبيعتي حين أرغب في أن أعود إليها..» قالت ذلك وضمت ساقيها إلى صدرها على الكرسي وأدنت كوب الشاي من شفتها وجعلت تبللهما.

« هل تريدين شيئا.. «قال علاء بعد أربعة دقائق مرت ظلا صامتين خلالها، لكنها لم تجبه عن سؤاله، إنما راحت تحدق فيه بعينيها الشاحبتين تحت خصلات شعرها السوداء وجعلت ترشف رشفة أخرى، وإذ ذاك فقد قام علاء عن مكانه ولم يكن كوبه قد نقص بقطرة واحدة، وغادر المكان بعدما اطمئن عليها، أما هي فابتسمت شيئا يسيرا وعادت لفرز أفكارها المتشابكة كما اعتادت أن تفعل حين تكون جالسة لوحدها.

كان علاء وهو ينتظر هبوط الطائر متكأ على غطاء سيارة الشيخ إبراهيم بملل بالغ. إذ لم يعد له أي مهرب من قيادتها بعد رحيل صاحبها، يضع يديه في جيبيه شاردا فيما يحدق إلى مخرج المطار يترقب وصولهم، ولم يكد المساء يوغل حتى وقعت عيناه على ثلاثتهم وهم يجرون حقائبهم يتوجهون نحوه، أما ندى الصغيرة فلقد

كانت تبدو أحسن حالا، بعد العلاج الذي خضعت له أثناء رحلتها خارج أرض البلد، ضحكت من فرط السعادة لما رأته وركضت نحو ساقيه وعانقتهما بشدة، وذلك شيء جعل علاء يبتسم ربما للمرة الأول منذ وفاة الشيخ إبراهيم أو حتى قبل ذلك بفترة، أما وقد لعب قليلا بشعرها الحريري الأسود فقد انحنى نحوها وصحح أمر العناق بشكل أفضل، ثم وجد بعد أن طلب منها الإسراع لتأخذ مكانها على المقاعد الخلفية لنفسه وقتا ليرحب بأكرم ورياض ترحيبا يليق بالمشهد.

قال أكرم وهو يضمه إلى صدره «أدري أنه كان بمثابة والدك... كم حزنت لهذا يا صديقي..» وأخرج سيجارة وأحرق رأسها، أما رياض فاندفع نحوه بتهور حتى لقد أجبره على التراجع خطوتين إلى الوراء ليوازن نفسه، ولما انتهى عناقهما بعد ما يقارب العشرين ثانية فإن رياض لم يكن قد قال شيئا، إنما أثر دمع على كتف علاء ذلك الذي كان يمثل عزاءه، والواقع أن الفقيد كان يستحق ذلك، لقد كان رجلا طيبا جدا، حتى أنه لمن الجائز أن يبكى عليه من طرف أشخاص أقل منه طيبة. ذلك وارتد الجميع بحقائبهم نحو السيارة.

ولم تكن التعازي التي قدماها بعد ذلك إلى نسمة ذات فائدة كبيرة ولا قد حصلت فوائدها المرجوة، فلم يحدث وأن حركت عينيها عن مشهد الظلام خلف الزجاج وهي تظم ساقيها إلى صدرها على الأريكة البنية وسط قاعة الضيوف الواسعة، ولا التفتت إلى أي واحد منهما،

فذاك قد ترك صحبتها على حين غرة من فترة، وذاك نال شرف أول لص يقوم بقطع طريقها في أول لقاء بينهما، والواقع أنها لو كانت تفكر في غير ذلك إذن لما فعلت أكثر مما فعلته حقا، ذلك أن شخصهما ليس شيئا كان لها أن تهتم لأمره حينها، فمنظرها وهي تغطى نفسها بدثار أبيض فيما تبرد كوب شاي ساخن بين يديها على الأريكة كان لا يختلف عن مشهد دمية خزف جوفاء إلا في جوهره، فقط ثوان قليلة تلك التي كانت تسرقها من وقتها بين لحظة وأخرى لتحدق في ندى الصغيرة وهي تجلس بأدب عميق على الجهة المقابلة تضع يديها بين ركبتيها وتبادلها نفس النظرات الأنثوية، قالت بعد أن سمعت باب الغرفة يغلق خلفهما «لم يكن من داع لإحضارهما إلى هنا..»، وتوقف علاء عن الإتيان بخطوة أخرى حين سمع كلامها، نظر إلى ندى ورد بصوت خفيض قائلا «هنالك داع لكل شيء أفعله... الذي ليس له داع هي الأشياء التي تفعلينها..» قال ذلك ثم أكمل ما كان ينوي أن يفعله قبل ذلك، أما نسمة فقربت شفة الكوب إلى وجهها وجعلت تشتم عطر الشراب الذي بداخله، ذلك وهي تسمع صوت الباب وهو يوصد خلف ظهرها مرة أخرى بينما لم تحدث الصغيرة أي حركة يجدر بنسمة أن تهتم لأمرها، إنما ظلت تجلس بهدوء في مكانها وهي تصمت كدمية مطيعة أجلست هناك بعدما نفذ شحنها.

في الخارج على ضوء المصباح المعلق فوق الباب وقف علاء يحدق إلى أكرم باهتمام حين راح الأخير يسرد بعض الكلام ظن أنه ليس من الجائز تركه ليوم آخر «أتعلم يا رجل..» دندن أكرم « إنني لم أتمكن

من أن أصبح رجلا صالحا كما وعدتك.. حتى أنني لم أقترب من أن أكونه.. أترى خلال الأيام التي قضيتها في تونس، لقد ارتكبت عددا من الآثام المقرفة ما لا يمكنني عده.. حتى دعني أخبرك أنه إذا كان لتلك الأمور جنة على هذا الكوكب فأحسب أني توجهت إلى بعض أراضيها ولم أخطئ وجهتي ولو شيئا يسيرا حتى.. لكن ذلك الفتى..» قال جملته الأخيرة وهو يلتفت نحو الباب حذرا، أردف بعدها وهو يعيد رأسه «رياض.. أجل.. إنه سيغدو رجلا صالحا، حتى لأحسب أنه قد غدا كذلك منذ فترة طويلة..مثلك تماما، إنك لا تدري كم كان عليه أن يقاوم كل تلك الأماكن التي ركضت به نحوها.. لكنه فعل ذلك، لقد تمكن من الهروب في كل مرة..أنه لم يأثم معي ولو إثما واحدا، لم يشرب ولم يرقص مأخوذا ولم يقبل شفاه فتاة واحدة..» ثم صمت لحظة يفكر كأنما قد تذكر شيئا، قال وقد أطلق عطاسا باغته «بالمناسبة ذلك الفتى يحبها.. حتى يحبها جدا، مثلما فعلت أنا قبلك، ومثلما فعلت أنت بعدي.. ويبدو أنه لا يعلم عن أي منا، لقد أخبرني بعض الأشياء التي كان يخجل من إخبارك بها.. يكفي أن تعلم أنه يحبها مثلك أيضا.. ما أريد إخبارك به هو أن واحدا منكما سيُحزن الآخر..» قال ذلك وأنهى كلامه، ثم كان أن تبادلا بعضا من قطع الكلام القصيرة وتوادعا بعدها.

عاد علاء إلى الداخل ورأسه تأكله الهواجس بسبب من تلك الأفكار التي خلقتها كلمات أكرم في دماغه، ولم ينتبه وهو يضع على الرواق خطواته القليلة متوجها نحو غرفة الضيوف إلا وقد أطل علاء برأسه

من جدار يؤدي إلى باب الحمام غالبا، كذلك قال رياض مترددا وهو يقف أمامه «هل سيكون أمرا طبيعيا إن عدت إلى الداخل..» قال ذلك بملامح تبدو خائفة.

فقال علاء قبل أن يحرك مقبض الباب ويدفع بها إلى الداخل «لا تستطيع القيام بأمر أكثر طبيعية من هذا هذه الليلة..» وكان لدخولهما الأثر البالغ على تهلل أسارير ندى حين تلقفتهما عيناها العسليتين وركضت إلى حضن أخيها.

علاء وهو يأخذ مكانا على الأريكة قال مشابكا أصابع يديه بين ركبتيه «إذن هل هنالك شيء يمكن تقديمه للأميرة..» ونظرت إليه نسمة بعينين ذابلتين غير ذات قوة، كأنما تعاتبه على طرحه الأمر بتلك الطريقة، ثم نقلت بصرها إلى الصغيرة وأخذت تحدق فيها لبرهة قالت بعدها «لا أريد أي شيء..» وعادت ترشف الشاي من الكوب الذي في يديها.

بعد ذلك مرت لحظات صمت فضها صوت رياض حين انشأ يقول فجأة «أعتقد أن الوقت قد تأخر بما يكفي ، هل يمكننا أن نذهب إلى البيت الآن يا علاء، لقد أتعبتنا الطائرة حقا..» وكانت ندى حين قال هذا تقف بين ساقيه فيما يضع يديه على كتفيها فنظرت إليه مميلة رأسها كأنما لم تستسغ كلامه، وقد لاحظ عليها علاء ذلك عندما سألها قائلا «هل تودين البقاء هنا مع نسمة يا ندى.. يمكنكما أن تفعلا الكثير من الأشياء المسلية، هناك أرجوحة في الحديقة

يمكنكما أن تلعبا عليها معا..» فشزرته نسمة بنظرة كأنما قال شيئا غير أخلاقي أبدا، والواقع أن ذلك أسعدها حتى لو لم تبده ظاهريا، فحين تبادلت الفتاتان النظرات وجدت كل واحدة منهما في عيون الأخرى أنها توافق على الأمر جدا.

فقال رياض بعدها وهو ينظر إلى نسمة بتردد واضح «لكن.. هل..» ثم خفض وجهه نحو أخته وسألها عن رأيها فقالت والبسمة تغطي وجهها «أجل، إذا سمحت لي بذلك..» فلم يجد بدا من تأييد رغبتها، كذلك جلست الفتاتان إلى بعضهما وجعلا يشقان حديثا خافتا تملأه الأنوثة، أما رياض فجر حقيبة سفره خلف علاء نحو الخارج بعدما طبع قبلة عميقة على خد شقيقته، وقال علاء حين وقفا أمام بعضهما على الطريق الصخرية التي تشق العشب القصير نحو البوابة، لقد قال واثقا «ليس عليك أن تقلق بشأنها يا رياض، فجميلة سوف تهتم بها جيدا، حتى سيكون من الأفضل أن يكتمل علاجها في بيئة مشابهة...» فهز رياض رأسه موافقا «أجل، وأنا اعتقد ذلك أيضا..» فأكمل علاء كلامه «لقد رأيت نسمة وهي تحدق إلى ندى كأنما تريدها أن تجلس بجانبها، لكنها تخجل من ذلك.. تخجل من أن تقع موقع المحتاج إن هي طلبت شيئا..» ويده لا تزال على يد الحقيبة فتح رياض عينه بشدة «أووه حقا، إني لم ألاحظ ذلك عليها أبدا... صحيح أني رأيتها تحدق إليها بنظرات غريبة، لكنني اعتقدت أنها لا ترغب في رؤية أي أحد منا...» فقال علاء «ذلك ما تريدك أن تعتقده عنها... نسمة مثل أي فتاة أخرى، تحتاج أن لا تبقى وحدها..»

ولما حرك عينيه في الظلام حوله أردف بعدها «بالمناسبة.. سنعود إلى العمل غدا، فاستعد وفقا لذلك..» فرد رياض بحماسة «أجل، سأفعل.. سوف أنام باكرا..» ذلك والتفت الاثنان نحو مركبة الشيخ إبراهيم الواقفة أمامهما، رمى رياض حقيبته على المقاعد الخلفية وأخذ لنفسه مكانا بجاني علاء على المقعدين الأماميين لأول مرة، وبعد لحظات كانا يغادران البيت بعيدا نحو منزليهما، وكان رياض أثناء الطريق المحفوفة بالأضواء الملونة من أعمدة الإنارة لا يفكر في شيء غير الخيبة التي أصابها لما لم تلقي نسمة له بالا ولم تحدثه ولو بكلمة واحدة، فمع رغبته الشديدة في أن يبادلها أطراف حديث مهما كان قصيرا وبالغا في قصره أو موجعا كأن يكون «لا تطل الوقوف طويلا داخل هذا المنزل..» إلا أنه لم يمتلك الشجاعة للوقوف أمامها والنظر في عينيها، إنما حالتها وشحوب عينيها ودمارها النفسي قد أحدث بداخله ألما كبيرا أحس معه أن ريحا تهب بداخل صدره، غير أن بقاء ندى إلى جانبها كان يعد خيارا جيدا أيضا وقد أشعره هذا الأمر _ حينما فكر فيه جيدا _ أنه قد تمكن من أن يقدم لها شيئا، والواقع أنه لو استطاع أن يقدم أكثر من ذلك إذن لما تخاذل في فعله لحظة واحدة، أما علاء إلى جانبه فلم يكن أحسن منه حالا، فقط حركات السائقين العشوائية على الطريق هي ما كان ينفض الشرود عن وجهه بين لحظة وأخرى.

مع تسلق الشمس عنان السماء صباح اليوم التالي وقف السلوقي وسط عشب الحدائق يحدق فاغر الفاه كأنما قد نسيه مفتوحا بعدما

أطلق جملة من الشتائم نحو مجموعة من الأطفال المشاغبين وهم يهربون بعيدا عن مجال الأحجار التي كانت تتطاير من يده خلفهم، وكل ذلك بسبب حوض الماء الكبير المعد لسقي الأشجار والذي عده الصغار حوض سباحة لا يمكن مقاومة إغراقه والامتناع عن الغوص فيه كلما سنحت لذلك فرصة مناسبة، أربعة أطفال عراة الصدور اختفوا بين أشجار البرتقال والمشمش اليابسة بعد ذلك، وعاد السلوقي نحو الغرفة ورأسه لا يملؤها سوى التفكير في أمر فقدانه للمزيد من أرطال الثمار الثمينة لصالح هذا الذي أنهك ساقيه ومرغ سمعته في الحقول كلها، ذاك وأطلق نحو كلبيه صفيرا متقطعا جعلهما يرجعان عن مطاردة الصغار ويعودان مخفوضي الرأس يشتمان روائح حذاءه النتنة ويتبعانها.

وفي الليل حين دخل الغرفة بعد جولة سريعة قام بها لتفقد محيط البساتين المثمرة فقد عاد وأطل برأسه البيضوي من الباب فرأى العمال وقد نصبو خيمتهم على المتشرد الذي أصبح يعد جزءا لا يتجزأ من الغرفة، فوجدهم وقد أحاطوا الرجل وراحوا يستمعون بشوق إلى ترهاته التي ليس لها بداية ولا نهاية، إنما جمل متقطعة وكلمات غير ذات صلة هي التي كان يتلفظ بها من لحظة لأخرى وقد تمحور أغلبها حول أشخاص مجهولين أو شكر لله أو سب للدولة، ومن الجمل التي كان يطرحها من فمه العفن المليء بالرغوة وبقايا الطعام كانت «الكثير من الحرية.. والقليل من الطعام.. فليأخذ الله رؤوسهم..» وحينها كان العمال المتفقهون يجدون في ذلك بابا لفتح حديث

طويل حول ما يشبه أمر دس الخصية بداخل درج المكتب وضربها، ومن ثم فقص قصص مطولة عنها، فيما يقوم المتشرد بعد انغماس الجميع في العجين الذي قام بخلطه بضم لفافة القماش خاصته إلى صدره، ثم يجلس بهدوء عند الزاوية وينصت إلى حديثهم بينما يلقي على أبطال قصصهم واحدة من شتائمه بين لحظة وأخرى.

غربت شموس وأشرقت أخرى، وتلت الأيام بعضها ودنى الفصل أكثر نحو نهايته، علاء وهو يقف أمام الغرفة يلقي الأوامر إلى العمال بجمل قصيرة ويوجههم لترتيب الصناديق بشكل أكثر حذرا على الشاحنة، تقدم نحوه السلوقي وحدق إليه طويلا ثم ضرب الأرض بعصاه وقال له «لقد شحب لونك يا علاء، هل أنت بخير..»

هنا أنزل علاء يديه إلى خصره وقال دون حتى أن يبعد عينيه عن الشاحنة «أجل.. وأنت» وبدا كأن كذبة بيضاء كبيرة خرجت من فمه وكان من السهل عليه قولها.

فقال السلوقي غير مصدق لما قاله علاء عن لون وجهه «أحاول اصطياد واحد من البشر اللذين تم لعنهم.. وأنا الآن أشعر بغضب شديد لعدم تمكني من فعل ذلك.. غير هذا فكل شيء يبدو بخير كما ترى..»

فقال علاء وهو يلتفت إليه بوجهه الأبيض الشاحب هذه المرة «لقد رأيته صباحا.. كان يعرض من سلعتنا على جنب الطريق على

بعد ثلاث كيلومترات من هنا..» هذا وشد السلوقي بصره بعنف حتى افترق حاجباه وردد والغضب الشديد يعلو نبرته «كان يبيع سلعتنا على بعد ثلاث...» ولم يستطع إتمام جملته كاملة، فجعل يعض على شفته وضرب الأرض بعصاه فيما كاد يدور على نفسه دورة كاملة، ولما تمالك نفسه وانتصب واقفا كرجل عاقل قال بعدها «حتى أنني لم أكتشف أمر السرقة لو لم تخبرني.. كيف بات يحدث معي هذا..»

أما علاء فلم يكن ليهتم بأمر الثمار المسروقة ذلك أن أشياء كهذه تعد من أبجديات العمل ولا بد من حصولها، وترك السلوقي عالقا في أفكاره يحك ذقنه بأصابع يده ونقل بصره نحو مكان بين الأشجار القريبة وقال مشيرا بوجهه وبصوت خافت «ماذا تعتقد بشأنه..» فنظر السلوقي نحو الموضع المشار إليه فوجد المتشرد رث الثياب وقد جلس على أحد الصناديق الفارغة حاملا حزمة القوارير الفارغة على ظهره بينما يهرس واحدة من ثمار الخوخ المائعة فيما لطخ وجهه وصدره بعصارتها بينما يحرك رأسه في غير ما اتجاه وعيناه تهتزان كأنما يقف على رأسه جمع من شياطين راحت تحدثه في وقت واحد فيما لا يدري إلى أي منها يجب أن يستمع أولا.

قال السلوقي بعد نظرات فاحصة «لا أدري حقا.. أو لا أعتقد أكثر مما يجب أن يعتقد بشأنه.. إنه يحمل شيطانا رجيما بداخل رأسه، ألا ترى..»

فقال علاء متراجعا عن الأمر الذي كان قد بدأه «فليكن..» والتفت نحو السلوقي بعدها «علي أن أعود الآن نحو المنزل.. اعتني بنفسك..»

« لكن أنت من عليه أن يعتني بنفسه.. «قال السلوقي بعدما ابتعد عنه علاء بخطوات ثلاثة» جرب أن تنظر إلى المرآة وسوف ترى أنك ليست بخير أيها الفتى..» قال ذلك واستدار نحو باب الغرفة ليأخذ قسطا من الراحة، أما علاء ففي انتظار أن يغير رياض ملابسه فقد وضع وجهه أمام المرآة العلوية فوق المقود وجعل يتفحصه بحذر خيفة أن يلحظه أحد، قبل أن يفتح رياض باب السيارة من ناحيته لما اندفع إلى الداخل والحماس يملأه، وما إن ألقى على علاء نظرة سريعة حتى لاحت في رأسه نفس الفكرة التي لم يكن علاء يود أن يسمعها، قال رياض وقد أصابه شيء من الهلع «علاء هل أنت...» فقاطعه علاء قائلا «أنا بخير.. أنا بخير، ضع حزام الأمان على صدرك..» ثم لم يحدث أن تحدثا عن هذا الأمر طوال الطريق مرة أخرى، لكن رياض أدرك بما لا يمكن التشكيك في صحته أن علاء بات يشكو من خطب ما لم يكن قد لوحظ عليه حين وصلا إلى البساتين في الصباح الباكر.

9-

وأطلت شمس أخرى صباح يوم آخر، لم تكن شمسا حارة جدا، إنما بما يكفي لتشبع أوراق الشجر، ولم يكن يوم عمل أبدا، كان يوم نوم ذلك الخميس الذي استيقظ فيه علاء مع تمام العاشرة بعدما تبين مساء الأربعاء أن السوق لن يفتح أبوابه هذا اليوم لأسباب تخص الواقفين عليه حتما، وترك فراشه الدافئ وراح ينزل الأدراج مغمض العينين نحو الأسفل، والواقع أن أمر السوق ليس الوحيد الذي دفعه إلى النوم حتى ساعة متأخرة من النهار على غير العادة، بل إن شحوب وجهه المتزايد وتباطؤ حركاته نتيجة الإنهاك الذي ألم بجسده مؤخرا هو ما جعله ينام إلى وقت كهذا وإلا لكان في وسعه القيام بالكثير من الأشياء غير الاستلقاء في الفراش والاستسلام للألم الذي بدأ يعصر صدره منذ أيام وراح يتزايد كل فترة.

لم تتوقف صفحة الباب الخشبية عن الاهتزاز في مكانها حين توقفت قدماه الحافيتان أمامها، فكان أن صارع سعالا سريعا ألم به

فجأة وأزاح مزلاج الباب وقام بفتحها.

« مرحبا.. هل أتيت باكرا ؟» قال سليمان بمزحة بعدما لاحظ ذلك الوجه المريض أمامه.

« لا.. لكنني نمت أكثر من اللازم «

ولما لاحظ سليمان عليه آثار التعب وتأكد مما يراه جليا قال بعدها «هل أنت بخير.. تبدو وكأنك سوف تسقط أرضا»

« قلت لك أنني بخير.. هلا أخبرتني ما الذي أتى بك إلى هنا..» قال علاء، وكانت يحاول جاهدا أن يثبت أصابع يده على الباب بينما يسند كتفه إلى إطارها.

« إذن أنت بخير هاه.. دعني أخبرك الآن بما جئت لأجله، لكن حديث لا يصح أن يقال هنا.. يتعلق الأمر بالمهمة التي أسندتها إلي منذ فترة..» وأحدث كلام سليمان أثرا في وجه علاء فجأة، حتى لقد تصلب مكانه وجعل يحدق إليه بعينين مفتوحتين للحظات وفتح الباب بما يكفي لتسع جسدين يمران عبرها.

مساء اليوم وفي البيت الصغير الذي يقطنه الأصدقاء اليتامى، كان المصباح الكهربائي يفرش ضوءه على طاولة اللعب الصغيرة وسط الغرفة، وكما العادة فقد جلس الرفاق حولها على مقاعد خفيضة فيما هم منهمكون في ضرب سطحها بأحجار الدومينو البيضاء بقوة،

أما رياض ولحبه الوقوف خلف النافذة المطلة على مباني المدينة وطيورها المسالمة فقد كان يفعل ذلك في تلك اللحظة، وكانت شمس المغيب تهرب نحو وجهتها مخلفة ورائها زرقة وبياضا لامعين، قال واضعا يده على شدقه كأنما قد تاه فكره فجأة «إذن سوف أراها..»

فصاح سليمان من خلفه بعد أن وضع على الطاولة حجرا «ترى من أيها الفقير البائس.. هل أصبحت تصاحب الفتيات مؤخرا..» واستفاق رياض من شروده والتفت نحوهم «سأغيب هذه الليلة، لقد دعاني علاء إلى عشاء سوف يقام في منزل الشيخ إبراهيم رحمة الله عليه... سأرى أختي، أخبرتكم أنها تبقى مع ابنته في ذلك المنزل..» ولم يكد ينتهي من قولته حتى انفجر أحد الصحاب الجالسين بضحكة لم ينعم بها كثيرا لما ابتلع ما بقي منها حين وجد عيني سليمان الذئبيتين تلمعان في وجهه.

« اسمع يا فتى..» قال سليمان لما أطفأ عينيه والتفت نحو رياض بوجه ذا تقاسيم خادعة «اذهب ولترافقك السلامة... لا أحد منا سوف يفتقدك كما تعلم، هيا لا تتأخر على رب عملك الطيب..» ورافق رياض بعد ذلك ظله نحو باب الغرفة وعبر الأدراج العفنة نحو الأسفل ثم نحو الباب وأصبح في الخارج.

وتجمع الصحاب أكثر حول الطاولة وجعلوا يصغون السمع ويقربون الوجوه من بعضها لما سمع لالتصاق الباب بإطارها صوت أزاح

الحجارة عن متنفسهم، فتوجهت العيون صوب سليمان الذي كان لا يزال ملتزما بجلسته القديمة واضعا ذراعيه على ركبتيه ومرخيا كتفيه بتفاخر قال بعدها «اسمعوني أيها الفقراء الخائفون الحمقى.. لم يعد من مجال لبحث الأمر أكثر، يجب علينا أن نفعل ذلك الليلة» فقال الفتى الجالس على يساره «الليلة !!..» فهز سليمان رأسه مؤكدا أمره، وغمغم الجالس على يمينه قائلا «لكن كيف سنفعل ذلك يا رجل.. لقد تحدثنا عن الأمر سابقا فقط كفكرة، إننا لم نبحثه جيدا ولم نرسم أية خطة..» فقال سليمان مبددا ذلك الخوف عن آخره «ذلك عندي لا تقلق..» هنا نطق رابعهم وكان يجلس على الجهة المقابلة، قال بعدما زفر سحابة من دخان سيجارته «لنفرض أننا دخلنا.. ما الذي سيضمن لنا وجود ما ذهبنا لأجله.. حتى أنك لست متأكدا من ذلك» هنا غرس سليمان أصابع يده على الطاولة وبنبرة شيخ حكيم ومضيقا عينيه رد قائلا بثقة «سوف أركل أي شخص يضيف سؤالا كهذا من الآن فصاعدا.. أتعلمون لماذا، لأنني أستطيع أن أرى أوراق نقدية حمراء وخضراء كما أراكم... «وعاد بجسمه إلى الوراء متنهدا وأردف بعدها «لقد راقبته، راقبته جيدا في الأيام الأخيرة.. إنه يقبض أموال الفاكهة يوميا ولا يرتاد البنوك أبدا.. وشخص يتقاضى كل تلك المبالغ ولا يذهب به نحو تلك المباني المحصنة فلابد أنه يخفيها في مكان آخر، مكان لا يكون بعيدا عن مرقده بحيث يمكنه الشعور بوجودها.. على أية حال تعتبر رائحة النقود أفضل من رائحة الورود مائة مرة، يقال أنها تبهج النفس الكئيبة أيضا أليس كذلك.. «هنا

تطلعت إليه عيون الجميع واتسعت بنظرات جائعة، «إذن ما الذي يجعلك متأكدا ؟» سأل أحدهم.

« ألم أخبرك أن لا تسأل مثل هذه الأسئلة أيها الأحمق..» صاح سليمان في وجهه بغضب، وما لبث أن هدأ بسرعة قال بعدها «أتذكرون تلك المهمة التي كلفني بها قبل فترة، حين طلب مني الإمساك بسائق سيارة المرسيدس واقتياده إلى بساتين الفاكهة لكنني لم أتمكن من فعلها حين غادرت طريدتي البلد حتى قبل أن ابدأ ملاحقتها..»

« أجل..» ردو بصوت واحد.

« لقد رأيته صباح اليوم وأنا أتجول في الخارج، كانت السيارة نفسها، الواقع أنني لم أكن متأكدا لكنني سألت عنها وبت كذلك.. ما يهم الآن هو أنني ذهب بيت علاء وطرحت عليه الأمر مجددا..»

«هل دخلت البيت ؟..» باهتمام سأل الذي على يساره.

« مثلما سأدخل قبضتي في فمك إن لم تدعني أنهي ما أود قوله..» وأجابه سليمان بحده، ولما ارتد المسكين إلى موضعه أردف سليمان قائلا «ذكرت له لوحة الترقيم فصدقني أيضا.. بعدها تحدثنا في ساحة البيت واقترحت عليه أن أباشر مهمتي مجددا لأستحق النقود التي حصلت عليها سابقا، لكنه اعترض بقوله إنه لم يعد بحاجة لمساعدتي في الإمساك بصاحب المركبة، وليذهب إلى قعر الجحيم

كلاهما، بقي علي بعد ذلك أن أتفقد كل شبر من ذلك البيت أثناء محاولتي لخلق أحاديث لم أدري من أين كانت تأتي إلى رأسي... أما ما توصلت إليه بعد ذلك فهو أنه سيكون علينا اجتياز عائق واحد حتى نصبح في الداخل، لن يتطلب الأمر سوى خلع الباب بركلة قوية... آه، و كي لا أنسى، هنالك عجوز تشبه السلحفاة الميتة قد تعترض طريقنا، لقد رأيتها تطل برأسها من خلف إحدى الأبواب في مرحلة ما من حديثنا.. فلنكن مستعدين لذلك..» بهذا أنهى حديثه وأمال جسمه إلى الخلف قليلا وجعل ينقل بصره بين عيون أصحابه ، فكان أن رأى وجوه لصوص خائفة غير واثقة، ينظرون إليه ببلاهة ويجلسون كمجموعة من الخراف المشردة المتعبة والمطيعة.

***

على مسطحات عشب الحدائق فرش القمر رداءه الفضي بعدما أسدل الليل جدوله، بعض الجنادب كانت تتقافز من موضع لآخر بين لحظة وأخر، وبعضها كان يخرج إلى الطريق فتصعد روحه مباشرة إلى بارئها تحت عجلات المركبات السريعة، وعلى أصوات الصراصير المخفية على أغصان الشجر تراقصت الخفافيش محلقة في الأعلى تبحث عن طعامها، وعلى أغصان واحدة من تلك الأشجار ربض السلوقي منتظرا وقد حشر نفسه بين الأوراق بمهارة وجعل يترقب أي جسد متحرك يمكن أن تلمحه عيناه الفهديتان أو أي أصوات خفيفة

يمكن أن تلتقطها أذناه القطيتان وقد طوقت أصابعه الجافة غصنا صلبا ليثبت نفسه جيدا بينما أمسكت يده الأخرى بعصا خشبية ملائمة للضرب ويسهل لو تطلب الأمر رميها نحو الفريسة، بعينين لامعتين وسط الظلام وانحنائه ظهره لقد كان يشبه بوقفته تلك فوق الأغصان قردا كبير السن طردته القبيلة، و كان قد مضى ساعتان من الزمن على اتخاذه تلك الحالة، إلا أن عزمه على إتمام الأمر كان أقوى بكثير من كل الآلام التي تسللت إلى مفاصله الصلبة، ذلك أن إشاعة قد تناهت إلى سمعه مساء اليوم تقضي بأن غريمه سيقوم بجولة إلى البساتين هذه الليلة، لقد كان تحديا واضحا ولم يعد بالإمكان السماح بسقوط مكانته نحو الحضيض أكثر، حتى لقد أصبح يحس مؤخرا أن لقب السلوقي بات يسلخ منه سلخا ويطوى على التراب يوم بعد آخر، إذن لم يكن له أي مجال للتذمر أو التفكير في النزول عن الشجرة، ولما لم يكن من أثر لطريدته فقط دس رأسه الأصفر بين الأوراق وغاب بينها في الداخل.

« مرحبا يا جماعة..» كذلك صاح رياض مبتهجا وهو يأتي من ورائهم، أي نحو علاء، لؤي، نسيمة، الخادمة وأخته الصغيرة ندى التي ركضت نحوه وارتمت بين ذراعيه بسعادة غامرة، فيما رحب به الآخرون ترحيبا سريعا يليق بمقامه، إنها عادة الجلوس مساء كل خميس حول مأدبة عشاء صغيرة يجتمع فيها كل أفراد العائلة، إن الأعضاء الأساسيين لم يستطيعوا التخلي عنها، والواقع أن علاء هو من قام بتذكيرهم بهذا الأمر بعد مرور أربعة أسابيع على وفاة رب

العائلة وكبيرها، إلا أن نسمة لم تبدي أي اعتراض على الأمر بل لقد رحبت به ترحيبا واسعا كأنما هي تتوقع رؤية شبح والدها على الأريكة وقد أتى ليجالسهم، ومن الجدير بالذكر أن نسمة قد تخلصت من سحابة الحزن التي كانت عليها بما يمكن ملاحظته عليها، وكأنما ندى الصغيرة كانت دواء مفيدا لها خلال الأيام القليلة التي قضتها معها، حتى لقد حدث قبل أيام قليلة أن سألت علاء عما يحدث لوجهه، وعن ذلك التغير المثير الذي أصاب حركاته المثالية، إلا أنها لم تخرج بإجابة تختلف كثيرا عن تلك التي نالها الجميع قبلها، لقد أخبرها أنه بخير وإن ليس عليها أن تقلق بشأنه، وبدا الأمر كأنما تبادلا الأدوار أو كأنما أصابته بعدوى الشحوب الذي كان عليها، فانتقل منها إليه فبرأت ومرض هو بعدها، إلا أنه تمكن من تجنب سماع نفس السؤال من نفس الشخص مجددا عبر طمأنته بإجابة قصيرة ومقنعة، وهو الأمر الذي لطالما أتقن فعله دوما.

تناول الجميع طعامهم في جو يسوده الصمت والرهبة، ولم يكن سوى حديث قليل ذلك الذي تبادلوه بينهم، كانت أحاديث قصيرة وعابرة، بعضها تساؤلات عن الأحوال وبعضها نكات مضحكة، ومما يمكن ملاحظته أن علاء كان يجد صعوبة في إيجاد الإجابة على الأسئلة التي كانت تطرح عليه، فكان الشرود الذي ألم بفكره واضحا للعيان وبالغا إلا أن لا واحد منهم ملك الجرأة على محاولة فهم ما يدور بخلده، إنما كان السائل يعود بما قدر له أن يعود به من أحرف قليلة، كذلك مر الأمر بليونة وانتهى، ولم يعد لأصوات التقاء الملاعق مع

الصحون البيضاء أي أثر، وقد تعاون الجميع ما عدا علاء هذه المرة في جمع الأطباق وبقايا الطعام نحو المطبخ، تركت بعدها الطاولة وكراسيها على العشب واتجه الجميع نحو نار أوقدت وسط الأرائك المعتاد الجلوس عليها وسط الحديقة ككل مرة، وبعد دقيقتين من وصول الجميع واتخاذهم أماكنهم كان الوقت قد حان لبدأ الجلسة.

وضع لؤي فم فتحة نايه بين شفتيه وأطلق العنان لأنفاسه القصيرة البارعة، وتبعته نسمة فوضعت قيثارتها في حجرها وأنزلت أصابعها الأربعة عليها، وعلى جانبها جلست الخادمة بتخاذل وهي تجمع يديها في حجرها بينما تمتص رأتاها المنتفختين كما كبيرا من هواء الحديقة في كل شهقة، وعلى الجانب الآخر من الحلقة جلس علاء يحدق إلى أجزاء الحطب وهي تتكسر محمرة فوق بعضها، كان وهج النار يسطع على وجوههم وينيرها وسط الظلام الذي لف كل شيء خلفهم، ولمعت عينا رياض العسليتين وهو يحدق بشرود إلى وجه نسمة العائد إلى الحياة دون أن ينتبه إلى نفسه، وأما الصغيرة إلى جانبه فلم يكن وضعها أحسن كثير من أخيها، فعيناها العسليتين لم تكون قد فارقتا وجه لؤي طول فترة جلوسها وهي تحدق إليه بإعجاب صبياني أبيض.

وبينما هم على تلك الحال تائهون ذاك في آلته وذاك في صاحب الآلة وذاك في لهيب النار فقد شق تلك الرهبة صوت الخادمة حين نطقت لما ارتأت أن الوقت قد ناسب الأمر قائلة

.Can yakan gözlerini görmeye gaz ldim

جئت لأرى مشهد الروح التي تحترق بعيني

Abuhayat sözlerinle

جئت لهذه الحياة لأصبح وردة تخضر بكلماتك

Ben aciz ben yarim

أنا عاجز أنا غير مكتمل

sana tamam olmaya geldim

جئت لأصبح كامل

gibi bülbüller Seyda

مثل البلابل العاشقة

لم يبعد علاء عينيه عن موقد الحطب حتى بعد أن وصلت الخادمة إلى هذه المرحلة من الأغنية، حتى لقد شابك يديه فوق ركبتيه وأحنى ظهره نحو اللهيب أكثر بل إنه شرد أبعد ما يكون الشرود وكف عن سماع ما يدور حوله من ألحان باكية، فقط رقصات ألسنة النار الصفراء هو كل ما كان يراه وهمس الأفكار المتدفقة من أماكنها هي كل ما كان يقدر على سماعه.

gül dalina konmaya geldim

جئت لأهبط على غصن الوردة

Yanar içim

داخلي يحترق

Senden öteye yer yok

لا وجود لغيرك في أي مكان آخر

هكذا واصلت الخادمة إخراج تلك الكلمات من جوفها بعذوبة منقطعة، حتى لقد وجد رياض في بعض المراحل أن يقتطع قليلا من وقته لينظر إلى خديها الحمراوان وحلقها المنتفخ ليتأكد أنما تلك الأصوات تصدر منها.

ذلك وظهر الرفاق الأربعة في الجهة الأخرى من المدينة يسحبون أقدامهم بخفوت عبر الزقاق المظلم وهم يتقدمون بحذر نحو البيت الذي عقدوا أمرهم عليه هذه الليلة، بأجسادهم المحنية وأنفاسهم المتسارعة راحوا يتتابعون كالإخوة الدالتون واحدا خلف الآخر وهم يحتكون على الجدار حتى وصلوا إلى الباب الخشبية وأحاطوها دون أن يفاجئهم ظهور أي شخص من إحدى زوايا الزقاق المظلمة، وأعينهم تدور في كل صوب وقف سليمان منتصبا أمام الباب وكان أشجعهم حين همس للجميع قائلا «من كان منكم يشعر بالخوف فعليه أن يعود إلى المخبأ حالا.. لا أريد حصول أي مشكلة هنا» ولم يأته جواب منهم حتى بعد أن كرر كلامه، وإذ ذاك فقد استدار نحو الباب مجددا فأدخل سبابته في الثقب الموجود عليها وجعل يعبث بالأسلاك على الجهة الأخرى، فهمس أحد الثلاثة قائلا «هاي، سليمان..»

« ماذا..»

« ألم تقضي الخطة بأن نركل الباب ركلة قوية واحدة..»

« وهل نحن رجال تحقيق أيها الأحمق... لقد قلت ذلك ليبدو الأمر أكثر حماسة، والآن لا تقف هناك مثل الفزاعة، تعال وارفع الباب قليلا نحو الأعلى..» وما إن نفذ الفتى أمر زعيمه حتى بان شق صغير بين صفحة الباب وهيكلها، فالتفت سليمان إلى جماعته وبغمزة سريعة وجهها لهم أشعل هممهم وأرسل فيهم حمية اللصوص على الغنيمة، حتى لقد اصطفوا خلفه كالفئران وتتابعوا جميعا نحو الداخل، وكان المنزل وهم يحدقون في جدرانه المظلمة و المكسوة بالطحالب لا يشبه كثيرا ذلك الذي اعتقدوا أن رب عملهم سابقا ينعم فيه كل ليلة، لقد كان البؤس والبساطة يشكلان كل المنظر، وفي لحظة ذهول ووجوههم تدور في ما حولهم صدر صوت مفاجئ من إحدى الزوايا المظلمة، فاختلط عليهم الأمر من شدة الرعب وتمسك الواحد منهم بالآخر وتهامسوا فيما بينهم ودب فيهم رعب كالذي يصيب شخصا جبانا خاف ظله، لكن زعيمهم لم ينل مكانته من عبث وأثبت جدارته بها حين همس إليهم قائلا «لا يلتفت أحد منكم نحو الباب أيها الجبناء الحمقى» والواقع أن جميعهم كانوا ملتصقين بظهره وهم يرتعدون بشدة، وما هي إلا لحظات على تلك الحال حين تخشبوا مكانهم يحدقون إلى تلك الزاوية المظلمة حتى ظهرت أنثى فأر كبيرة الحجم من خلف نافورة الماء واختفت في الظلام أسفل الأدراج المؤدية لأعلى، فأزاح ذلك شيئا من الخوف الذي أصابهم لوهلة، وغمغم أحدهم «اللعنة.. لقد كدت أختنق فزعا» وحرك سليمان كتفيه ليتخلص من أذرعهم التي أحاطت به فكأنما نفض مجموعة

من القرود المزعجة، وعاد الجميع إلى التأمل ثانية في ما حولهم وهم يتجولون في المكان بخطوات صامتة.

أما في بساتين الفاكهة فلم تكن الثلاث ساعات التي مرت كافية ليظهر أي سبب قد يدفع بالسلوقي للنزول عن الشجرة التي صعد إليها أول مرة، فلم يزل على وضعه مختبئا يدس نفسه خلف الأوراق ومتشبثا على الأغصان بأطرافه الأربعة كالحرباء والعرق يتصبب من جبينه بينما يلقي الشتائم على كل ما يخطر بباله بعد كل نظرة فحص سريعة يلقيها حين يمد رأسه بين الأوراق فيعود خائبا لما لم يكن يجد شيئا غير العشب الأخضر وأضواء المركبات المسرعة على الطريق ودائرة القمر المشعة بالبياض فوق كل ذلك، ليعود بعدها للعن اللص ثم نفسه ثم رائحة الثياب التي يلبسها، لكن وعلى ما يبدو فإن انتظاره لم يكن ليطول أكثر من هذا، لقد سمع فجأة صوت تكسر أغصان يأتي من خلفه ويقترب نحوه، ولما أدار عينيه ليتفقد الأمر فقد لمحت عيناه الحارقتان كلبيه من بين الأغصان وهما يهرولان كل بأطرافه الأربعة نحو الشجرة التي يقف عليها، وما إن تجاوزاه حتى أحس أن الأمر أكثر من مجرد أنهما قد اشتاقا لساقيه المشعرتين من أجل الالتفاف حولهما، ولما دقق النظر نحو ما يبدوا أنهما يتوجهان نحوه فإنما رأى لصا يختلس المشي بين جذوع الأشجار المثمرة حاملا في يديه صندوقا ثقيلا ويطوف حولها ، فصاح بينه وبين نفسه غاضبا «أيها الملعون بائس الحظ، يا جرابة القماش النتنة.. فل أمت مثل الكلاب إن أفلتك هذه المرة.. أيها ال..» أنهى ذلك وراح ينزل الشجرة

مترجما ما في قلبه إلى ابتسامة مكر عريضة على وجهه المتعطش لتلك الطريدة.

بينما تداعب نسمة قيثارتها كانت عيناها مثبتتان على الصغير لؤي بجانبها، والواقع أن عينيها ليستا عيني الأنثى الوحيدة التي كانت تتأملان وجهه الملائكي بينما تتراقص أصابع يديه على فتحات نايه الأسود، فالصغيرة ندى لم تزل تحدق فيه هي الأخرى، بينما يتأمل شقيقها الأكبر وجه محبوبته وحركات أصابعها على القيثارة بإعجاب واضح.

علاء وإن مال بجسده على ظهر الأريكة فإن عينيه لم تزالا تحدقان بشرود نحو النار كأنما هو واقع تحت تأثيرها أو أنه ينظر إلى داخل نفسه، لقد كان يحضر الجلسة بجسده لا أكثر، وأما المرأة الكبيرة فلم يزل صوتها يصدح فيما حولهم.

Yanar sözlerim

تحتق كلماتي

Canimdan baska servetim yokken

بينما لا يوجد لدي أي ثروة سوى روحي

Canomdan geçmeye geldim

جئت متجاوزا روحي

***

بالعودة إلى موقع الجريمة فقد وصل اللصوص إلى مرحلة متقدمة من تفقد أرجاء البيت لكن دون جدوى، إنهم لم يتمكنوا من العثور على أي شيء ذا قيمة، مع كل قطعة قماش حركوها عن مكانها، وكل كرسي أبعدوه جانبا، أو كل قنينة أو حذاء غيروا مكانه، أو سجاد بحثوا تحته، لم يخرج لهم من كل ذلك إلى حفنة من الصراصير البنية الجائعة، ولم تكن سوى باب خشبية مطلية بالأحمر في الطابق السفلي لم يبحثوا خلفها، ذلك أن كانوا على يقين أن العجوز تنام بعمق خلفها. فحرص الواحد منهم على عدم الاقتراب منها.

وخرج أحدهم من المطبخ بعد مرور نصف دقيقة أمضاها بداخله وقال حين وقف أمام سليمان ليلقي بتقريره «ليس هنالك سوى فرن وقدر فارغ وبعض الخضر المعلقة في كيس على الجدار...أعتقد أن المطبخ موجود في الأعلى..» وأطلق سليمان نفسا هائجا والتفت نحو الأعلى يحدق إلى العضوين الآخران وهما ينزلان أدراج السلم نحوه «أي شيء» غمغم نحوهما بصبر نافذ.

ورد أحدهما «لا.. لا يوجد أي شيء يمكن اغتنامه»

« فقط سجاد عتيق مفروش على الأرضية وبعض أفرشة النوم ومكتب به أوراق فارغة..» وأضاف الثاني. هنا استشاط سليمان غضبا ولمعت عيناه في الظلام بحدة «سوف نصعد جميعا إلى هناك ونتفقد غرفة نومه معا.. أنا متأكد أنه يخفي النقود في مكان ما داخل الجدران بحيث لا يمكن الوصول إليها بسهولة، أو هل بحثتم تحت السجاد جيدا.. يمكن أن يقوم بحفر حفرة تحته وتغطيتها، والآن اتبعوني، إننا سوف..» وما كاد ينهي ذلك حتى كف عن الحديث وتسمر الجميع في أماكنهم فجأة.

كان سليمان يقف عند أول درج واضعا يده على درابزون السلم بينما يلقي في الهواء يده الأخرى إذ كان يستعملها للإشارة مع كل كلمة يقولها، وبجانبه وقف أحد الثلاثة مادا رأسه بينما تسمر الآخران على الدرج الرابع من السلم وقد تسلل برد عظيم إلى أجسادهم وتخشبت لما أتاهم صوت يشبه الفحيح من خلفهم، قال الصوت مخاطبا «هل هذا أنت يا علاء.. هل عدت الآن يا ولدي..» وفي تلك اللحظة أدركوا حتما أن عددهم قد تخطى الأربعة.

تحت ضوء القمر الباهر، وعلى العشب المبلل بالندى تدحرجت حبات من التفاح الأصفر على بعد متر واحد بجانب الصندوق واستقرت إلى جانب بعضها، وغير بعيد عنها كان السلوقي بجسده الذي يشبه إصبع الفاصولياء الجافة يحاول بجهد أن يغرس إبهامه في عين اللص الذي رقد تحته مستميتا في الدفاع عنها بعدما

نشب أصابع قدميه الحافية على الأرض ليثبت نفسه جيدا فيما طوقه بأطرافه الباقية وأعجزه عن الحركة، واشتد الصراع بينهما حين حاول اللص أن يهجم بنفس الطريقة، لكن ذراعه كانت أقصر من أن يقدر على أن يمدها طويلا إلى عين السلوقي في الأعلى، كما أنه احتاج كلتا يديه ليبعد إبهام السلوقي عين بؤبؤ عينه اليمنى، ولما أحس أنه لن يستطيع الصمود طويلا على تلك الحالة فقد مد ذراعه اليمنى على العشب بجانب رأسه وراح يبحث عن أي شيء يمكن الإمساك به وقد يساعده على توجيه ضربة مؤلمة، وإذ لم يجد شيئا بتلك المواصفات أو غيرها فقد عمد إلى العشب والتراب فأخذ منه بحجم قبضته وألقى به على وجه السلوقي فأصاب عينيه شيء منه جعله يسحب يديه إليهما حين رفع جسده متراجعا إلى الوراء وأخذ يفرك عينيه بقوة لينظفهما لكن اللص انقض عليه بسرعة لحضتها و لف يديه حول خصر الحارس وطرحه أرضا، وفي لمح البصر انقلب الدور على السلوقي وبات يصارع لحماية عينيه من أن يتم فقعهما، ولأن جسد اللص كان صغيرا وذراعاه ضعيفتان فقد عمد السلوقي إلى توجيه لكمة عشوائية أصابت هدفها بدقة فأزاح اللص عن صدره وارتمى فوقه مرة أخرى وجعلا يتكوران على العشب يتعانقان ويتبادلان المراكز فيما بينهما، وعلى بعد أمتار قليلة منهما كانت معركة أخرى تدار بين ثلاثة رؤوس غاضبة مزمجرة ومكشرة عن أنيابها، كان الأمر بين كلبي السلوقي وكلب اللص الذي قاوم هجماتهما الحادة بشراسة، وواصل النباح بغضب والدوران حول ذيله رغم كل الجراح التي

ارتسمت على جلده والدماء التي سالت على فروه الأسود الناعم، حتى لقد فقدت إحدى عينيه أهمتيتها مع الهجمة الأخيرة، كذلك وقف على قوائمه المجروحة منهكا وهو ويزمجر فيهما بعنف كاشفا عن أنيابه الحادة، وبعيون براقة ظل يتفرس في الكلب الأبيض أمامه والذي كان يبادله نفس النظرة في محاولة منه لإلهائه ريثما تهم أنثاه بالالتفاف من الخلف بحذر كي يقوما بالانقضاض عليه وإنهاء الأمر دفعة واحدة، زمجر كلب اللص ووثب نحو خصمه بفك مفتوح وتبعته الكلبة من الخلف وهي تنبح بشراسة.

وفي البيت الآخر _ إن كان يصح في هذا الزمن أن يسمى بيتا _ وقف الفتيان الأربعة يحدقون إلى جسد مطروح على الأرض ينتهي عند رأس توسدت بقعة دماء تلألأت على ضوء القمر تحتها فيما هي آخذة في التوسع أكثر كل لحظة ، كذلك أخذت قطرات من نفس السائل تنزل من على ذراع نحاسية صفراء تستعمل في هرس القهوة عادة، وراحت تستقر بجانب حذاء الشخص الذي تتدلى أداة القتل من يديه، كانت العيون الثمانية شاخصة في ذلك الشيء تحتهم، الأفواه الأربعة مفتوحة بغير قصد والقلوب تنبض نبضات متماثلة، وحيث ترقد جثة الشيخ المسكين بين أقدامهم قال أحدهم دون أن يغير عينيه عنها «ألم تقل أنها عجوز تشبه السلحفاة المريضة ؟..» كانت هذه أول جملة نطق بها أحدهم منذ سقط العجوز صريعا أمامهم، ولما بدا أن صوته قد حرر الباقين من صدمتهم فإن سليمان أرخى أصابع يديه فسقطت أداة القتل بجانب رأس الضحية وأصدرت

ضجيجا مسموعا أربكهم إلا هو، ذلك أنه ظل صامدا على حاله ينظر بشرود إلى رأس العجوز المهشم ببلاهة ورد قائلا «لكنه يشبه ذكر السلحفاة أيضا..» فشده الذي على يمينه حين أمسك بذراعه ورجه بقوة كي يوقظه من دهشته، أردف سليمان وهو ينقل بصره بين وجوه رفاقه الخائفة «لقد قتلناه أليس كذلك..» ورد أحدهم بصوت خافت يملأه الغضب، كانت عروق رقبته قد امتلأت حين صاح فيه بصوت مبحوح قائلا «أنت قتلته..أنت الذي حملت ذلك الشيء وضربته على رأسه، لقد أشرت إليك بأصابع يدي أنه لا يستطيع الرؤية..»

« أنت أخبرتني أنه لم يكن يرانا ؟..»

« أجل.. ألم تره كيف واصل التقدم نحونا وهو ينادي على رياض رغم وجودنا وكأننا أشباح تقف أمامه..»

« هل أنت أشرت لي بأصابع يدك أنه لا يستطيع الرؤية..» ولما كرر سليمان سؤاله هذا فقد أدرك الجميع لحضتها وأيقنوا أن خطبا ما قد حل برأس زعيمهم، ذلك أنه كان يخرج تلك الكلمات من فمه بصوت مسموع وهو يحدق فيهم ببلاهة، وفي اللحظة التي تليها فجأة صدر صوت من الغرفة التي خرج العجوز الميت منها قبل لحظات قليلة، وكان ذلك صوت زوجته العمة عائشة والتي على ما يبدو قد أيقضها الضجيج الذي صدر عن ارتطام أداة القتل بأرض الساحة حين سقطت، وبلمح البصر اندفع اللصوص نحو الباب هاربين وقد اضطروا خلال تلك اللحظات الضيقة أن يدفعوا بجسد سليمان الذي فقد

قدرته على تمييز الخطر أمامهم، لكن خطوات المرأة المسكينة كانت ثقيلة جدا، بحيث استغرقها إيجاد نعلها وإخراجه من تحت السرير وقتا ثم جرجرة قدميها الضعيفتين خارج الغرفة، هناك حيث وجدت زوجها الحبيب غارقا في سحابة حمراء من دماءه، ومن يدري ما الذي أصاب قلبها في تلك اللحظة وكيف شعرت بانحصاره وانكماشه إلى الداخل، وإنه شعور مؤلم ليفتقر المرء للقدرة على وصفه، يكفي أن نتخيل الصرخات المبحوحة التي أطلقتها بينما اللصوص يركضون عبر الزقاق المظلم هاربين نحو مكان يكون أبعد من الخطوة السابقة.

أما على أرضية العشب فكانت جثة اللص ترقد بلا حراك على ظهرها هي الأخرى، مع فجوة عميقة أحدثتها رصاصة استقرت في صدره وأودت بحياته، سالت دماءه على العشب وهي لا تزال ساخنة، وعيناه مفتوحتان نحو السماء ونجومها، بنظرة موتى لا غير، وبالقرب منه على بعد خمسة أمتار كان كلبه يرقد على جنبه وممددة أطرافه الأربعة بعد أن خسر المعركة لصالح كلبي الحارس هو الآخر، فجسده قد امتلأ بالجراح وسالت منها دماء كثيرة، كذلك رقد يلهث أنفاسه الأخيرة وعيناه على وشك الانطفاء بعد لحظات قليلة، وبينهما وقف الحارس بفخر واعتزاز ومنتشيا بطعم الفوز وبما حققه الليلة، لقد استطاع أن يستعيد مجده وكرامته المسلوبة.

« إنك لست شخصا يستطيع الفرار دوما، إنك لسته... وأنا أكون الشخص الذي لا يمكن الفرار منه دوما، إني أكونه..» كذلك صاح

في الهواء ببهجة كمن خرج من معركة طاحنة، يحدق في النجوم وفي وجهه كدمات كثيرة من أثر الضرب الذي تلقاه من غريمه الراقد عند قدميه ميتا، ذلك وشهق بضحكة عظيمة كأنما قد أصابته هستيريا مفاجئة، ولما فرغ منها وارتخت عضلات وجهه مجددا نظر إلى كلبيه وكانا يجلسان على قوائمهما الخلفية بجانبه ويلعقان الجروح عليها، فانحنى نحوهما ليشاركهما نشوة الفوز وضمهما إليه بكل ذلك الحب والحنان الكلبوي الصادق، قام بعد ذلك فتفقد المسدس في يديه لوهلة، ثم دسه في خصره وتمتم بكلام إلى نفسه ثم وضع يده على كتفه يتفقدها من أثر الألم، استدار بعد ذلك في اتجاه الغرفة وليس في رأسه غير مكان تواجد المجرفة وأين اعتاد أن يخبئها وراح يجرجر ساقيه نحوها فيما تبعه كلباه الطائعين من خلفه.

على بعد أربعين مترا، وسط الظلام وبين أوراق الشجر المتداخلة، كان ثمة عينان تتوهجان بلون الفضة، عينان شاهدتا كل ذلك، ولقد شاهدتاه جيدا، ولبثتا تحدقان إلى الجثتين اللتان سطعت دماؤهما تحت ضوء القمر، لبثتا تحدقان بخفية. ثم رمشتا مطولا وارتدتا إلى الخلف وغابتا بين الأشجار في الداخل دون أن يصدر صاحبهما صوتا.

-10-

كانت بسيطة، سريعة، وخالية من الأشخاص تقريبا تلك الجنازة التي تم نقلها صباح يوم الاثنين نحو المقبرة، كان يوما دافئا بشمسه المشرقة، بعض السحب كانت تذوب في السماء رويدا، وأقدام الرجال تزحف بالنعش نحو الحفرة التي سوف يوضع الميت فيها، إلا أنها لم تكن جنازة العجوز المسكين الذي تلقى ضربة على رأسه كما قد يذهب إليه عقل القارئ، فجنازة العجوز كانت قد تمت صباح الجمعة بحضور علاء ورياض وبعض الأشخاص الذين تم العثور عليهم أثناء مشي موكب الجنازة إلى قبرها إضافة إلى قاتليه الأربعة الذين قدموا تعازيهم إلى علاء وأظهروا كامل خشوعهم أثناء دفن الجنازة عبر طأطأة الرؤوس ورمي بعض التراب عليها، فيما ظلت امرأته المسكينة تبكي في البيت لوحدها، وتشم سراويله وقمصانه الحائلة وتعانقها، وبين كل دمعة وأخرى كانت تذكر اسم ولدها الذي لم يحضر لدفن والده ولا جاء لرؤيتها، إنما عتاب لطيف ذلك الذي لامت به زوجها المرحوم حين مررت ظهر يديها المتيبسة تحت عينها وقالت والدمع

على شفتيها «إنما هو ابن شديد الكره لنا ذلك الذي خلفته لي بعد رحيلك يا رابح.. هل كان يضرك لو بقيت معنا وربيته تربية صالحة، هل كان يضرك هذا..» ذلك واندفعت من عينها دمعة ساخنة انتهى بها الأمر لأسفل.

أما الآن وإن رياض وإلى جانبه لؤي قد وقفا على حافة القبر الذي تمت تغطيته منذ دقائق قليلة مضت وهما يشاهدان الاسم الذي تم نقشه على شاهده ويتأملانه بعيون حمراء دامعة فلأن من كان بداخل القبر لهو شخص عزيز عليهم، كانت الحروف المنقوشة على صفيح الرخام والملونة باللون الأسود تشكل اسم «علاء، ج»، أجل إن علاء نفسه بات يرقد داخل قبره إلى جانب الشيخ إبراهيم والعم رابح الذي توفي قبل ثلاثة أيام فقط وغير بعيد عن قبر والده الذي وافاه الأجل قبل ما يقارب خمس سنوات مضت، والآن ولِما تم ذكره، وليتم توضيح الصورة المراد رسمها، فقد صار من الواجب علينا أن نستعيد أحداث الأيام الفائتة انطلاقا من نقطة انتهاء دفن العجوز صباح الجمعة.

وكان علاء قد عاد إلى المنزل مساء ذلك اليوم حين وجد رجال الشرطة وهم لا يزالون يذرعون الأدراج المؤدية إلى الطابق العلوي جيئة وذهابا يتفقدون مسرح الجريمة، لكن دون فائدة، إنهم لم يتمكنوا من الوصول إلى نتيجة حاسمة، فأداة القتل كانت تخلو من أي بصمات عليها، وكذلك الأدراج التي تم فتحها والأشياء التي أبعدت عن أماكنها وحتى حبة اليقطين التي كان القتيل قد فرح كثيرا لوجودها فقد تم

ركلها من أسفل الجدار نحو النافورة، ولا شيء كان عليها، فاللصوص وكما يبدو قد استعدوا للأمر جيدا وارتدوا قفازات قطنية كي لا يتركوا أية آثار بديهية خلفهم.

ذلك وكان عليه أن يعيد الإجابة على بعض أسئلتهم الباردة، وأما وقد غادرت الشرطة مع آخر المساء فقد وجد بعض المتسع ليدور بين أركان البيت شاردا كأنما يلاحق روح العجوز التي رفضت أن تغادره فراح يطاردها من زاوية إلى زاوية، بعد ذلك رأته العمة عائشة وهو يهم بصعود الأدراج نحو الأعلى دون أن ينجح في فعل ذلك بسهولة، لقد رأته حين خرجت من غرفتها وكانت عيناها مبللتان وعليهما احمرار شديد بسبب ارتفاع ضغط دمها من شدة الحزن الذي أصابها، لقد رأته يرفع قدمه على أول درجة في السلم ثم الثانية ثم الثالثة ثم التي تليها ثم رأته وهو يسقط بيديه على الدرجة الخامسة، ولما هرولت ببطء نحوه والخوف يملأ صدرها الفارغ فقد نهاها عن الوصول إليه قائلا بصوت لاهث ووجه يعتصر ألما نحو الأسفل «أنا بخير.. أنا بخير لا تقلقي، لقد انزلقت قدمي..» قال ذلك وعاود النهوض مجددا، والواقع أن العجوز لم تصدقه لحظة واحدة، ذلك أنها ظلت واقفة في مكانها وهي تضع يدها على قلبها بينما تراه يعاني من أجل بلوغ آخر السلم، كذلك أظلمت السماء وحل الليل سريعا، فغطى علاء كتف أخيه برداء خفيف وأسند رأسه على الوسادة إلى جانبه يحدق إلى سقف الغرفة، وبين دقيقة وأخرى كان تأتيه نوبة سعال حادة حتى ليضطر إلى وضع يده على فمه كي لا يوقظ شقيقه النائم، لكن مع

انتصاف الليل كانت عيناه لا تزالان مفتوحتان وفطنتان جدا، وأصابه قلق وانزعاج عارم، فحمل نفسه من الفراش وبخطوات غير ذات وقع نزل الأدراج ثم أصبح خارج البيت بعدها، وعلى عتبة الباب كان قد جلس واضعا يديه فوق رأسه ومسندا كوعيه على ركبتيه وغارقا في أفكاره المجهولة، بعض من حشرات الليل حطت على جلده لكن إزعاجها لم يكن أكبر من الألم الذي كان يعتصر قلبه المتعب، وإن أنفاسه باتت تأتي بطيئة مخنوقة.

صبح اليوم التالي وقف علاء أمام باب بيت نسمة ينتظر أن تفتح له الباب ليتقدم نحوها ويطلب منها أمرا عده الشيء الأكثر أهمية بالنسبة إليه فيما تبقى من حياته، فلقد أمضى الليل على عتبة الباب يرتب أفكاره ويعيد قراءتها، كذلك كرر ما قاله بانفعال لما فاجأها كلامه، قال بنظرة على وجهه لم تكن قد رأتها «تعالي معي إلى الشاطئ حالا..» فردت لما ذهبت دهشتها «عن أي شاطئ تتحدث يا علاء... ثم هل نظرت إلى نفسك مؤخرا، إنك لا تبدوا بخير كما أجبت الجميع سابقا، وهذا السعال الذي لم يعد يبارحك لحظة واحدة..» قالت ذلك وهي تعيد يدها إلى مكانها، إن ثلاثين ثانية مثل هذه لهو شيء يود شخص في مثل حالة علاء أن يمر بين أطرافها حقا، كان شجر العليق الصاعد على جدار البيت بأوراقه الخضراء يبدوا صامتا كأنما ليسترق السمع في تلك اللحظة، في نبرة صوت نسمة وهي تغمغم بتلك الحروف الخائفة والتي طوت كثيرا من الخوف و الاهتمام بداخلها. لقد أحدث كلامها سعادة في العينين اللتان

تنظران إليها، واليد التي أوشكت أن تصعد لتتفقد شحوب وجهه قبل أن تتراجع وتعود إلى مكانها لقد كانت شيئا بالغ الغرابة، شيئا مريحا وباعثا على الفرحة، ها هي نسمة قد تناست حزن والدها وأمكنها أخيرا أن تفيض على علاء بذرتين من عطفها الأنثوي واهتمامها تمثل في سؤاله عن حاله ومحاولة لمس وجهه الأصفر الذي أنهكه المرض «وماذا عن العمل، ألن تذهب اليوم أيضا..» قبل أن تردف قائلة.

« لا..» رد علاء «رياض سيهتم بالعمل من الآن فصاعدا..»

« من الآن فصاعدا !!..»

« أجل.. وله قدرة كاملة على فعل ذلك.. والآن ما ردك مع أنه..»

«مع أنه ليس لي أي خيار آخر..» أتمت كلامه قائلة، ولم تتوقف عن ذلك الأمر بل لقد أبدت له شيئا صغيرا من ابتسامتها الساحرة، الآن هب نسيم بداخل الحديقة حرك أوراق شجرة العليق المتسلقة وحرك بعضا من خصلات شعرها المنسدلة على وجهها، بعينان كبيرتان شديدتا البياض في بياضهما وشديدتا السواد في سوادهما وقفت أمامه بنظرة لطف لأول مرة.

« أجل، ليس لديك أي خيار آخر..» أجابها، فضمت شفتيها قليلا واستأذنت منه لبعض الوقت كي تصعد إلى غرفتها وتجهز نفسها، والواقع أن علاء لم يكن يضع يديه في معطفه كما اعتاد أن يفعل في أحيان كثيرة، بل وضعهما على جانبي سروال أنيق ذو زرقة معتمة

وحذاء أسود لطيف، فيما غطى كتفيه بقميص أبيض وجاكيت سوداء مستعملة، وهي ملابسة تعد أنيقة جدا مقارنة بما اعتادت نسمة على رؤيته يلبسه طوال فترة تعارفهما، وقد كان يحتفظ بها منذ فترة ويعدها لمناسبة مثل هذه، لأول موعد مع فتاة أحلامه، والواقع أن هندامه إضافة إلى عينيه الرماديتين وشعره الأنيق المائل إلى اليسار قليلا هو شيء قد ساعدها كثيرا في أن تبتسم لأول مرة في وجهه ابتسامة ود مع التفكير جديا في محاولة تمرير أصابعها على وجهه ولمسه، وليس يدري هل شحوب وجهه المخيف هو الذي حال دون قيامها بذلك أو هي أنفاسه المتعبة أو قد كان شيئا غير ذلك، إنما ابتسامة مثل تلك التي لم يكن قد توقعها و فاجأت قلبه المنهك.

ترافقا بعد ذلك إلى الشاطئ بشكل جميل وهادئ، حتى لقد تحدثا خلال الطريق بشكل لطيف جدا، وقال لها حين وقفا على حافة الرصيف يحدقان إلى أمواج البحر المتلألئة في الأسفل «لم أكن أدري أنك تستطيعين الابتسام هكذا..» فردت عليه بنظرة إعجاب غريبة «لماذا..» فأجاب قائلا وعيناه تتقدان لها شوقا «لأنني اعتقدت أنك لا تملكين سوى وجهان اثنان لا غيرهما... الأول غاضب مني، والثاني غاضب مني جدا..» قال لها ذلك وتركها تحاول لملمة عضلات وجهها من شدة الضحك وتقدم ينزل السلالم نحو الأسفل.

كان الشاطئ شبه خال من البشر، وذلك أمر كان علاء يرغب فيه بشدة، قال وهو يتفقد المكان حوله «حتى حبات الرمل تصبح مثيرة

أيضا في وقت كهذا..»

«ماذا ؟» ردت نسمة وهي تلتفت نحوه، فوأد الفكرة قائلا «لا، لا شيء... هل نتمشى نحو تلك الجهة، توجد صخور جيدة للجلوس عليها...» وانتهى بهما الأمر بعد ذلك إلى ارتكاب عدة أشياء يصعب نسيانها، كأن قطعا طرفي الشاطئ عدة مرات وهما يحملان أحذيتهما في أيديهما، كأن تسابقا بعض الأحيان وكأن ركلا الأمواج الصغيرة أيضا، وحتى لقد وجدا متعة في التحدث إلى الصيادين كبار السن الذين التصقت مؤخراتهم بصخور الشاطئ، ثم تناولا طعام الغداء في مطعم صغير على الرصيف وفي وقت متأخر، عادا بعد ذلك نحو الرمال وواصلا جمع أصداف البحر ذات الأشكال الغريبة بمتعة.

مع انقضاء وقت العصر نزل أحد الشباب نحوهم ونسج طاولة شواء على الرمل وعرض سلعته عليها، كانت خيوط الدخان وهي تتصاعد من قطع اللحم المحروقة توجع أنف الواحد حقا، وبنظرة مختلسة أدرك علاء كم أن نسمة قد اشتهت ذلك فتوجه نحو الطاولة وطرح بعض النقود في يد صاحبها، عاد بعد ذلك وفي يديه خمسة أعواد عليها قطع لحم وخضار شهية وجعل يقضم واحدة منها فيما احتفظ في يده الأخرى بما تبقى منها.

« ماذا.. ألن تعطيني أيضا ؟..» قالت نسمة بعد أن فسد انتظارها، فالتفت إليها بعد أن أنهى ما في يده وعيناه لم تبعدا عن المياه المالحة «ظننت أنك لن تطلبي أبدا..» قال ذلك وناولها كل الأربعة

الباقية.

« كأنني لم أتناول في ذلك المطعم شيئا..» قالت وهي تقضم قطعة لحم صغيرة بأسنانها الأمامية كأي فتاة مدللة. وأردفت لما تذكرت شيئا «انتظر.. ألم تكن ترفض تناول اللحم قبل هذا..». ولم يجبها عن سؤالها وظل يحدق الى البحر صامتا فأدركت نسمة كم أنه لا يريد الحديث عن هذا الأمر أيضا. ولم يكن من شيء فعلته بعدها إلا أنها أنهت طعامها وهي تستمتع بكل قضمة.

قال بعد ذلك وهو يتقدم نحو المياه الهادئة «هيا.. تعالي إلى هنا، سأريك شيئا..»، وانحنى إلى الرمال فرفع منها حجرا وطلب من نسمة أن ترفع الذي بجانبه.

«إذن ما الذي ينبغي أن أفعله بهذا..» قالت وهي ترفع الحجر بينما تبعد عن عينيها خصلات شعر أسقطتها رياح المساء بعشوائية.

« الآن يفترض أنا نرميها نحو الماء ونرى أي حجر سوف يخطو عليه خطوات أكثر.. هيا أنت أولا»

ردت «ماذا.. حقا»

فرد «أجل.. الأمر هكذا «

وهزت كتفيها «حسنا.. لكن دعني أحذرك أنني سوف أخسر أمامك حتما..» قالت ذلك ورمت الحجر نحو المياه بكل قواها الأنثوية، لكن

الحجر لم يصل إلى الماء أبدا، على الأقل ليس الحجر الذي قامت هي برميه، التفتت إليه غير مصدقة «ما الذي !!.. كيف استطعت القيام بذلك، وهل كنت تقصد فعل هذا حقا ؟ «

« أجل.. أردت فعل ذلك حقا «قال علاء وأدار وجهه نحوها» أتعلمين ما الذي يعنيه ذلك ؟»

فقالت «لا.. هل ستخبرني»

« سأخبرك، لكن ليس الآن، وليس هنا..»

« هل عدت لألاعيبك مجددا ؟»

« لا.. لم أعد، حتى لا يمكنني العودة»

« أترى.. إنك تعود إليها مجددا، أن تتحدث بهذه الطريقة، هي ألاعيبك التي لم أحبها يا علاء..»

وظلت يداه محشورتين في جيبي سترته، وكان يجد صعوبة في احتساء الهواء المتسارع حولهما، قال بعدها «هل نعود الآن إن اكتفيت..»

« هل أنا الذي اكتفيت ؟..»

فرد علاء بهدوء بالغ «حسنا.. لقد اكتفيت أنا حقا، أعتقد أن علينا العودة حالا..» والتفت نحو السلالم المؤدية لأعلى، لكن نسمة قالت

من خلفه فجأة «لكن هل لي أن أسألك سؤالا..»

« أجل..»

« إنك لم تبدو حزينا لمقتل عمك أبدا.. لقد مات منذ ليلة، وأعلم أنك اهتممت كثيرا بأمره، فهل لي أن أعلم كيف استطعت تجاوز الأمر بهذه السرعة» قالت ذلك وهي تبعد شعرها عن عينيها مجددا.

« لأنني..» وأجاب علاء دون أن يلتفت إليها «هل تحاولين إفساد ما تبقى من اليوم أيضا، بما أنك اعتدت على إفسادي أيامي منذ الصباح الباكر بوجهك الغاضب والآخر الغاضب جدا» بعد ذلك استمرا واقفين لفترة من الزمن بدت طويلة، ولو أن نسمة اقتربت منه وحدقت إلى عينيه إذن لرأت دمعا ينحبس فيهما، لكنها لم تفعل، وظلت تقف خلفه بصمت والريح تلعب بشعرها، كان الجو قد أصبح باردا حين قررا أن يغادرا الشاطئ دون قول كلمة أخرى، مشت نسمة خلفه حين رأته يبتعد عنها وداست بقدمها على دمعة سقطت من عينه على الرمال ومرت، وخلفها كان الحجر الذي حاولت رميه إلى البحر يندس بين الرمال أيضا بينما الحجر الذي ألقى به علاء كان قد أصاب المياه وغرق نحو لأسفل.

سارا بعد ذلك متجاورين وقدم الواحد لا تبعد عن قدم الآخر سوى بخطوة، ومع اقترابه ما من بوابة القصر الصغير لاحظا أن رياض يقف هناك يحك يديه من البرد في انتظارهما، وقال لما انتبه لاقترابهما

«لم أنتظر طويلا إن كنتما تسألان عن ذلك..»

«هل حصلت أي مشكلة في العمل يا رياض..» سأله علاء..

« أجل..» قال رياض وصمت يحدق إليهما بغرابة.

وأردف علاء «هل يفترض بي أن أسألك الآن مرة أخرى..»

فأدار رياض عيناه بينهما، قال بعد تنهيدة سريعة «لقد داهمت الشرطة مكان العمل، ليس الشرطة بل أفراد من المخابرات السرية..» قال ذلك وراح ينتظر أي رد فعل منها، وأما نسمة فارتسمت دهشة عظيمة على وجهها بينما لم يبدي علاء أي رد فعل يذكر، حتى ولو بحركة صغيرة من عينه، وفهم رياض بعدها أن عليه مواصلة الحديث دون القيام بوقفات مرة أخرى، لقد واصل حديثه قائلا «لقد القوا القبض على السلوقي واقتادوه عنوه، ، لقد ربطوا ذراعيه ثم قاموا بركله ليتوقف عن قول الشتائم ودفعوه بداخل إحدى مركباتهم السوداء ثم طرحوا علينا بعض الأسئلة واختفوا عائدين بعد ذلك.. آه دعني أخبرك هذا أيضا، ذلك المتشرد الذي جاء إلى البساتين مؤخرا، وأصبح بعدها فردا من العائلة يبيت مع العمال ويأكل طعامهم، هو من قام بربط ذراعيه حتى، لقد جاء ومعه عدد من الرجال ذوي البدلات الأنيقة والنظارات السوداء الأصلية، وكان قد نظف نفسه وارتدى مثلهم أيضا، وبدا كأنه يقود المجموعة حين أمرهم بالبحث في جيوب السلوقي فاستخرجوا من خصره مسدسا نظيفا

ومحشوا.. «

« مسدس محشو من خصر السلوقي هكذا.. أهذا ما تريد قوله «وأبدى علاء اهتمامه بالأمر بقوله هذا، عاد رياض ليواصل حديثه بعدها «أجل.. محشو بالكامل..إلا من رصاصة واحدة كان قد أطلقها على اللص الذي لطخ سمعته ..»

« ومن أين حصل على المسدس..»

« من المتشرد نفسه.. أعني أن المسدس يخص المتشرد «

« وهل لازلت تدعوه بالمتشرد..» قاطعته نسمة بنظرة ساخرة، وتوقف رياض عن الحديث ليحدق فيها لحظة وعاد بعدها «ذلك المتشرد لم يكن متشردا حقيقيا، لقد كان يؤدي عمله كرجل استخبارات سري بارتدائه تلك الملابس النتنة واتخاذه ذلك الشكل القبيح وتلك الحركات الغريبة التي كان يؤديها بوجهه ليوهم الجميع أن مسا قد أصابه، فيما كان يتتبع أحد الأشخاص المشتبه في كونهم قاموا باتصالات مع الجماعات الإرهابية في الجبل سابقا..»

وقاطعته نسمة مرة أخرى.» لكن ما الذي جاء به إلى البساتين إذا كان يبحث عن أشخاص مثل الذين ذكرتهم..»

« إنهما أيوب و عادل..» ونطق علاء فجأة لما أدرك الأمر حقا.

وطوقاه بنظراتهما، فنطق رياض سائلا «من ؟»

« أيوب وعادل.. أحد العمال الذين يبيتون في الغرفة، لقد استدعيتهم إلى العمل قبل فترة، وصحيح أنه قد تم نقلهم إلى التحقيق في هذا الأمر سابقا، إلا أنهم بعيدون كل البعد عن أمر كهذا، ويبدو أن الشرطة السرية لم تطمئن لأمرهم بعد التحقيق جيدا فأرسلوا هذا المتشرد ليقوم بمراقبتهم، حتى لقد ظهر بعد قدومهم بفترة قصيرة.. على أية حال دعنا من ذلك أخبرني كيف حصل السلوقي على المسدس..»

وعاد رياض للحديث مجددا بينما أعين كل من علاء ونسمة مثبتة على وجهه «كيف حصل السلوقي على المسدس !.. حقا لم نتأكد من حقيقة الأمر جيدا، لكن السلوقي قال بعض الكلمات حين سألوه من أين حصل عليه، قال إنه أخذه من الأطفال اللذين اعتاد طردهم من حوض الماء حين كانوا يأتون للسباحة بداخله، لقد وجد بعضا من قطع الملابس والقماش حيث وجدهم يتبادلون المسدس بين أيديهم.. لكن الذي اعتقدناه مشردا أسرع بركله قبل أن ينهي كلامه، أعتقد أن ما أدلى به السلوقي يمكن أن يسبب له مشكلة كبيرة لذلك منعه من التحدث أكثر قبل أن يأمر برفعه إلى المركبة وإسكاته.. المهم أننا جميعا قد وصلنا بعد ذلك إلى أن شكل المتشرد قد جذب الأطفال إليه فقاموا بسرقة صرة القماش التي كان يحملها والتي كان يدس مسدسه بداخلها تحسبا لأي طارئ.. فأخذه السلوقي منهم وعزم الأمر على أن يستعمله في معركته ضد اللص تلك الليلة قبل أن يجد الوقت ليبحث في أمره أكثر.. ثم دعني أخبرك أن السلوقي

قد افتتح بجثة اللص مقبرة جديدة بين أشجار البرتقال «ولم يكد رياض ينهي كلامه الأخير حتى انفجر علاء بضحكة عظيمة. استمرت للحظات بينما شخصت أعينهما فيه من الدهشة قبل أن يغلبه سعال حاد فجأة، وجعله ذلك ينحني نحو ركبتيه لكي يستعيد أنفاسه، ورفع رأسه بعدها وكانت عيناه مغرورقتان بالدمع من أثر الضحك والسعال الذي أصابه، ثم لم يقف كثيرا بعدها وقال لها سائلا «هل ستكونين هنا غدا صباحا يا نسمة، أحتاجك أن تكوني هنا..» كان وجهه محمرا بعد ذلك.

فقالت مستغربة «لم؟»

«هنالك أمر مهم سترغبين في رؤيته..» أجابها والتفت نحو رياض بعدها «وأنت يا رياض عليك أن تستيقظ باكرا، سوف تذهب إلى العمل غدا لوحدك أيضا..» هكذا أنهى كلامه واستدار إلى الخلف عائدا إلى القصبة تاركا إياهما خلفه يحدقان إلى ظهره بدهشة عظيمة.

والتفت رياض إلى نسمة بعدها ولم يكن أحد منهما قد فهم شيئا، يبقى أن نسمة لم تجد لرياض جوابا حين سألها عما يحدث لوجه علاء وحركاته، حتى لم تجد حرفا. واحدا لكنها أذنت له ليتبعها نحو الداخل بعد ذلك لرؤية أخته الصغيرة.

عاد علاء مرة أخرى صباح اليوم التالي، كان الوقت يشير إلى

التاسعة، حين دلف عبر بوابة البيت ووقف ينقل بصره بين زوايا الحديقة حتى ظهرت نسمة ووقفت إمامه بإطلالتها البهيجة، بقميصها الوردي وعينيها الواسعتين استقبلته على عشب الحديقة فقالت «ما الذي يحدث معك يا علاء، هل نمت في الخارج، لما تتنفس بهذه الطريقة..» قالت ذلك وعيناها تهتزان وتلمعان عليه قلقا، لكنه أنهى الأمر كما اعتاد دائما، لقد أخبرها أنه لم يكن قط أحسن حالا، وذلك حتما يعني عدم التدخل في الأمر أكثر، فلم تقل شيئا سوى أنها تبعته نحو الشيء الذي أراده أن تراه، لقد مشت خلفه أقل من عشر خطوات قبل أن يقف عن الحراك فجأة، لقد وقف أمام المرآب وتسمر أمام زر مثبت على الجدار فقالت من خلفه «حقا ليست لدي أي فكرة عما يدور في رأسك، لكن أيا ما كان ما تفكر فيه فأرجو أن تسرع قليلا لأنني سأخرج إلى التنزه بعد ذلك..»، لم يجبها علاء بأي كلمة، حتى لم يلتفت إليها بل ظل على وقفته صامتا، ثم رفع يده نحو الزر وضغط عليه فارتفعت بوابة المرآب كاشفة عن الظلال التي بداخله.

«هل هذا هو؟» قالت نسمة كأنما بغضب «هذا ما أخبرتني مساء البارحة أنك ستريني إياه.. لكن لم أعتقد أبدا أنه أمر مهم إلى هذه الدرجة، لقد أذهلتني حقا.. سيارة محطمة ! « قالت بينما تضم ذراعيها على بطنها فيما تثني إحدى ركبتيها إلى الأمام قليلا، فرد علاء وهو يحدق إلى الشيء غائبا «هذا الشيء.. سيارة محطمة»

« يمكنني رؤية ذلك..»

« حقا..»

وأربكتها هذه الحقا حقا، حتى لقد تقدمت نحوه خطوتين ووقفت إلى جانبه يحدقان إلى الشيء معا، أردف بعدها «هل دخلت قبلا إلى هنا..» قال ذلك وعيناه لا تبتعدان عن الشيء فتيلا.

فردت «لا.. ليس خلال السنوات القليلة الماضية.. منذ دخل هذا الشيء إلى...» ولم تتمكن من إنهاء جملتها، ذلك أن علاء سحب الغطاء من فوق ما تبقى من هيكل السيارة المحطمة، ولقد ظلت شفتاها متباعدتان عن بعضهما طوال ثوان عدة ظلت خلالها تجرجر عينيها بين تلك الأضلع المعدنية المهشمة، لقد كان ذلك هو كل ما تبقى منى سيارة تعرضت لحادث مروع، قالت وقد زالت حالة التجمد عنها «هذه ليست سيارة والدي... إنها ليست..» ونظرت إليه من جانب، أردفت وذهول عميق على وجهها «هل ستبدأ الآن بإخباري ما الذي يحدث هنا، لماذا هذا الشيء هنا، لماذا... لماذا تصمت هكذا، قل شيئا هيا» أنهت كلامها صارخة.

« إنها سيارة والدي..»

ثم لم تقدر نسمة على أن أن تنطق بأي شيء بعدها، إنما ظلت تحدق إلى الشيء بذهول وارتعاش في مقلتيها.

« أجل.. والدك لم يحتفظ بهيكل سيارته بعد الحادث.. لقد رمى بها إلى مقبرة الحديد وتخلص منها مع أنها كانت لا تزال بحالة أفضل بكثير من هذا، حتى كان يمكنه أن يقودها مجددا لو أراد ذلك..»

«أنت تكذب..» صاحت نسمة وسحنة غضب تنهال على وجهها .

فرد علاء بهدوء بارد «لا، أنا لا أكذب.. أنا لا أكذب أبدا، والدك قتل والدي..» قال ذلك وهو يمرر أصابع يده على هيكل السيارة المحطمة «لا تفقدي أعصابك هكذا، ستسقطين على الأرض وسأضطرك لحملك وأنت لا تريدين هذا...»، وما إن توقف عن الكلام حتى سقطت من عينيها دمعة ساخنة واستقرت على الأرض بين قدميها، كانت تشد قبضتيها بانفعال حين قالت «أخبرني لماذا أخفى عني والدي هذا.. وأنت، كيف استطعت النظر إلى وجهه كل هذه المدة، كيف أتيت إلى هنا، كيف قام هو بجلبك، كيف جعلتني أنظر إليك بتلك الطريقة لماذا لم تقل شيئا لماذا والدي لم يكن يحبني... لماذا تخبرني الآن بهذا» قالت كل ذلك وعيناها تذرفان دمعا غزيرا، لقد كانت تبكي بكاء حقيقيا وهي تصرخ بكل كلمة قالتها، لم يلتفت علاء نحوها مجددا، بل دس يديه وقال ناظرا إلى الجدار المقابل أمامه «لقد سألت الكثير من الأسئلة... لكنني لن استطيع أن أجيبك عن جميعها..» ذلك بينما دمع كثير راح يترقرق وهو ينحبس في عينيها «الشيخ إبراهيم والذي أعده والدي أيضا لقد...

هل علي أن أخبرك بهذا أيضا» والتفت نحوها قبل أن ينهي جملته، وضع يديه على كتفيها فهدأت فجأة، توقف جسدها عن الارتجاف وتعدلت نبضات قلبها، وفيما شخصت عيناها في عينيه أردف علاء قائلا «أحد المتهورين تسبب في ذلك الحديث يا نسمة، كان يقود بتهور فدخل بيننا وبين والدك، وفيما هرب هو بعيدا... نحن توجهنا نحو بعضنا.. وفيما مات والدي نجوت أنا والشيخ إبراهيم رحمة الله عليه بكسور طفيفة.. لذلك وجدتنا نرقد متجاورين على الأسرة في المستشفى تلك الليلة... ما يجب أن تعلميه أنني سامحت والدك منذ مدة، بقى أن تسامحيه أنت أيضا..» وهز كتفيها قليلا ليذهب الذهول عنها، و راحت تحدق فيه بعيني طفلة صغيرة تغلغل الشرود فيهما «وأنا أيضا لم يكن والدي يعاملني تلك المعاملة التي أردتها، تلك المعاملة التي يتمناها طفل صغير ساذج.. لكنني أغضبته قبل اليوم الذي رحل فيه عني بفترة قصيرة.. قبل أن أتمكن من مراضاته مجددا.. وقع الحادث بسرعة ولم أجد وقتا لذلك، أترين السلوقي أيضا، لم يكن والده من نوعية الآباء التي قد يتمناها أي طفل في هذا العالم، لقد تركه ووالدته للجوع والبرد والعري لوحدهما، لقد كبر لوحده..في هذا البلد، أتعين ما الذي يعنيه ذلك.. وعندما عاد مريضا بعد مرور كل تلك السنوات استقبلته زوجته وأدخلته المنزل، ولم يسامحهما السلوقي بعد ذلك أبدا، لم يسامح والدته لأنها استقبلت زوجها وأدخلته المنزل.. لقد هرب عنهما لمدة ثلاثين سنة لم يعد فيها لرؤية أمه مرات كثيرة، قبل أن ينقطع تماما عن

فعل ذلك.. فقط كان يرسل لها بعض النقود من وقت لآخر.. لكن أترين الآن لقد مات والده فجأة، وقد يحدث نفس الشيء لوالدته أيضا، هي الآن تبكي في البيت لوحدها.. المسكينة اعتقدت أن ابنها سيأتي لزيارتها بعد أن رحل والده لكنه لم يأتي، بل لقد دخل السجن حتى، ومن المؤكد أنه لن يخرج منه خلال ما تبقى من حياة العمة عائشة.. أترين كيف يحدث الأمر سريعا، لكنني أعلم أنه سيندم أيضا، ربما ليس وهو على قيد الحياة لكنه سيفعل، الندم ليس شيئا يستطيع أن يفر منه الإنسان مهما واصل الهرب، هنالك وقت ستتعثر فيه قدماه في ذكرى ما ويسقط أمامه... والدك كان يحبك، لطالما أحبك فعلا، لكن موت والدتك حطمه... لقد جعله موتها شخصا آخر، كأنما مشاعره قد انكمشت تجاه البشر، كان يود دائما أن يأتي نحوك ويعانقك، أن يقبل جبينك ويخبرك كم أنت جميلة جدا، كم أنك تشبهين والدتك... لكنه لم يستطع فعل ذلك لفترة طويلة، أدري ذلك، لقد أخبرني، كان يحدثني عنك دائما، وعندما عاد إليه الأمر وحاول ربط الخيط الذي بينكما مجددا منعته من ذلك، لقد كنت غاضبة منه جدا، حتى لم تقدري على رؤية ما كان يحاول فعله من أجل أن تتحسن علاقتكما... لكنه أخبرني، أخبرني أنه يحبك جدا قبل وفاته، وكان يبكي لذلك أحيانا حتى وهو في سنه الكبيرة، لقد ندم على معاملته لك بتلك الطريقة بعد رحيل والدتك.. «قال ذلك وتوقف عن الحديث كأنما ليأخذ نفسا، فقالت نسمة وهي تمسح عينيها بينما أعاد علاء يديه إلى جيبي سترته «لكن لماذا لم يخبرني

عن مرضه أيضا، لماذا قرر أن يتركني هكذا فجأة... وأنا أيضا كنت أتوق لعناقه بشدة، كنت أحتاج سببا فقط لأفعل ذلك... لماذا لم يخبرني، كنت سامحته وقبلته وعانقته حينها، لماذا أخفى عني مرضه لخمس سنوات كاملة، لماذا لم يقل شيئا..»

« ذلك أمر لا أستطيع الإجابة عنه أيضا.. آه كم الساعة الآن..» رد علاء، فنظرت إلى ساعة يدها «التاسعة ونصف، تماما..»

« حسنا، إنه وقت خروجه حتما..»

« وقت من، خروج ماذا ؟..»

« لا، لا عليك» قال علاء وهو يرفع نفسا عميقا لأعلى «أخطاء الأبناء يغفرها الآباء دوما، لكن يخطئ الآباء فيدفعون الثمن غاليا... الأمر هكذا ... عليك أن تتوقفي عن البكاء وعليك أن تسامحي والدك لأنه غفر لك ألفا من الأخطاء التي لا تعلمين أنك ارتكبتها في حقه بينما كنت تكبرين بين يديه وأنت صغيرة.. والآن علي أن أذهب حالا، لقد تأخرت بما يكفي..» وبينما مرر إصبعه على أنفها أبدت رد فعل كقطة مدللة، قال بعدها «كوني بخير، حسنا..»

نادته من خلفه «إلى أين تذهب ؟..»، فالتفت إليها وحك رأسه كأنما نسي شيئا «بعض من قطرات الدماء لا تزال آثارها عالقة... يمكنك الآن أن تتخلصي منها إن شئت ذلك لقد احتفظنا بها بالفعل بما يكفي..» قال مشيرا بأصبعه نحو الهيكل المعدني القابع بداخل

المراب خلفها، وفيما استدار ذاهبا نادته نسمة من خلفه «حالتك تزداد سوءا... عليك أن تزور الطبيب قبل أن تعود إلى هنا، هل أنت ذاهب لفعل ذلك !! «وكان حالها يشبه كثيرا وهي تصيح نحوه بذلك حال الفتاة السعيدة، فكأنما حديثه الطويل قد أذهب عنها حزنها وأبدلها به شيئا آخر، كأن شمسا أشرقت وكأن السحاب قد ذاب عن قلبها، حتى لقد قالت بينها وبين نفسها «أحبك بابا» وهي تضغط شفتيها، فيما ترقرقت عيناها له شوقا، وقبل ذلك كان علاء قد رد عليها بقوله أنه سيزور الطبيب كما قالت، سيزوره حتما، في الواقع هو لا ينوي الذهاب إلى إلا مكان يشفي فيه غليله ويريح قلبه، كذلك ترك شدقة الباب مفتوحة وغاب في الخارج بمشيته الهاربة، فيما حدقت نسمة إلى السماء طويلا وعادت لما آلمتها عيناها المحمرتين من أثر الدموع إلى الداخل.

في بساتين الفاكهة وأمام غرفة القيادة وقف رياض منتصبا يجمع يديه خلف ظهره يحدق إلى الأشجار فيما يوجه جيشه الصغير من العمال يمنة ويسرة، إنه لم يعد واحدا منهم، لم يعد واحدا من العمال البسطاء الذين يكدحون طوال النهار لكسب قوت يوم لا أكثر، لا هو ليس ضمن دائرة «الزوفري» البسطاء بعد الآن، لقد استلم زمام الأمور وأصبح قائدا، كان يشاهد صناديق الفاكهة وهي تكدس على بعد خمسة أمتار فوق بعضها، لقد اعتاد رؤية علاء وهو يأمر العمال بمواصلة العمل حتى المساء أيضا مع مضاعفة أجرهم، وها هو الآن يفعل نفس الشيء ، لقد أمر فريقه بالعمل حتى بعد

الظهيرة، إنه بات قادرا على أن يميز متى تكون الثمار في خطر، فلا يمكن تأجيل قطف الطازجة منها ليوم آخر، لأن الشمس لا تتوقف عن الاحمرار صباح اليوم التالي، حطت أمام الصناديق حمامة زرقاء وضربت الأرض بمنقارها ضربتين ثم وثبت نحو الأعلى، رياض لاحظ أن صندوقا يحتوى ثمرة فاسدة فتقدم لينزعها، وشدت بصره حزمة أفكار ظن أنها تختبئ وسط السحب المتباعدة، حزمة أفكار مخيفة، متشابكة، بها أطياف سوداء، مبتورة، وجعل يضع يديه على الثمار فيما شردت عيناه هناك نحو الأعلى.

وحيث لا تنقطع السماء عن بعضها، طارت حمامتان فوق المباني مرورا بمسجد الرئيس وحطت إحداهما على حافة الجدار العلوية فيما دخلت الأخرى البيت ونزلت نحوى الأسفل، رفرفت قليلا وحطت على صحن النافورة، دارت قليلا فيما حولها ثم أحنت رأسها نحو قطعة خبز يابسة وجعلت تنهشها بطرف منقارها، وما هي إلا لحظات قليلة تلك التي مرت حتى انضمت إليها الأخرى بعد أن أنهت استطلاعها وأمنت الأمر أخيرا.

على يمين النافورة، وعبر إطار باب المطبخ الخشبية، كانت العجوز تثني ساقيها الهزيلتين تحتها على فرشة عتيقة، فيما تدور حبة كوسة في يديها وتقشرها، أنهتها ورمت بها إلى صحن آخر بجانب حبة بصل صغيرة، بينما ترتعش السكينة في يدها كانت تسقط من عينيها دمعات دافئة وينتهي بها الأمر على حجرها، كانت تبكي بصمت

على زوجها، لم تكن دموع البصل، كانت تبكي على ابنها الذي لم يعد لرؤيتها منذ أكثر من سنة مضت، وحتى قبل تلك الزيارة التي استمرت قرابة دقيقة كاملة، لم تكن قد رأته قبل سنة كاملة أخرى وهكذا، والآن مات زوجها ولم يعد لها من أحد ليصرخ في وجهها أو يلومها على أشياء لم تفعلها، أو أشياء فعلتها، لقد شرخ قلبها شرخا عظيما ولم تجد غير علاء ولؤي أمامها، وليسا شخصين يمكن البكاء على صدرهما، إنها عجوز تعد غداءها وتبكي، في الأعلى كان لؤي يجمع ملابسه في حقيبة الظهر التي كان يستعملها للدراسة، لقد طلب منه علاء أن يفعل ذلك صباحا، ذلك أنهما سينتقلان إلى بيت نسمة، سوف يعيشان معها من الآن فصاعدا، لكن ماذا عن العمة عائشة ؟ هل ستترك لوحدها ؟.. لؤي لا يدري، إن علاء لم يخبره عن أمرها أيضا، لكنه أخبره أن يلاقيه في بيت نسمة عند المساء على أن يحضر كل شيء يستحسن أن يحضره لسفرة طويلة.

رفع لؤي حقيبته على ظهره وراح ينزل الأدراج نحو الأسفل، سمعت الحمامتان وقع خطواته الصغيرة فطارتا نحو الأعلى، سقطت قطعة الخبز اليابسة أمام قدميه وتدحرجت قليلا، لم يرفعها عن الأرض أبدا، لم يكن قد رآها. نظر عبر شدقة الباب إلى العجوز فوجدها تمررها يدها على عينها والسكينة في يدها، امتلأ تحت أنفها بشعر أسود، إنه لم يحب معانقتها يوما مع كل الحب الذي كان يحمله في صدره الصغير نحوها، لقد اهتمت بحاله كثيرا حين كان يمرض، لكنه لم يذهب لتقبيلها، منظر الشارب يمنعه من فعل ذلك، أبعدت

الصحن عن حجرها وارتكزت بيديها على الأرض كي ترفع نفسها، لم يذهب لؤي لتقبيلها أيضا، علاء قال أن ذلك سيزيدها حزنا، سوف نذهب لرؤيتها في دار العجزة لاحقا، استعاد ذلك في ذاكرته ومضى بخطى لا يمكن لأذني لعجوز المريضتين أن تسمعاها نحوى الخارج.

على القرميد الأحمر الذي يغطي قصر نسمة الصغير كان سرب من الحمام ينفض ريشه ويتراشق الغرام بعضه بعضا، جاء ذكر حمام من منطقة أخرى فتطايرت خمسة منها من أماكنها وانتقلت إلى مواضع أخرى لكن على مقربة، دس الذكر رأسه تحت جناحه واخذ يحك ريشه بمنقاره الأخضر، وتحت ذلك بأربعة أمتار كانت نسمة تمسد شعرها في شرفتها بأريحية بالغة، فتأخذ نفسا عميقا وتبتسم مرة أخرى، قلبت وجهها الجميل على المرآة سريعا وقامت عن مكانها، هنالك من يضغط جرس الباب في الخارج، لقد تولت الخادمة ذلك، لكن نسمة أرادت أن ترى الأمر أيضا، اعتقدت أن علاء قد عاد حتما، علاء سيدلف الآن عبر البوابة، لقد وعدها صباحا بذلك، علاء كل ما تبقى لها في الدنيا، إنه بات قادرا على إسعادها دون أن يبذل مجهودا، لقد أصبح شخصا تنتظر لقاءه مهما بدا أن اللقاء سيكون فضيعا، مهما بدا علاء مزعجا وكان كلامه أثريا مختصرا، وقفت بفستانها البني على الصخور التي تفصل أرضية الحديقة وتؤدي إلى الخارج، ورأت الخادمة وهي تلهث عائدة إلى غرفتها بجانب المنزل، كانت شمس الغروب تسطع على جبين الخادمة وهي تقطع العشب الأخضر بخطواتها الثقيلة، ونظرت نسمة نحو البوابة مجددا، هناك

حيث ظهر علاء من خلفها وراح يتقدم نحوها بخطوات غير مكتملة، لقد بدا أنما يوشك على السقوط حتما، كان ينقل إحدى قدميه نحو الأمام فيوشك ذراعاه أن يسقطا نحو الأسفل، كان يمسك صدره كأنما ليمنع قلبه من أن ينفلت منه ويسقط أمامه، وقف أمامها وجبينه يتصبب عرقا، أدهشها المنظر، لقد وضعت يدها على فمها فيما حاولت لمس كتفه بالأخرى، كادت أن تصرخ وتبكي، طأطأ رأسه نحو الأسفل وإحدى يديه على قلبه، قال لها «لؤي..» ورفع عينيه نحوها، وجدت أنه يلهث بشدة، هو يحاول أن يتنفس، هل أنت تحاول أن تتنفس حقا !! سألت نفسها.. هل أصبح على المرء أن يكابد كل هذا لكي يحضا بقطعة هواء نقية، هل على صدرك أن يزأر بهذه الطريقة لتحيا ! لا، هي لا تتذكر أن الناس يحتاجون لأن تزأر حناجرهم ليبقوا على قيد الحياة أكثر، بالتأكيد هنالك خطأ ما، مثلا هي لا تحتاج إلى ذلك، صدرها لا يزأر أبدا.. والكدمة على وجهه ! أليس صحيحا أنها أول مرة يعود فيها علاء وهو يحمل كدمة على وجهه، لكن الزئير أكثر أهمية، الأمر يذكرها بشخص ما.. منذ متى كان علاء مريضا بهذا المرض، أم أنه أخفى عنها الأمر أيضا، أجل هو يستطيع فعل ذلك حتما، وله الحق في أن يفعل، لقد ذكرها الأمر بوالدها، ذلك الوجه الشاحب بعينيه المريضتين وأنفاسه المتعبة، جسد علاء أصبح هزيلا وبات يتنفس بصعوبة، هنالك زئير أيضا، وحركات متراخية، لكن والدها لم يستطع النهوض من فراشه حتى، لقد كان أكبر من أن يسمح له جسده المنخور بذلك، وعلاء فتى لا يزال في ريعان شبابه،

وإنه عنيد جدا، حتى يمكنه أن يعاند المرض... تذكرت وجه والدها وهو على فراش المرض، إنه وهذا الوجه يشبهان بعضهما، قالت «علاء..» وارتعدت عيناها.

انثنت ركبته نحو الأسفل، لكنه عاود النهوض مجددا، يده لا تزال على صدره، سمع صراخها فنظر إليها، واصل أخذ زفراته المتعبة، كان نفسه ينقبض لحظة بعد لحظة ويتلاشى، أطلق شهقة طويلة، بعين نصف مغلقة نظر إليها وجسده ينتفخ وينقبض بسرعة «لؤي..» حرك شفتيه قائلا «أخبري لؤي أن يسامحني.. إن تأخر، أخبريه أني أحبه..».

وصلت الخادمة عندهما وهي تلهث، لقد ركضت بضع خطوات وهي تلتف حول زاوية المنزل لتتفقد سيدتها الصغيرة، لقد سمعت صراخها لما أوشك علاء أن يسقط أرضا، لكنها وجدتها لوحدها، كان علاء قد هدج نحو الداخل وأغلق على نفسه الغرفة السرية، قالت «هل أنت بخير يا صغيرتي...» لا تتحدث إلى إذا كانت في حاجة إلى فعل ذلك، لقد وجدت دموعا في عيني سيدتها الصغيرة، قالت نسمة وهي تبكي وتشهق شهقات متقطعة «لا.. لا هو ليس بخير أبدا، أخبرني أنه سيكون بخير في الداخل، لكنه ليس بخير أبدا..» وضمتها الخادمة إلى صدرتها العريض واحتوتها.

« منعني من أن أطلب له الإسعاف حتى..» غمغمت نسمة على صدر الخادمة وعيناها تقطران دمعا «لقد أخبرني أنه لا يكذب أبدا...

لكنه الآن يفعل، هو ليس بخير أبدا، أنه مريض يا جميلة.. مريض جدا» وضمتها الخادمة بقوة أكبر وجعلت تمسح على شعرها بيدها الثقيلة.

فجأة رن جرس الباب مرة أخرى، وارتدت الخادمة نحوه لتفتحه، تركت نسمة لتمسح دموعها، لم يكن رياض هذا الذي يقف خلف الباب حتما، رياض لا يرتدي بذلة زرقاء في العادة، نسمة اخطأت، قالت أنه قد يكون رياض وهي تبعد وجهها عن صدر الخادمة، لكن المرأة الكبيرة تدري الآن أن سيدتها كانت مخطئة، لقد اندفع ثلة من رجال الشرطة عبر الباب نحو الداخل، اعتقدت نسمة وهي تراهم عبر ضباب عينيها أن هذا يعني وجود خطب ما، لكن المفتش اقترب منها حاملا قبعته في يده اليسرى، قال لها «نحن نبحث عن المدعو علاء قاسم.. هل هو هنا ؟» لقد وقفت أمامه كطفلة صغيرة يتم تأنيبها، ارتعدت شفتاها، اهتز صدرها من الداخل لكنها لم تبكي، تأكدت من وجود خطب ما. قالت هل ستأخذونه مني أيضا.. وواصلت التحديق نحوه، كانت عيناها تلمعان نهارا، ظن المفتش أن الخادمة لما أشارت لرب البيت فإنما كانت تقصد شخصا آخر. شيئا آخر، أي شيء غير هذه الفتاة الصغيرة التي تحاول جاهدة أن تحبس دموعها دون أن تنجح في ذلك ،» هل ستأخذونه مني..» قالت مجددا وعينيها تغلبانها.

خلف المفتش كانت أربع قبعات زرقاء تنظم في سطرين متجاورين

قرب بعضها، وكلها على مستوى قريب من رأسه، قال المفتش لما وجد أن لا فائدة من إطالة الحديث أكثر، قال رافعا أصبعيه لأعلى «فتشو البيت حالا..» فا ندفت القبعات سريعا نحو الداخل، نسمة لم تكن تصغي لما كان المفتش يحاول إخبارها، لقد كان جسدها الكرتوني يقف أمامه مترنحا، واصل الرجل إخبارها كم أن ورقة التفتيش التي بيده صالحة، لكنها لم تكن تصغي، كانت تحدق إلى لؤي وهو يأتي من خلف المفتش نحوهما، كانت تراه ألوانا ضبابية بسبب الدمع الذي تجمع أسفل عينيها، أرادت أن تصرخ نحوه، حاولت أن تقول شيئا، لقد اعتقدت أنها نجحت في فعل ذلك، لكن لؤي واصل التقدم بخطوات ثابتة، كان يحمل على ظهره حقيبة ثقيلة، اعتقدت أن ذلك ما منعه من الركض نحوها، ندى الصغيرة كانت تنام في غرفتها، لقد تركتها في الأعلى، تذكرتها لما رأت لؤي فجأة، والآن سيوقضها رجال الشرطة أثناء تفتيشهم غرف المنزل، لكن لماذا ينبغي عليها أن تقلق لذلك، سيأتي الليل بعد ساعات قليلة، لكن حقيبة لؤي لا تزال تهتز وتقترب بتثاقل نحوها، وضع لؤي خطوة أخرى على الطريق الحجرية، ثم وضع أخرى، وأخرى.. بدا كأن لؤي وقف أمام المفتش وراح يتحدثان إلى بعضهما ، حين أفاقت وعادت إلى العالم الواقعي وجدتهما يتحدثان في أمر علاء حقا، كان الصغير يحاول إخبار المفتش أن علاء شقيقه وأنه لا يمكن أن يفعل شيئا سيئا، فقاطعتهما قائلة «لماذا تبحثون عن علاء حضرة المفتش أخبرني..»

والتفت إليها المفتش بوقار بالغ «لقد فعل شيئا فضيعا يا آنسة..»

قال بثقة وهو يرفع عنقه لأعلى «لقد قام بحرق سيارة أحدهم، ثم قام بضربه بشدة.. هنالك شهود على الحادثة، الكثير من الشهود يا آنسة، إذن لا داعي لإطالة الأمر أكثر، نحن نعلم أنه توجه إلى هذا المنزل بعد أن قام بفعلته مباشرة...»، أزدرت نسمة ريقها وقالت بعينين شاخصتان في وجه المفتش الأبيض «لا يمكن لعلاء أن يفعل هذا.. هذا أمر مناف لطبيعته، مؤكد أن...» لكن الندبة على وجهه لم تكن تقول شيئا بخلاف ما قاله المفتش، تذكرت ذلك فجأة، إن علاء قد تعارك حقا، فنقلت وجهها نحو لؤي الواقف بجانب ساقي المفتش الطويلتين أمامها، كان البكاء يتسرب إلى وجهه، هبطت عيناه وارتفعت شفتاه لأعلى، أرادت أن تضمه، لكن إحدى القبعات الزرقاء ظهرت خلفها، قال الشرطي وهو يظم ساقيه إلى بعضهما بوقفة صارمة «سيدي لم نعثر على أي أحد في الداخل، لقد فتشنا جميع الغرف ما عدا واحدة لا تزال مغلقة...»

وأنزل المفتش وجهه الحجري نحو نسمة «تعالي وساعدينا على فتحها..» هكذا اختصر الأمر عليها، قالها دون أن ترمش عيناه لحظة. ولقد عاد يرفع رأسه كرة ثانية، وحده السلوقي كان ليستطيع نطح وجه المفتش لو توفرت لذلك شروط مناسبة، لكن السلوقي ليس هنا، وليس في البستان أيضا، إنما هو الآن في مكان بحيث لن يجد أمامه أي غصن يابس ليكسره، لا شرنقة ليرش الدواء عليها ولا لصا ليركل مؤخرته، إنما هي قضبان حديدية تنزل من أعلى سقف غرفته إلى أسفل تلك التي يستطيع الآن أن يمسكها بعنف أو أن يجلس أمامها

بصمت ويحدق إليها، أجابته نسمة بنبرة خوف غائمة «لا أملك مفتاح تلك الغرفة..»

« إذن لا تريدين تقديم المساعدة..» وقال المفتش جامعا يديه خلف ظهره ومحنيا ظهره نحوها.

صاحت في وجهه غاضبة «قلت لك لا أملك مفتاحها...» أرادت أن تنهش وجهه، هي لا تريد أن تصدق الأمر حقا، ولا تريد رؤية وجه المفتش بعد أن تفتح عينيها مرة أخرى، ولقد تطايرت منهما دموع حينما صاحت في وجهه وهي تغمضهما بتلك الطريقة، فجأة قال الشرطي من خلفها بكل الحماقة التي يمكن للمرء أن يستعملها لقول شيء كهذا ، لقد قال بوقفته المتخشبة «سيدي.. سنضطر لخلع الباب عن مكانها.. بعد إذنك»

وبينما الصغير لؤي ينقل عيناه الدامعتان بين الجميع انفلتت المحفضة من ظهره وسقطت على العشب خلفه، وانطلق يعدو نحو الداخل وهو يصيح باسم أخيه باكيا، حاولت الخادمة أن تمسك به وترفعه إلى صدرها، لكنها لم تجرأ على فعل ذلك، إن ذلك أمر لم يكن ضمن صلاحياتها يوما، حمل الصغار إلى صدرها. لقد تنحت عن مكانها وأفسحت له مجال ليركض.

وارتدت نسمة نحو الداخل أيضا، بدا أن المشهد يدور ببطئ بالغ، فيخيل للمرء أن حفنة شعرها وهي تمشي خلفي الشرطي الذي سبقها

تتطاير خلف أذنيها في تثاقل، ومن خلفهما وصل المفتش بمشيته الرسمية واتخذ لنفسه على أرضية الرواق مكانا إلى جانب أفراده اللذين أحاطوا الباب من كل جانب، وكان لؤي يحاول الفرار من بين ذراعي أحدهم وهو يصيح باكيا بينما وقفت نسيمة تحدق إلى الباب داهشة، وكانت ركلة قد وجهها أحد العناصر بحذائه الأسود على بطن الباب لم تفد شيئا. لكن الثانية فعلت. لقد خلعتها، وارتدت صفحة الباب نحو الداخل بقوة فأسرع اثنان من العناصر بسلاحيهما خلفها، فيما حرص الآخران على إبقاء لؤي ونسمة بعيدين عن المشهد، مرت عشر ثوان قبل أن يظهر أحد الرجلين بوجهه الصامت عبر الباب فجأة، كان قلبي لؤي ونسمة يخفقان بشدة وعيناهما تحبسان دمعهما، لكنهما هدآى عن الحراك بعدها لما تلى الرجل كلامه بصوت خافت «الفتى في الداخل، لكنه فارق الحياة يا سيدي..» قال ببرودة، ثم أطبق فمه مثل الفخ وتجمد في مكانه.

اعتقد لؤي أنه قد اعتاد على تلك الكلمات حقا، لن أظل معك إلى الأبد، لن أرافقك طويلا ولن أراك تكبر، وحتى سوف تعيش حياة أفضل حين أتركك وأرحل، كلها جمل كان علاء يخبر بها أخاه دوما، كأنما ليحظره لأمر كهذا، لكن لؤي نسي كل ذلك فجأة، نسي كم مرة جلسا إلى بعضهما وتحادثا عن ذلك المرض أيضا، كان لؤي يسأل إن كان المرض مؤقتا فكان علاء يرد بنعم، نعم المرض مؤقت، إنه لا يمكن أن يدوم أبدا، إما بانتهاء المرض أو بانتهاء صاحبه، وفي كلتى الحالتين سينتهي المرض، إنه لا يدوم أبدا، مثل كل شيء على هذه

الأرض، مهما حاولت الأشياء أن تكافح فلا بد أنها ستنتهي يوما، لذا بعض الأشياء تكافح ما استطاعت، تكافح يائسة، فيما تختار الأشياء الأخرى الطريقة السهلة، لؤي سؤل علاء مرة لما توقف عن زيارة الطبيب فجأة، فأجابه علاء بأن الطبيب يستطيع تأخير الأشياء فقط، أجابه ببساطة وأخفى كل الأشياء الأخرى في قلبه، الآن تذكر لؤي لما طلب منه أن يجهز حقيبته وأن يترك العجوز في البيت لوحدها، أخبره أيضا بأنه ترك للعجوز ورقة على جدار غرفتها لتقرأها، الآن تذكر كل ذلك وغلبته دموعه فبدأ بالصراخ قدر استطاعته، حاول الشرطي تثبيته ونجح في فعل ذلك، أما نسمة فلم تكن أحسن منه حالا ويد شرطي آخر على ذراعها، لقد اهتز قلبها في الداخل لما استوعب كلام الشرطي أخيرا. وانتشرت في صدرها حرارة لاذعة، حاولت أن تفلت ذراعها لتدخل الغرفة، لكنها انهارت، وقعت على الأرض مغشيا عليها، رفع الشرطي جهاز الإتصال إلى فمه وغمغم بطلب سيارة إسعاف من الجهة الأخرى، ذلك آخر ما سمعته وعيناها تغرقان في ظلام دامس، أما لؤي فرأف المفتش لحاله وسمح بإدخاله لرؤية ما تبقى من شقيقه الأكبر، مات علاء وذهبت شكوى صاحب سيارة المرسيدس المحترقة أدراج الرياح مثلما ذهبت شكوى علاء على مقتل أبيه قبل خمس سنوات أيضا، ولا ضير في ذلك، كل الشكاوى تذهب أدراج الرياح في هذا البلد.. ليس كلها.

-

-11-

إن ما وجدته نسمة قرب وجهها عندما أفاقت صباح اليوم التالي كان ورقة بيضاء مطوية طوية واحدة بجانب رأسها، كان الهواء المتسرب إلى غرفتها عبر باب الشرفة يحرك جزء الورقة العلوي قليلا، أرغمت نفسها على النهوض وأسندت ظهرها إلى ظهر وسادتها وحملت الورقة إلى يديها، كانت عيناها ملطختين بالسواد بسبب الخيبة، لقد بكت طوال الليل تقريبا، بعد كل إفاقة، ولم تزل آثار ذلك واضحة على وجهها.

استنشقت شيئا من هواء الغرفة. أرادت أن تعود إلى البكاء مجددا. لكنها ردت خصلات شعرها خلف أذنيها و ضمت ركبتيها إلى صدرها وفتحت الرسالة وراحت تقرأ... وكانت تلك رسالة وجدها الشرطي الذي تولى ركل باب الغرفة ليقوم باقتحامها. هناك حيث وجد علاء راقدا على سطح المكتب والرسالة بجانب وجهه. حيث وجده يرقد

رقدته الأخيرة على سطح هذا الكوكب.. وكان على ظهرها وصاية صغيرة تقضي بأن تكون نسمة هي أول من يستلم نسمة الرسالة ويفتحها وليس أحدا آخر.

لقد راحت تقرأ»

نسمة... اعتذر عن بدأ الرسالة باسمك..

حقا لا أدري كيف تبتدأ الرسال فأنا لم أكتب رسالة قبل هذا، لم أحضى بأي شخص كهذا في حياتي قبلا، شخص قد أكتب له رسالة، الأمر مربك ها..

ما أريد قوله الآن هو.. أولا أنا أكتب ما أريد قوله مباشرة، لم أستعمل ورقة أخرى للمحاولة، حتى أنني أكتب ما قد يفكر فيه أي كاتب رسالة ولا تجوز كتابته، أخبرتك أن الأمر مربك..

والدك، العم إبراهيم.. أترين أنني دخلت الموضوع مباشرة.. لم يكن والدا سيئا، كان يحبك أكثر من نفسه يا نسمة، لكنه... دعيني انظر إلى الساعة.. الثانية عشر ونصف ليلا.. لؤي نائم في فراشه، أنا أبتسم لمنظره كالأبله.. غدا سوف يأتي للمبيت عندك، ليبقى دائما.. سأخبره بهذا صباحا.. لماذا يبقى عندك ؟.. لأنني لن أستطيع التواجد قربه أكثر من هذا، قلبي يؤلمني بشدة وأنفاسي تختنق..: أشعر أن داخلي ينكمش.. الأمر يشبه أن ديدانا تأكل قلبك مثل تفاحة

فاسدة..أتذكرين ذلك اليوم الذي جئت فيه إلى المستشفى لتري والدك !.. أجل يوم الحادث، لم تنظري إلى الشخص الذي كان يرقد بجانبه حتما، لكنني راقبتك من خلال شق صغير بين الضمادات التي كانت على وجهي، راقبتك وأنت تبكين على صدر والدك، أترين كم تحبان بعضكما.. بقيت أنا والعم إبراهيم هناك على الفراش لأسبوع كامل حيث تعرفنا على بعضنا.. أخبرني أنه يمتلك بساتين الفاكهة، وأخبرته أنني كبرت فيها أيضا، من العجيب أننا لم نلتقي قبل ذلك مع أنني عملت في معظمها... أحاول أن أخبرك عن سبب وجودنا في نفس الغرفة.. علي أن أختصر الكلام أليس كذلك، اعذريني على هذا فأنا لم أقم بالتحدث على الأوراق قبل الآن أبدا، تعلمت من المدرسة كيف اقرأ وكيف اكتب لكنني لم أستعمل أيا منهما كثيرا.. كانت سيارة مرسديس بيضاء فاخرة، اجل.. هي من جعلت والدك يفقد السيطرة على مركبته، قبل أن يتوجه نحونا، الآن أنت تعلمين كيف فقدت والدي، وكيف دخلنا تلك الغرفة معا في المستشفى.. لم تكن علاقتي مع والدي جيدة.. كنت قد أغضبته كثيرا.. ثم لم أجد فرصة للاعتذار بعد ذلك، فقد الوعي داخل السيارة، وما سوف أريك إياه غدا هو كل ما تبقى منها.. أجل ذلك الشيء بداخل المرآب ليس هيكل سيارة والدك، بل عليه دماء والدي... اعتقدنا أن إبقاءه بقربنا طوال تلك السنين سوف يذكرنا بذنوبنا دوما، كانت تلك فكرة والدك.. الآن هناك أمر يجب أن تعلميه أيضا، أترين كيف أكتب كل ما يتبادر إلى ذهني، لم يكن علي كتابة ذلك.. سوف يبقى لؤي معك

من الآن فصاعدا، رياض وندى أيضا.. ستكونون عائلة جديدة، ينبغي أن تفرحي لذلك... بإمكان رياض أن يهتم بأمر العمل جيدا، لقد علمته كل شيء أعرفه.. «

بوجه مبلل راحت نسمة تطالع تلك الأحرف.. بيدين ترتعشان وصدر مضطرب، بشهقات متقطعة، وبدمعة سقطت على وجه الورقة فبللتها، واصلت قراءة ما تبقى من أسطر :

سوف تتزوجين رياض يوما ما، لقد تحدثت والعم إبراهيم في ذلك أيضا... لم يكن والدك يعلم أنه مصاب بمرض القلب إلا بعد حصول تلك الحادثة، إنه مثلي لم يحب زيارة الطبيب يوما.. أما أنا فلازلت أصارعه منذ ثماني سنوات كاملة.. ضحكنا على بعضنا في تلك الغرفة.. كان هو من اخترع فكرة الديدان لأول مرة.. قال أننا سندفع ثمن قتل تلك الحشرات على أغصان الشجر حتما.. الوقت يشير الآن إلى الواحدة، لقد تأخرت كثيرا في إنهاء الرسالة وأخذت مني وقتا.. في تلك اللحظة طلب مني أن أرافقه إلى العمل في بساتينه... قد يبدو رياض شخصا غير موثوق فيه أبدا، لكنه يحبك.. وسيفعل أي شيء ليبقى بجانبك وكي لا تتوقفي عن رؤيته بتلك النظرة، رياض شاب جيد جدا، وبشهادة أكرم أيضا... هناك أمر لا تعلمينه أيضا، لؤي يمتلك الآن ما يقارب المليار سنتيم مخبئة لأجله دون أن يدري بذلك، حين بدأت العمل مع والدك قمت باستثمار مبلغ من المال كنت جمعته سابقا أثناء عملي في البساتين لوحدي.. لكن والدك

أدخلني إلى العمل..من بابه الواسع.. فنجحنا معا، طهو الفاكهة عمل مربح جدا عندما تعمل فيها وأنت تعرف ماذا تفعل.. المال مخبئ في غرفة نومنا تحت لوحين عليهما فرش قديمة، عليك أن تذهبي إلى هناك برفقة ورياض كي تستخرجاه بسرعة، لا تقلي بشأن العمة عائشة..سوف تأتي غدا سيارة خاصة لتقوم بنقلها إلى دار العجزة، فعلى أية حال لن تستطيع مواصلة العيش هناك لوحدها... أعتقد أن أصحاب رياض اللذين يعيش برفقتهم هم من قاموا بضرب زوجها على رأسه أثناء بحثهم عن المال تلك الليلة، سليمان رئيسهم، لقد أخبرني أن سيارة المرسيدس عادت إلى البلد مؤخرا، ينبغي أن أذهب إلى هناك غدا وأجدها.. لا أدري إن كان قلبي سيمنحني الوقت لفعل ذلك.. الألم يزداد كل لحظة، لا أريدك أن تبكي.. حقا لا أريدك أن تبكي وأنت تقرئين هذا، لكنك لا تسمعين الكلام أبدا... قال العم إبراهيم أننا ينبغي أن نموت في يوم واحد، لكنه لم يكن صادقا في كلامه.. ضحكنا كثيرا على بعضنا.. لقد تحدثت كثيرا.. لا أدري كيف أنهي هذا أيضا، كيف تنهى الرسائل.. لؤي سيحمل حقيبته ويأتي غدا، لا أريده أن يراني... أنا الآن أبكي.. أترين تلك الكلمة في الأعلى.. لؤي.. سوف تجدين أنها تلطخت .. سقطت عليها دمعة... لؤي ينبغي أن يعيش حياة أفضل من التي عشتها، ومن التي عاشها والدينا، هل أخبرتك أن أمي توفت بسبب فقرنا، في الجبل كنا فقراء جدا.. كان ثمن الدواء باهظا بالنسبة لوالدي.. لم أرد أن أصرف تلك الأموال لأنني أقسمت أن لا ألبس أفضل مما لبس والدي،

أن لا أنام في فراش أفضل من الذي ماتت عليه أمي، وأنا لا أتناول طعاما أفضل من الذي كانت تطبخه.. لم أبكي منذ مدة، أتعلمين يا نسمة كم أنت جميلة جدا... لم أستطع أن أعتذر من والدي، كان اسمه يوسف.. لقد مات غاضبا علي يا نسمة، أتدرين ما الذي يعنيه ذلك.. كنا نركب السيارة نفسها متوجهين إلى العمل، سيارتنا القديمة، أبي كان يعمل في الحقول أيضا ولم نكن طوال الطريق قد تحدثنا إلى بعضنا، أردت وأنا في المستشفى أن ألحقه، لكن العم إبراهيم كان يجعلني أتراجع عن تلك الفكرة، كان يقول أن فكرة الامتناع عن شرب الدواء أفضل.. فكرت في الانتحار حقا، لماذا أبادل والدي كلاما لا يجب قوله... ادخرت كل تلك النقود من أجل لؤي خصيصا و ينبغي أن يحصل عليها حينما يصبح مستعدا لذلك، لقد حصلت على عائلة جديدة... هنيئا لك يا نسمة، سوف تمرين بكل هذا، وسوف تتجاوزينه أيضا.. أترين تلك الغرفة التي نبقى أنا العم إبراهيم بداخلها.. ليس فيها أي شيء مميز، فقط بعض التقارير الطبية قمنا برميها فوق المكتب، وبعض التحاليل المعلقة على الجدار للزينة، ويوجد أيضا طاولة داما اعتدنا أن نمضي الوقت خلفها، غلبته مرات أكثر، لم تكن إلا غرفة لشخصين يتباحثان أمور العمل فيها، لم تكن مميزة أبدا، لذلك منعت من الدخول إليها حتى لا تري تلك الأوراق المرمية على المكتب... اعتاد العم إبراهيم أن يحدثني عنك حينما نصبح لوحدنا في الداخل، حاول أن يقبلك مرات عدة وأن يضمك

إلى صدره، أخبرني المرة الأخيرة التي فعل فيها ذلك كانت حينما وجدته راقدا على سرير المستشفى، هل ينبغي علي أن أجرح نفسي لتعانقني مجددا .. كان يسألني حزينا.. قد ترغبين في جمع العمة عائشة مع الخادمة لتساعدها في كنس الحديقة، سأكون سعيدا جدا لو فعلت ذلك، أنت الآن ربة بيت وتمتلكين القرار لفعل أي شيء تريدينه... صدري يؤلمني بشدة، وددت لو أنام فلا أستيقظ بعدها حتى لا أواجه الأمر ولا أشعر به أبدا، تحدث قبل الموت أمور كثيرة.. أحاول أن أمنع نفسي عن البكاء لكنني أفشل في فعل ذلك، يبدو أنني أيقظت لؤي بحركة قدمي.. وهذا لا تجوز كتابته في الرسائل أيضا.. هل أخبرتك أن لؤي تعلم عزف الناي مني.. كنت أحب الناي كثيرا.. لطالما عزفت عليه لما كنت بصحة جيدة.. لكنني أعطيته إلى لؤي.. سوف تستطيعين رؤيتي كلما نظرتي إلى أخي... عيناي تحرقانني.. سيشتاق إلي جدا..ليتك ترينه كيف ينام كدمية صغيرة.. يا الله كيف تكتب الرسائل..

أدعي لي أن أنجح في ضرب ذلك البائس غدا.. لكن سأكون قد فارقت الحياة حين تقرئين هذا، حينها لن أكون في حاجة إلى دعائك.. لا تؤاخذيني فأنا أكتب ما أفكر فيه الآن دون ترك كلمة واحدة.. عندما خرجنا من المستشفى رفعنا شكاية على صاحب المرسيدس.. لكنه نجا بفعلته، العم إبراهيم غضب لذلك جدا، قال أن والده دفع مالا لقاء ذلك، فيما قررت أن أحرق سيارته اللعينة،

روح والدي مقابل سيارة مرسيدس بيضاء جميلة.. هل يبدو الأمر عادلا... حقا لا أدري إن كنت أملك القوة لكي أضرب ذلك اللعين حقا، ما أعلمه أن احتمال استيقاظي غدا ضئيل جدا... كل ما علي فعله الآن هو أن أدس الورقة في جيب معطفي، سأنام به أيضا تحسبا لعدم استيقاضي، ستكون الورقة في جيبي ولن تضيع أبدا... قلم لؤي يكاد يفرغ، النعاس أصبح قويا جدا، أشعر بدقات قلبي تهتز في عيناي من شدة الألم، والحرارة.. ينبغي علي أن أخلد إلى الفراش حالا، أكاد أسقط عن الكرسي حقا.. هل أخبرتك أنني فكرت في الانتحار في المستشفى لكن والدك غير تلك الفكرة... أجل كتبت هذا أيضا.. أنا لست مثل السلوقي يا نسمة، أنا لست رجلا قاسي القلب مثلما كنت أتظاهر، إنما أنا شخص حمل بعض الذنوب في صدره وأقسم عليها... بعض الأشياء كان ينبغي علي أن أخبرك بها سابقا.. حينما سرق رياض منك تلك النقود ووجدتك تبكين أسفل الجدار رغبت في أن أضمك إلى صدري، كنت تبكين كطفلة صغيرة... هل كنا أحمقين حين أخفينا مرضنا المشترك عن جميع من حولنا حقا لا أدري، لكنني لم أخفي الأمر عن لؤي أبدا، لطالما علم بما كنت أعانيه بصمت يوميا.. أخبرته عندما استودعت عنده الناي إلى الأبد..أردته أن يعتاد الأمر مسبقا، لكنه لا يدري أن رحيلي بات وشيكا جدا، قد يكتشف الأمر عندما أطلب منه القدوم عندك غدا، لكن عقله لم ينضج بعد إلى تلك الدرجة.. فهو يزال صغيرا، سوف

يبكي وينسى، ينبغي أن تشكلوا عائلة.. أنت، رياض، لؤي وندى... أشعر أن مخي يغلي من الداخل، حتى أنني حاولت فتح النافذة مع أنها مفتوحة سلفا، أنا اختنق في الغرفة، أشعر أن قلبي متردد فيما يفعل.. لا أدري عن كان الجو دافئا أم باردا.. ما أعرفه هو أنني لست بخير أبدا.. الآن عرفت لما طلبت منك أن ترافقيني إلى الشاطئ، أردت أن نقضي بعض الوقت معا.. كان يوما رائعا..كنت طلبت منك أن تقذفي الحجر نحو البحر أولا لكنني رميت حجري أيضا في نفس اللحظة وأصبته، الحجر خاصتك سقط على الرمال ولم يصل إلى المياه أبدا، لكن الحجر الذي يخصني ارتد نحو المياه وغرق نحو الأسفل... أردت أن تري كيف حدث الأمر سريعا، لقد عشنا جنب بعضنا لخمس سنوات كاملة، لم يقترب أي منا نحو الآخر أبدا، لكننا اقتربنا في النهاية، اقتربنا لنبتعد مجددا، مثل الحجرين تماما، أنت ستبقين على الرمال فيما أنا موشك على الغرق، لقائنا كان بتلك السرعة يا نسمة، لقد كان يوما واحدا، وكان لحظة واحدة... أشعر أن الديدان في صدري قد تضاعف عددها، وزاد جوعها.. إنها تأكلني بشراهة من الداخل.. الأمر مؤلم، مؤلم جدا ويصبح فضيعا مع كل لحظة... لم أكن أدري أن كتابة الرسائل متعبة.. كدت أنسى شيئا، هل أخبرتك عن أعواد الشواء أيضا.. لا لم اكتب عن هذا، أترين أنني أكتب كل ما أفكر فيه كالأحمق الذي لم يسبق له أن كتب رسالة.. اشتريت أعواد الشواء واحتفظت بها في يدي مع أنني لا أتناول اللحم

في العادة لسبب واحد.. أردت أن تطلبيها مني بنفسك، أجل.. نسمة تطلب من علاء شيئا، هذا لم يحدث قبل هذا اليوم أبدا أليس كذلك.. ولآن كيف ينبغي لي أن أنهي هذا.. أنا حقا لا أدري يا نسمة، لا أدري كيف تذيل الرسائل.. سوف نتحدث غدا أيضا، سوف أخبرك عن أمر ذلك الشيء بداخل المرآب يا نسمة.. إن سمح الوقت بذلك...

نسمة وهي تنزل الورقة بعيدا عن عينيها لم تكن في فراشها كما ظهر في أول المشهد، لقد مشت نحو الشرفة، وقفت تبكي فيما عيناها تتفقدان المسافة نحو الأسفل، الخادمة جميلة كانت تتفقد صنبور المياه في الحديقة، ولم تدري إلا وصوت نسمة قد على صاعدا نحو السماء خلفها...

والحال في المقبرة لم يكن جيدا أيضا، إن عيون الجميع لم تكف عن سكب ما بداخلها، حتى لما خرجوا منها تاركين علاء راقدا تحت كومة التراب لوحده، رياض كان يبكي بحرقة فيما يحاول إسكات لؤي ، لقد تأخرا عن الجميع قليلا لما بقيا واقفين لوحدهما عند القبر حتى بعد مغادرة الآخرين، الحاج أحمد وابنه أكرم كانا من بين اللذين غادروا أولا، وتلاهم حشد الناس بعد ذلك، أناس لا تربطهم أي صلة بالميت، لكنها جنازة، لقد أتوا.. رياض لا يزال واقفا خارج أسوار المقبرة يحدق إلى الداخل، لؤي أيضا... بقلبين يعتصران مرارة فقده،

إنه ليس شخصا يسهل فقده، لم يكن يوما كذلك... لكن أمورا مثل هذه تحدث، يقال أن بعض الأموات يحيون في قلوب من يحبونهم، فهل من الأموات من يموت أيضا.

الخادمة وهي تخفض صدرها الثقيل لأسفل، شعرت أن قضيبا من الحديد الساخن قد اخترق صدرها لما التفتت نحو مصدر تلك الصرخة، ولم تدر ماذا تفعل، لكنها فعلت شيئا، لقد سقطت بيديها على العشب من شدة الهلع، حاولت أن تركض نحو سيدتها المطروحة على العشب تحت شرفة غرفتها، لكن بدانة جسمها شكلت عائقا، إنها لم تنجح في الركض نحو سيدتها بسرعة اكبر من تلك التي كانت تحرك بها ساقيها العريضتين نحو نسمة .. نسمة أدركت كم أنها قد بقيت لوحدها مجددا في هذا العالم، بعدما أحبته أخيرا.. ومن يدري، فليست كل محاولات الانتحار تكون ناجحة، بل إن الكثير منها تبوء بالفشل، حتى أن ارتفاع الشرفة لم يكن كبيرا.. يبقى أن الخادمة جلست عندها وحاولت إيقاظها عبر دك صدرها بيديها، كأنما تعصر عجينا، ولم تنجح، فأجرت لها تنفسا اصطناعيا، أجرت لها تنفسا اصطناعيا ثم حملتها مستعينة بذراعيها القويتين ومشت بها نحو الخارج.. الرسالة كانت لا تزال على الشرفة، لقد أسقطتها نسمة من يدها قبل أن تفعل ذلك، كأنما لتجدها مجددا وتعيد قراءتها..

النهاية